د. محمد سعيد القشاط

عرب الصحراء الكبرى

التوارق



الدار العربية للموسوعات

عرب الصحراء الكبرى

التـوارق

عرب الصحراء الكبرى

التـوارق

د. محمد سعيد القشاط

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الرابعة

٢٠٠٨م - ١٤٢٨هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان

ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961

هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

الإهـداء

إلى ولدي سيف

الذي شغف معي بالصحراء

علّه يكمل الطريق الذي بدأته

د. محمد سعيد القشاط

مقدمة الطبعة الرابعة

عزيزي القارىء

هذه هي الطبعة الرابعة لكتاب «التوارق عرب الصحراء الكبرى».

وما بين طبعته الأولى وهذه الطبعة جرت الكثير من الأحداث في المنطقة وفي غير المنطقة. فلقد تغيرت حكومات وجرت أحداث وسقط قادة وارتفع آخرون. وانهارت دول وصعدت أخرى واختل توازن العالم وانهارت الكثير من الشعارات وتبخرت الكثير من الأحلام وبرزت أشياء لم تكن في الحسبان.

جرى كل هذا والتوارق كغيرهم شملهم التغيير وجرفتهم الأحداث. فحملوا السلاح ضد دولهم المقيمين فيها، مالي والنيجر، مطالبين بالمساواة والعدل ومعاملتهم كمواطنين على نفس صف المواطنين لهذه الدول، وسقط منهم العشرات. وارتكبت الكثير من المذابح في حقهم، وتم إسقاط الرؤساء الذين كانوا يحولون بينهم وبين العدل في كل من مالي والنيجر. والتقى الشعب المالي شماله وجنوبه على مائدة المفاوضات كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، وكذلك في النيجر.

وسعت الجماهيرية في شخص قائدها العقيد معمر القذافي إلى

لمّ الشمل وتضميد الجراح بين الأشقاء كما سعت جمهورية الجزائر كذلك.

وبكل هذه المجهودات الأخوية أصبح التوارق يعيشون في مناطقهم آمنين. وتقلد الكثيرون منهم المهام التي تؤهلهم لها مؤهلاتهم في بلدانهم. وشرعوا في بناء أوطانهم وتخرج لهم المئات من الجامعات الليبية، وأصبحوا كوادر في مالي والنيجر. وأصبحت منظمة دول الساحل والصحراء تضم أكثر من عشر دول في شمال ووسط القارة الأفريقية تضم وسطها عرب التوارق.

أما بخصوص الكتاب، فلقد تلقيت الكثير من المراسلات من قيادات ومشائخ التوارق في كل من ليبيا والجزائر ومالي والنيجر وكلهم يثنون على المجهود الذي بذلت في الكتاب ويؤكدون صحة المعلومات التي وردت فيه. ولولا بعدي عن مكتبي في طرابلس الغرب حيث توجد هذه المراسلات لأوردتها في الكتاب.

عزيزي القارىء

إن تشجيعك ونهمك للاطّلاع وبحثك عن أخبار شعبك العربي المسلم في الصحراء الكبرى هو الذي دفعني لإعادة طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة فلك شكري وتقديري وتمنياتي الطيبة.

الرياض 2003/4/25 **د. محمد سعيد القشاط**

مدخل

أذكر في حداثتي وبالتحديد في عام 1949 وأنا في السنة الأولى الابتدائية، أن قدمت سيدتان إلى المنتجع الذي نسكنه في البادية في سهل الجفارة وهما تعزفان على آلة مصنوعة من الجلد المربوط على قدح من العود، وقد شُدَّت على واجهته عصا قصيرة ربط فيها قضيب من شعر ذيل الفرس، وتدعكانها بقضيب آخر ربط في طرفي قوس خشبي. وتصدر هذه الآلة نغماً جميلاً يتردد مع غناء النسوة فتشعر وكأنه إنسان آخر له حنجرة جميلة يردد مع المغنيات. وقيل لي إن هاتين المرأتين من قبائل التوارق جاءتا من الصحراء تطلبان الصدقة بهذه الآلة.

وكان إعجابي بهذا الصوت منقطع النظير بحيث صرت أتبعهما إلى الخيام المجاورة لأسمع اللحن والغناء. ولا زال جمال ذلك الصوت يرن في أذني حتى هذه اللحظة.

ومرَّت السنون والأيام ولم أكن أدرك أن ذلك الإعجاب سيكبر معي ليصبح إعجاباً بالتوارق وعاداتهم وتقاليدهم وفروسيتهم وشهامتهم.

وقدَّر الله لي أن ساقني باتجاه هذه القبائل في معظم سني عمري وعملي فما إن تخرجت من معهد المعلمين، حتى وجدت نفسي مدرساً

في منطقة غدامس التي يسكنها التوارق ويعيشون في الصحراء التي حولها.

انسجمت مع التوارق في منطقة درج حيث تسكن قبيلة منغساتن، وتشاء الصدف أيضاً أن ألتقي بإحدى تينك المرأتين وأصبحت صديقاً لزوجها وهو من كبار مجاهدي التوارق.

عاملني أفراد هذه القبيلة وكأنني أحد أفرادها. وتعلمت الكثير من عاداتهم وشاهدت أفراحهم وأتراحهم. كما تعلَّمت أيضاً حروف (التيفناغ) والكثير من المفردات التارقية.

كانت فترة بقائي بتلك المنطقة ثلاثة أعوام كاملة، كفيلة بأن تجعلني أتعرف على الكثير من رجالهم وشبابهم ويحدثونني عن أمورهم ما كبر منها وما صغر. من عادات الزواج والأعراس حيث كنت أسمر معهم، إلى ألعاب الشباب والشابات التي يحدثونني عنها. إلى ألعاب الأطفال التي كنت أشاهدها في مخيماتهم قرب القرى والمدن.

رأيت مكانة المرأة في المجتمع التارقي. كما شاهدت تصرفات صغارهم في حضور الكبار. ووقار كبارهم في المجالس حيث كانت تعقد كل مساء.

رأيت مكانة (الأمغار) واحترام الجميع له. كما رأيت وجوم الشباب في مجالس الكبار.

رأيتهم عندما يفرحون وينطلقون في الرقص. ورأيتهم عندما يصمتون في لحظة الاستماع (للأمزاد).

رأيتهم عندما يفقدون عزيزاً وكيف لا يفارقهم وقارهم كما رأيتهم عندما يفقدون غير عزيز وكيف يتصرفون.

مجموعات لا يبطرها الغنى ولا يذلها الفقر. لهم طقوسهم الخاصة بهم في صحرائهم، لا يمزق براقع تلك الطقوس ممزق. اتخذوا من الصحراء غموضهم وصمتهم وتأملهم، وإذا ما أنسوا إليك عاملوك كما يعاملون أولادهم.

ثلاثة أعوام كاملة ظننتها هي الفترة التي شاء الله لي أن أحياها بين التوارق غير أن المقادير لها في شؤوننا رأي وأي رأي.

فما أن قامت ثورة الفاتح من سبتمبر في ليبيا حتى وجدت نفسي مكلفاً بالاهتمام بمنطقة الصحراء الكبرى ودراستها، وأصبحت في «أغسطس» 1972 مربياً للصحراء. أكتشف مجاهلها وأقطع فيافيها وأدرس كنهها. أقف على شاطىء المحيط الأطلسي تارة. وأنطلق شرقاً إلى الحدود الليبية. قاطعاً موريتانيا شمالاً وجنوباً. جاعلاً من محيط الساقية الحمراء منطلقاً نحو شنقيط وجبال كيدال. وصحراء الآيير. مطلعاً على منتجعات بدو الصحراء ساكناً إليهم. آوي إليهم كلّما وجدت نفسي في هذه الصحراء. متخذاً منهم أهلاً عوضاً عن أهلي ومن بيوتهم خياماً عوضاً عن خيامي في سهل الجفارة بليبيا.

استقبلني العرب في منتجعاتهم وأحببتهم لدرجة أنني عندما كنت مفارقاً لهم عائداً إلى ليبيا توصيني نساؤهم وأطفالهم ويوصيني رجالهم (لا تبطأ عنا) أي لا تتأخر وتطول غيبتك عنا.

استقبلني التوارق في مخيماتهم بصمتهم الفلسفي ووقارهم الرزين

معتبرينني ابناً من أبنائهم. ورجلاً يقاسي الشديد من أجلهم. ويسعى للنهوض بهم والاطلاع على ما غمض من شؤونهم. فبادلوني حبًّا بحب وتقديراً بتقدير. وفتحوا لي صدورهم كما فتحوا لي خيامهم وصارحوني بمميزاتهم الخيرة وغير الخيرة. وكانوا يسردون على مسامعي عيوبهم وهم يضحكون.

لقد أتقنت عاداتهم لدرجة أن صرت لا يميزني مميز عنهم وأتقنت لباسهم حتى صرت أتقن العمامة واللثام أكثر من كثير من شباب التوارق. كما صرت أمتطي الجمل المهري وأقفز عليه كما يقفزون وأتعامل معه كما يتعاملون. حافي القدمين. ضيق اللثام معتدل القامة في مقعد الراحلة أمسك الخزام بيد والسوط باليد الأخرى. إذا رأيتني والمهري يسابق الريح وأنا في مجموعة من التوارق لا يمكن أن تميزني أو تفصلني عنهم. أخبز الخبز وأنضجه في الرمل المحمى. (تاجلاً) وأصطاد الصيد وأنضجه على الأحجار المحماة أو جمر الطلح. وأمسح يدي في رقبة جملي وأواصل الطريق.

إن نيفاً وثلاثين سنة من معاشرة التوارق والتنقل بين منتجعاتهم والاجتماع برجالهم وشبابهم من مختلف الطبقات جعلني ـ دون أدنى شك ـ من القلائل الذين يتحدثون عن التوارق بمعرفة. خاصة وأنني لم أقتصر على المعرفة المرئية والمشاهدة. بل اطلعت على ما كتبه الآخرون وخاصة الفرنسيون وهالني منه الكثير من المغالطات والمبالغات التي كتب بها هؤلاء الكتَّاب. بعضهم لقلّة التجربة وبعضهم لعدم معرفته بالتوارق. وبعضهم لمرض في نفسه وغرض يريد أن يغرسه في ذهن القارىء المحايد.

إن قلَّة من الكتَّاب هم الذين لامسوا حقيقة التوارق ـ أما أولئك الذين يكتبون عن التوارق وكأنهم عالم من العوالم المجهولة لمخلوقات غير معروفة فأولئك لا داعي لمناقشتهم أصلاً.

كنت لسنوات مضت ـ وكلَّما اطّلعت على كتاب في موضوع التوارق، أمنِّي النفس بإعداد كتاب عن التوارق أتناول فيه هذا المجتمع الصحراوي. بخيره وشرّه. عاداته وتقاليده. أفراحه وأتراحه. آدابه وأشعاره. رقصه وموسيقاه. تاريخه القديم والحديث. جهاده ضد الاستعمار وحربه ضد نفسه. انتصاراته ضد الآخرين وانتصارات الغير عليه. مساهمته في التاريخ الإسلامي الكبير. مساهمته في الفتوحات في مناطق المغرب العربي والأندلس. دوره في الجهاد في أفريقيا. وفي نشره للإسلام في أدغال أفريقيا. مساهمته في الاقتصاد الصحراوي وسيطرته على طرق القوافل لزمن طويل. تنقله شمالاً وجنوباً غازياً أو متاجراً.

غير أنني في كل مرة كنت أؤجل ذلك لانشغالي بأشياء أخرى. ولأنني إذا أردت كتاباً أكاديمياً فلا بد لي من التفرغ لجمع مصادر مكتوبة ومخطوطة. وأخرى شفاهية.

وظللت أنوي وأحجم إلى أن شجعتني مشكورة جامعة «بودابست» التي وافقت على موضوع رسالتي في دكتوراه دولة (عن التوارق) فنشط في نفسي ما كان كاسلاً. وانتشت همَّتي واندفعت لجمع موضوعات هذا الكتاب. من الأصدقاء التوارق ومن كتابات الآخرين. ومن مخطوطات تارقية وغير تارقية كتبها كتَّاب من منطقة الصحراء

الكبرى احتوتها مكتبتي على مرّ السنين الماضية. ومن ذاكرتي التي اختزنت الكثير عن المجتمع التارقي.

قمت بجمع هذا الكتاب. وقسّمته إلى أحد عشر باباً تحتوي على المواضيع التالية:

الباب الأول: يتناول نسبهم، موطنهم، لغتهم، وكتابتهم.

الباب الثاني: ويتناول النظام السياسي عند التوارق.

الباب الثالث: ويحتوي على الحياة الاجتماعية في المجتمع التارقي. (الطبقات الاجتماعية).

الباب الرابع: الحياة الاقتصادية عند التوارق. وسيطرتهم على طرق القوافل.

الباب الخامس: عادات التوارق وتقاليدهم.

الباب السادس: أ ـ الطب الشعبي عند التوارق.

ب ـ الفأل والتطير عند التوارق.

الباب السابع: أ ـ الأدب والرقص والموسيقى عند التوارق.

ب ـ ألعابهم الشعبية.

الباب الثامن: ويحتوي على دور التوارق في التاريخ الإسلامي حركة المرابطين (الملثمين).

الباب التاسع: ويتناول: التوارق ودورهم في صد الاستعمار الحديث. انتفاضات التوارق ضد الفرنسيين.

الباب العاشر: ويتناول: مشاهير التوارق في التاريخ.

الباب الحادي عشر: ويتناول: التوارق والاستقلالات الحديثة. حاضرهم السياسي والاجتماعي.

ثم ذيلته بخاتمة حاولت أن ألخص فيها موضوع الكتاب والنتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي هذا.

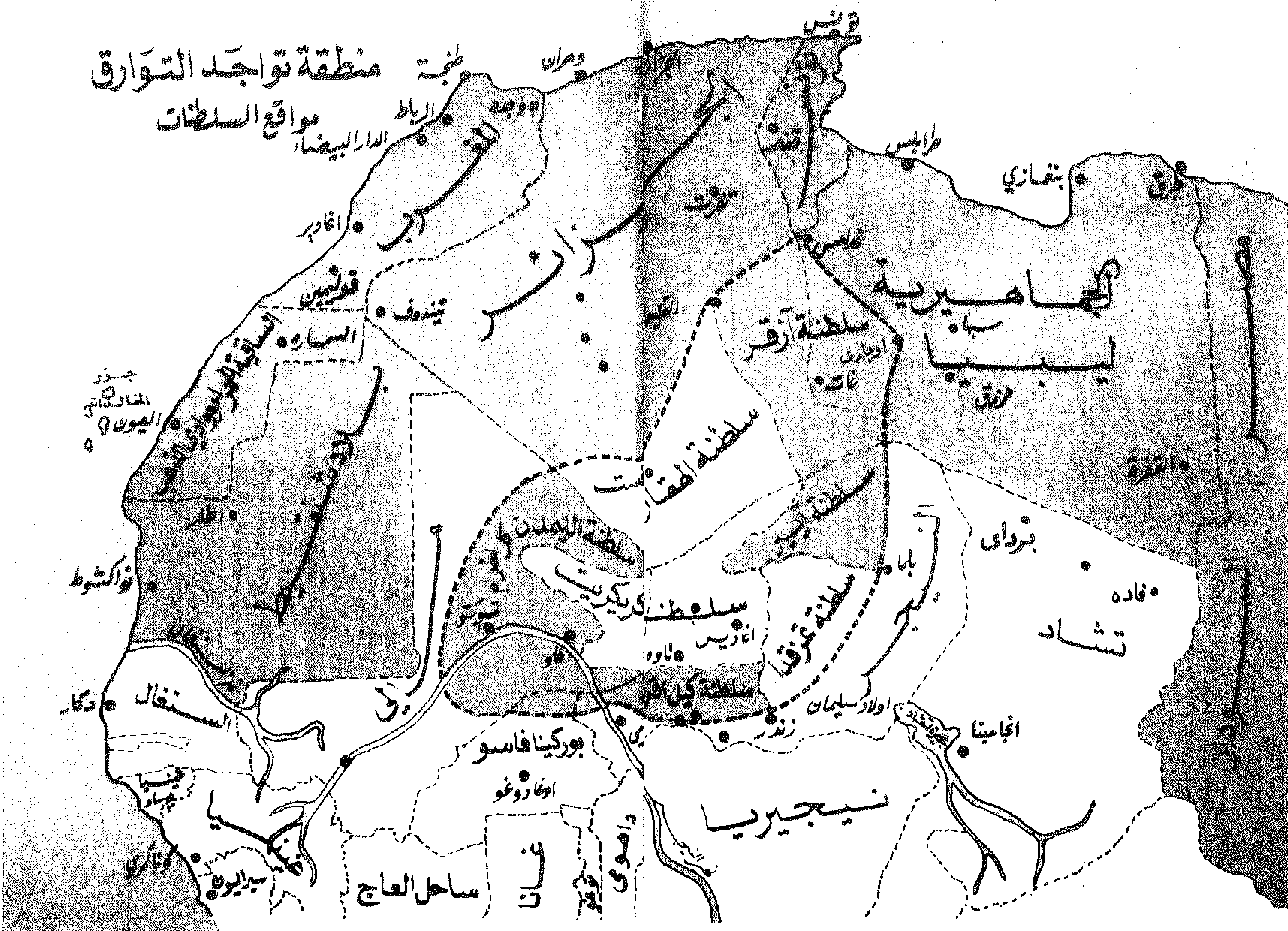
وأنا إذ أقدِّم هذه الدراسة التي تفتقر إليها المكتبة العربية ـ ولا شك ـ فلا أدَّعي أنني قدّمت عملاً بلغ الكمال. ولكنني أستطيع أن أقول إن هذا العمل هو أقرب عمل إلى واقع التوارق وتاريخهم كتب عنهم حتى الآن لأنه ولأول مرة يُسمع صوت التوارق في تاريخهم وواقعهم إذ إنني كتبت هذا البحث من أفواههم ومن منتجعاتهم. وبين قبائلهم التي تجوَّلت بينها منذ أكثر من ربع قرن من الزمن.

هذا وأرجو من الله العون والهداية

د. محمد سعيد القشاط

الحروف التارقية (التافيناغ) أو الفينيقية (الليبية القديمة)

العربية	التارقية	العربية	التارقية
أ	•	م	⊏
ب	⊖	ن	ا
ت	+	ص	E
ث		ض	
ج	J̈-X	ع	⁝
ح		غ	
خ	∴	ف	I
د	د	ق	...
ذ		س	٥
ر	o	ش	8
ز	ⵣ	ه	⁞
ط	E+	و	:
ظ	#	ى	٤
ك	∴		
ل	\\		



منطقة تواجد التوارق
مواقع السلطنات
طنجة
وهران
الرباط
الدار البيضاء
اغادير
تندوف
السمارة
نواكشوط
دكار
السنغال
طرابلس
بنغازي
الجماهيرية
ليبيا
سبها
سلطنة آزقر
غات
مرزق
الكفرة
سلطنة الهقار
سلطنة اليمدن
قاو
اغاديس
تاوه
بردای
فاده
تشاد
اولاد سليمان
زندر
انجامينا
بوركينا فاسو
اوغادوغو
نيجيريا
ساحل العاج
سيراليون



الباب الأول

موطنهم.. نسبهم..
لغتهم.. كتابتهم..

موطنهم

ينتشر التوارق في الصحراء الكبرى ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية مع موريتانيا إلى حدود السودان مروراً بشمال مالي وشمال النيجر وشمال تشاد وجنوب غربي ليبيا وجنوب شرقي الجزائر.

كما تنتشر مجموعات منهم ببوركينا فاسو ونيجيريا ونستطيع أن نقول إن وسط الصحراء الكبرى من مدينة غدامس ودرج في ليبيا وأوباري وغات. إلى تمنغست بالجزائر وجانت وتيمياوين وبرج المختار على الحدود مع مالي. إلى تينبكتو بمالي وإلى طاوه بالنيجر، وانقيقمي على بحيرة تشاد، وابشه في شرق تشاد، تتناثر قبائل التوارق في هذه الصحراء وتتفاوت بين الكثرة والقلّة حسب تواجدها يجمعها الزي شبه الموحد: القميص الفضفاض والسروال الواسع والحذاء العريض المصنوع من جلد البعير والعمامة الكبيرة ذات اللثام الضيق حتى أصبح هذا اللثام علماً على التوارق فأسماهم العرب (الملثمون).

ويقول الأستاذ محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف وهو من مثقفي توارق النيجر: «ويتكوّن موطن التوارق من الواحات والوديان التي تشق جبال تاسيلي (غاث ـ جانت) والهقار (تمنغست) وآيير (اقذر) واضغاغ (كيدال)، إلا أن الجزء الأكبر من التوارق يعيش في منطقة السهول

والمراعي الفسيحة التي تسمى باسم (أزواغ) الممتدة من أعالي نهر السنغال غرباً إلى بحيرة تشاد شرقاً ومن أطراف المناطق الرملية إلى غابات السافانا جنوباً»[1].

ولم يكن هذا موطن التوارق الأصلي. فلقد تزحزح التوارق من الشمال إلى الجنوب موغلين في الصحراء إما هرباً من الجيوش التي كانت تهاجم الشمال (الرومان ـ الوندال ـ البرتغال ـ الإسبان ـ الفرنسيون) وذلك هروباً بحريتهم. وإما اندفاعاً نحو أفريقيا لنشر الإسلام والاستيلاء على الممالك والسيطرة عليها.

وهكذا ترك التوارق موطنهم في الشمال موغلين في الجنوب تاركين آثارهم وأسماءهم حتى الآن تطلق على عدة مناطق في الشمال. بل وفي أقصى الشمال. ففي ليبيا لا زلنا نجد الكثير من القرى تحمل أسماء تارقية مما يدلّ على أن التوارق كانوا يسكنون هنا منذ زمن متفاوت في القدم.

فنحن نجد مدينة (أورفله) وهي إحدى المدن التي تبعد عن طرابلس بحوالي ١٨٠ مائة وثمانين كيلومتراً وتسكنها قبيلة عربية كبيرة.

هذا الاسم هو اسم تارقي ومعناه (المكان المرتفع) أو المكان الذي يقع (فوق) وأهالي أورفله حتى هذه اللحظة يطلقون على قسم منهم اسم (الفوقين) لوقوعهم على جانب الوادي المرتفع.

كما نجد اسم (تغرمين) وهي بلدة الزنتان وتسكنها الآن قبيلة

---

(1) الطوارق شعب الصحراء الكبرى. محمد عبد الرحمٰن عبد اللَّطيف. ص 4، مخطوط مكتبة المؤلف.

عربية كبيرة. فهذا الاسم تارقي. ومعناه (القرى) أي مجموعة القرى. وفعلاً بلدة الزنتان توجد بها مجموعة من القرى القديمة أو القصور القديمة.

ورقدالين: وهي قرية ساحلية قرب مدينة زوارة ومعناها بالتارقية الوادي الأخضر.

كما نجد أسماء كثيرة تارقية أمثال: تغرنة. وهي بلدة بغريان. وتغسات وطمزين. والتي معناها الشعير. وكذلك (سوف الجين) وهو واد مشهور بمنطقة بني وليد ومعناها (وادي الجن). وكثير من الأسماء التي تدل على وجود التوارق في فترة من فترات التاريخ في هذه المناطق كتاورغاء وهي مدينة شرقي مصراتة ومعناها الساقية (تارقا).

ويقول الأستاذ محمد أحمد الشفيع من توارق النيجر عن قبيلة تدعى (آيت أواري بمنطقة طاوه بوسط النيجر: «إن تجميع بعض الروايات الشعبية المتعلقة بتاريخ قبيلة (آيت أواري) قبيلة تارقية كبيرة ومعروفة في محافظة (طاوا) النيجر يعطينا معلومات طريفة ومهمّة فيما نحن بصدده وسنقوم بذلك فيما يلي:

1 ـ يتكون اسم هذه القبيلة من جزئين:

آيت: معناه في التارقية أبناء فنقول (آيت آدم) أبناء آدم أبو البشر.

أواري: ـ يقول أبناء هذه القبيلة إنه اسم جبل بالشمال كان موطنهم الأصلي القديم. ومنه نزحوا منذ عصور قديمة جدًّا حتى استقروا في مواطنهم الحالية في النيجر (قد تناسوا تحديد موقع هذا الجبل وهم يتذكرون فقط أنه ببلاد الشمال)، ومن المحتمل أن يكون

هذا الجبل هو المعروف باسم جبل (الهواري) فاسم القبيلة إذن يعني أبناء أواري.

2 ـ يتكلم أبناء هذه القبيلة لهجة تارقية خاصة تسمى (شن ـ سرت) أي التي تُنسب إلى سرت. وبهذه المناسبة نذكر أن البكري قد ذكر أنه كان يوجد بمدينة سرت قبيلة بربرية تتكلم لهجة تختلف عن لهجات القبائل الأخرى.

3 ـ كان هناك شخص اسمه (ملَّلَن) من مجموعات (إدرفات) أي العتقاء. وهم الذين كانوا في الأصل عبيداً ولكن أسيادهم أعتقوهم فأصبحوا (أحراراً) وقد عرفته شخصياً وتوفي في السنوات الأخيرة قال: إن قبيلة (آيت ـ أواري) المذكورة قد تنازعت مع قبيلة أخرى مجاورة اسمها (املاّلن) أيتهما تتبع الشخص المذكور (ملَّلَن) أيتهما ينبغي أن تُسجّل رسمياً في الديوان. وأثناء التحكيم بين القبيلتين في هذا النزاع صرح (ملَّلَن) أن قبيلة (آيت ـ أواري) عندما هاجرت من (ودان) كان أجداده منها ومن أتباعها.

والغريب أنه في السنوات التي وقعت فيها هذه القصة الطريفة لا يعرف هؤلاء البدو أين تقع (ودان) ولم يسمعوا بأن هناك مدينة في ليبيا تسمى بهذا الاسم بل لم يسمعوا بوجود ليبيا نفسها. وإنما كان اسم هذه المدينة راسخاً في ذاكرة أبناء هذه القبيلة يتوارثونه في قصصهم كموطن قديم جدًّا لهم.

4 ـ إن لهذه القبيلة جَدًّا مشهوراً عاش في أوائل القرن الثامن عشر اسمه (الفاروق) ويلقب (واو) تماماً كما ينطق اسم المنطقة المعروف في جنوب ليبيا.

5 ـ يقول شيوخ هذه القبيلة إنهم قبل أن يستقروا في مناطقهم الحالية بمحافظة (طاوا) بالنيجر كانوا قد سكنوا منطقة جبال (آيير) شمال النيجر أيضاً.

ومن المعروف أن قبائل التوارق القاطنة بمناطق الآيير المذكورة وعاصمتها (إقدر) لهم علاقات وثيقة بتوارق فزان في الجنوب الليبي. . .»[1].

لقد أوردنا هذه القصة التي أوردها الأستاذ محمد أحمد الشفيع وهو من توارق النيجر على لسان أشخاص من قبيلة (آيت أواري). وهواري هذا جبل بمنطقة القفرة وبجانبه جبل أصغر منه يسمى (الهويويري) بالتصغير لا شك أن القبيلة المذكورة كانت تقطن هذه المنطقة. خاصة وأن منطقة (واو) بالقرب من القفرة التي قد يكون جدهم مدفوناً بها ولهذا سمِّيت باسمه.

نسبهم

يقول ابن خلدون عن الملثمين:

«هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون المواطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أوّلها فأصحّروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها انتباذاً عن العمران

(1) محمد أحمد الشفيع/ مقالات عن الطوارق. ص 11 ـ 12 ـ 13. مخطوطة مكتبة المؤلف.

واستئناساً بالانفراد وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جواراً وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم من كذالة. ولمتونة. فمسوفة. فوتريكة. فناوكا. فزغاوة. ثم لمطه أخوة صنهاجة كلّهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبيلة طرابلس وبرقة. .»[1].

ويقول ابن خلدون نفسه في المصدر نفسه عن صنهاجة التي ينسب إليها التوارق:

«. . ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذي قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة فإن بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية. وأن أفريقش لما غزا أفريقيا أنزلهم بها. .»[2].

«وقال الكلبي: إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وإنما هما من شعوب اليمانية تركهما أفريقش بن صيفي بأفريقيا مع من نزل بها من الحامية. .»[3].

أما عن البربر ومعنى هذا اللفظ فيقول ابن خلدون: «البربر قبائل شتى من حمير ومضر ولقيط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم أفريقش البربر لكثرة كلامهم[4]. وسبب خروجهم عند

---

(1) تاريخ ابن خلدون/ المجلد السادس. ص 370 ـ 371، ط دار الكتاب اللبناني.
(2) تاريخ ابن خلدون/ المصدر السابق. ص 192.
(3) تاريخ ابن خلدون/ المصدر السابق. 177.
(4) تاريخ ابن خلدون/ المصدر السابق. ص 184 ـ 185.

المسعودي. والطبري. والسهيلي. أن أفريقش استجاشهم لفتح أفريقيا وسماهم البربر. وينشدون من شعره:

«بـربـرت كـنـعان لمـا سـقـتـهـا   من أراضي الضنك للعيش الخصيب»

وقال ابن الكلبي: اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحي، مثل (يا داود أخرج البربر من الشام فإنهم جذام الأرض) وقيل: يوشع بن نون وقيل: أفريقش وقيل: بعض ملوك التبابعة.

وعند البكري: «أن بني إسرائيل أخرجوهم عند مقتل جالوت. وللمسعودي والبكري أنهم فروا بعد موت جالوت إلى المغرب..». ويفخر الملثمون (لمتونة. وصنهاجة) بنسبهم العربي القديم فيقول شاعرهم:

قوم لهم شرف العلا من حمير   وإذا دعـوا لمتـونـة فهـمُ هـمُ
لمـا حـووا عليـاء كـل فضيلـة   غلـب الحيـاء عليهـم فتلثمـوا[1]

أما الطبري فيروي حديث نسبهم بطريقة أخرى فيقول:

«قال الطبري: خرج بر بن قيس ينشد ضالة بأحياء البربر فهوى جارية وتزوجها فولدت. وعند غيره من نسابة البربر أنه خرج فارًّا من أخيه عمرو بن قيس وفي ذلك تقول تماضر وهي أخته:

لتبكـي كـل بـاكيـة أخـاهـا   كمـا أبكـي على بـر بـن قيـس
تحمـل مـن عشيرتـه فـاضحـى   ودون لقـائـه أنضـاء عيسـى

---

(1) محمد يوسف مقلد/ موريتانيا الحديثة. دار الكتاب اللبناني ص 82.

ومما ينسب إلى تماضر أيضاً:

وشطت ببر داره عن بلادنا — وطوح بر نفسه حيث يمما
وازرت ببر لكنة أعجمية — وما كان بر بالحجاز بأعجما
كأنا وبِراً لم نقف بجيادنا — بنجد ولم نقسم نهابا ومغنما

وأنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي:

ألا أيها الساعي لفرقة بيننا — توقف هداك الله سبل الأطايب
فاقسم أنا والبرابرة أخوة — نمانا وهم جد كريم المناصب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى — وفي حرمه يشفى غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع وإخوة — على رغم أعداء لئام المناقب
فانا لبر ما بقي الناس ناصراً — وبر لنا ركن منيع المناكب
نعدُّ لمن عادى شوواذه ضمرا — وبيضا تقط الهام يوم التضارب
وبر بن قيس عصبة مضرية — وفي الفرع من أحسابها والذوائب
وقيس قوام الدين في كل بلدة — وخير معد عند حفظ المناسب
وقيس لها المجد الذي يُقتدى به — وقيس لها سيف حديد المضارب

وينشد أيضاً ليزيد بن خالد يمدح البربر:

أيها السائل عنا أصلنا — قيس عيلان بنو العز الأول
نحن ما نحن بنو البر القوى — عرف المجد وفي المجد دخل
وابتنى المجد فأورى زنده — وكفانا كل خطب ذي جلل
إن قيساً يعتزى بر لها — ولبر يعتزى قيس الأجل
ولنا الفخر بقيس إنه — جدنا الأكبر فكاك الكبل
إن قيساً قيس عيلان هم — معدن الحق على الخير دلل

حسبك البربر قومي إنهم ملكوا الأرض بأطراف الأسل
وببيض تضرب الهام بها هام من كان عن الحق نكل
أبلغوا البربر عنّي مدحاً حبك من جوهر شعر منتحل»[1]

ولقد التقيت بكثير من كبار السن من التوارق في الصحراء فوجدتهم ينسبون أنفسهم إلى العرب ويقولون إنهم من حمير جاءوا إلى منطقة الشمال الأفريقي بعد خراب سد مأرب. وبعضهم تراه يحتفظ بشجرة نسبه في جيبه أو في صندوق متاعه يريكها كلّما دار الحديث عن أنساب التوارق تراه واصلاً نسبه بقريش أو برسول الله ﷺ. أو بأبي بكر الصدِّيق أو بعمر بن الخطّاب وبعضهم يرى أنه من سلالة عقبة بن نافع أو بعض الفاتحين المسلمين لشمال أفريقيا.

هذا في غالبية التوارق. أما الكثير من قبائلهم الحالية فلها أصول عربية قريبة ولنذكر:

1 ـ **كل أنصار**: وهي إحدى قبائل التوارق المقيمة حديثاً بتينبكتو بشمال مالي. فهذه القبيلة تنتمي في أصولها كما يقول مؤرخوها وكبار السن فيها إلى قبيلة (الأنصار) المتواجدة بالمدينة المنورة.

وكل : عند التوارق معناه (أهل).

أنصار: الأنصار ومعناه أهل الأنصار.

ولما سألت بعض كبار السن فيها قالوا: إنهم هاجروا من الحجاز أيام فتنة علي ومعاوية هرباً من الفتنة وإنهم اعتزلوها. وأكثر أفراد

(1) ابن خلدون/ المجلد السادس. ص 186 ـ 187. المصدر السابق.

هذه القبيلة مثقف باللغة العربية والدين والقرآن والأدب. ويتكلمون اللغة العربية الفصحى إلى جانب التارقية.

2 ـ **إفوغاس**: ومعناها (أشعل النار). هذه القبيلة جاء جدها محمد المختار من المغرب وهو شريف عربي ينتمي إلى الحسن بن علي وصل إلى منطقة الصحراء حيث استقر بها أيام البطش بالهاشميين.

وفي منطقة التوارق تزوج بتارقية. وعلى عادة التوارق (وهي عادة عربية قديمة) أن الولد يتبع أمه[1] أصبح أولاد محمد المختار توارق وهم قبيلة إفوغاس. جزء منها يقيم بمدينة غدامس بليبيا.

3 ـ **ريقناتن**: وهي قبيلة كبيرة في منطقة مالي. جاء جدها الأول مع محمد المختار جدّ قبيلة إفوغاس ويقال إنه تلميذه. واستقرّ معه في المنطقة وتزوج كأستاذه من تارقية. وأصبح أولاده توارق باسم قبيلة ريقناتن.

4 ـ **كل أغلال**: وهي قبيلة عربية كبيرة تقيم بمدينة شنقيط الموريتانية. رحل منها فرع النيجر وهناك اختلط بالتوارق بالتصاهر وأصبح تارقياً و(أهل الأغلال) هم من حملة القرآن والثقافة العربية في المنطقة[2].

5 ـ **كل السوق**: (أهل السوق) وهي مجموعة من التوارق إلا أن أصلها جاء من برقة بليبيا التي يقول عنها خي بابا شياخ:

«ومن هؤلاء أهل السوق وهي مجموعة عربية من برقة التحقت

(1) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام.
(2) أحمد الأمين الشنقيطي: الوسيط في أدباء شنقيط.

بالطوارق فأخذت من عاداتهم الشيء الكثير كاللثام واللغة. ولكن أفرادها لا يتكلمون فيما بينهم إلا بالعربية الفصحى حتى في أبسط الأمور وأحقرها ويقتصرون من كلام التوارق على مخاطبة غيرهم، وقد ساعدهم اللسان العربي على التضلع في علوم الشريعة تضلعاً لا يتصور من أهل بلاد منقطعة عن العالم العربي ومراكز تجارة الكتب. وقد رأيت أطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم يتكلمون فيما بينهم باللغة المعرّبة سجية دون تكلف ويضارع هؤلاء في العلم قبيلة الشيوخن وكل انوكندر وسائر العشائر التي اتخذت العلم مهنة. وينضاف إلى هذه العناصر الثلاثة من العرب عنصر رابع من سكان المدن. ونعني به جاليات أتت من المغرب والجزائر وفزان فاتخذت المدن الرئيسية (غاو. وتينبكتو. وان يورغن. وتغاروست) مراكز لها تجارية، وكان لهذه الجاليات دور كبير في المحافظة على الطابع العربي لهذه المدن والتأثير اجتماعياً على شعب السنغاي حتى أصبحت لغته تضم من 7 إلى 13٪ من اللغة العربية..»[1].

6 ـ **منغساتن**: وأماكن تواجدها درج، واوباري. ويرجع اغوستيني نسبها إلى قبيلة المقارحة العربية.

وإلى جانب هذه القبائل التي ذكرتها للدلالة لا للحصر، فإن هناك عشرات القبائل الصغيرة الأخرى عربية الأصل واللسان التحمت حديثاً بالتوارق وأصبحت منهم.

(1) خي بابا شياخ/ أزواد. ص 6 مخطوط مكتبة المؤلف.

كما أن هناك قبائل أخرى من التوارق امتزجت مع أخرى عربية ولم تعد تنطق باللسان التارقي ونسيت عادات التوارق وتقاليدهم كما لم تعد تتلثم كالتوارق وإنما أصبحت كعرب المنطقة يمرون باللثام بعد التعميم تحت الحنك وأذكر من هذه القبائل (تكنة) وهي من أكبر قبائل الصحراء وكذلك (تاغانت) حيث مقر قبيلة الأمير يحيى بن عمر أمير المرابطين، أصبحت كلّها عربية اللسان بما فيها أحفاد الأمير وقبيلته وغيرهم كثيرون. ويقول الأستاذ محمد أحمد الشفيع:

«وبصفة عامة، فإن دراسة الروايات الشعبية الطارقية والمواقع الجغرافية وأسماء القبائل والملامح البشرية والعقليات القبلية والعادات المحلية لمختلف القبائل الطارقية القاطنة جنوب الصحراء الكبرى (النيجر ـ مالي ـ بروكينا فاسو) تجعلنا نستشعر ونرجح أن لهذه القبائل الطارقية علامات تأريخية أوثق بثلاث مناطق من الشمال الأفريقي وهي ليبيا والمغرب الأقصى وموريطانيا»[1].

ولنختم هذا الفصل بقصيد وجدته مخطوطاً للشاعر محمد امبارك اللمتوني ـ رحمه الله ـ ومن لقبه يدل على أنه من التوارق. يقول: ـ

أمن حافظات الغيب لُبنا أم الهزلُ — لها مرتعٌ يرتاده الغيُّ والخَبْلُ
نعم فلها يرعى الغواني أمانة — على أن عقد العزم منهن منحلُّ
ويحْبُبْنَ من حُب الرجال تكاثرا — والأكثر فيهن الدسائس والختلُ
وقد ذهبت عنهن جرفة حبهم — وهل هي إلا خبثة الجسم والحظل
أراهن كالدهر انقلابا متى تكل — على حبله المأمون ينصرم الحبلُ

(1) محمد أحمد الشفيع/ المصدر السابق. ص 14.

ومثل جياد الخيل تفقد نخوة فيركبهن الوغد والنكس والندل
ورُبَّ فتاة أقسمت لحليلها يميناً على أن لا تخون متى تخلو
ومن بعده تعتاد مالو بداله لحلّ حبال الوصل من حيث تنحلُّ
فهذا وقد تلفى حصانٌ بقِلّة تصون الجثا منها إذا أدبر البعلُ
يشق عليها أن يسيب حديثها ولا تعتري أجفانها بعده الكحل
فتلك التي تستوجب الود خالصاً ولا ينبغي عنها تنحٍّ ولا فصلُ
وأي فتاة وصفها اليوم هكذا وأين لنا خِلٌّ وأين لنا أهل
وأين رجالٌ بعد لمتون للهدى يذبون عنه حيث زلَت به النعلُ
فأصبح منقوض الأساس وبعدهم تنهنه عن تشييده البعض والكل
ولم تبن من بعد لمتون دولة ولم يك في بنيانه بعدهم ظل
أولئك لمتون الألى قد سما بهم أساس الهدى إذ مسه الضعف والخذل
أولئك لمتون المنال باثرهم بلاد لكم فيها المعاهد والسبل
أولئك لمتون المدوّن عزهم وعزتهم قدماً لها أثرٌ يعلو
أولئك لمتون المئاصل فيهم شمائل فيهما السياسة والعقل
أولئك لمتون المنيع ذمارهم بأيدي سجاياها الشجاعة والبذل
للمتون أنياط تقادم دأبهم بأن الذي يستنبط السيد العدل
وأين لأهل الله نصر وراءهم ألا أن أهل الله من بعدهم ذلُّ
لهم دولة ميمونة قيل إنها عليها كتاب الله نص بما تعلو
بأي حديث أم بأية آية لقوم على قوم بغير التقى فضل
ومن طالع الأنساب أيقن أنه للمتون أصل لا يفاوقه أصل
إذ الأصل إما حميرٌ هامة العرب وإما قريش المنتهى فيهم الفضل
وحمير ذو القرنين منهم ومالك وتبّع منهم تابعٌ الحق من قبلُ

فيا عجبا والدهر جمّ عجائب — وأنّى ترى العميُ الشموس التي تعلو
وللـــدهـــر أيـــام لهـــنّ تقلّـــبٌ — يساعد أطوارا وأخرى له عطل
لـــه دولـــة كـــالمنجنـــون تقلبـــاً — فطـوراً لـه أهـل وطـوراً لـه أهـل
وبايع جلَّ الناس يوسف جدّنا — وأجدادكم من بيعة الجدّ لم تخلُ
وفكَّ بدفع الروم عنهم رقابهم — من أن يسترقوا أو يعمَّهمُ القتلُ
بلمتـون أحيـا الله نهـج محمـد — عليـه صـلاة الله بـالنـور تجتـلُّ
على أنني مستاجر من جميع ذا — إذا . . . . الخ[1]

تسميتهم بالتوارق

اختلف المؤرخون في تسمية التوارق بهذا الاسم. ولما غاب عنهم مصدر التسمية بدأوا يتكهنون. فمن قائل إن سبب تسميتهم بالتوارك لأنهم تركوا طريق الهداية. ومن قائل سموا بالطوارق نسبة إلى طروقهم الصحراء وتوغلهم فيها. ومن قائل إن سبب التسمية هو انتسابهم إلى طارق بن زياد. إلى غير ذلك من التكهنات والاقتراب بالتفسير من مصدر الاسم ومشتقاته. أما الأستاذ محمد عبد الرحمٰن عبد اللّطيف فيقول في تسميتهم بهذا الاسم:

«.. وكان الطوارق يعرفون من بين هذه القبائل في العصور الوسطى باسم (اسجّلْماسَنْ) ولما انتشر الإسلام واللغة العربية ترجمت هذه الكلمة بمقابلها بالعربية (المثلمون) فأصبحت مصطلحاً يطلق على

(1) هنا نهاية القصيدة وهي ناقصة. وقد أوردناها لأهميتها ولاعتراف التوارق بنسبهم العربي الحميري القرشي.

قبائل البربر في الصحراء الكبرى وذلك للزومهم عادة التلثم ووضع العمائم على رؤوسهم..»[1]. ويقول الأستاذ محمد عبد الرحمٰن:

«.. وفي العصور الحديثة ظهر اسم الطوارق وسمِّيت به القبائل التي تسكن منطقة (أزواغ) بجوار ممالك السونغاي والهوسا وقد ذكره كتاب التاريخ باللغة العربية في غرب أفريقيا على هذا الشكل التوارك أو التوارق. ولا يعرف أصل لهذه الكلمة ولا كيف بدأ استعمالها لتكون اسماً يطلق على الملثمين من سكان الصحراء الكبرى ويحتمل أن تكون هذه الكلمة قد اشتقت من اسم الوادي الذي تسكن فيه قبائل الملثمين القريبة من العواصم المغربية في الشمال وهو وادي (درعة) الواقع جنوبي مراكش الذي يسمى بالطارقية (تاركاً) ومعناه الوادي أو مجرى النهر والنسبة إلى (تاركا) (تارك) وجمعه توارك فأخذت هذه الكلمة من الكتابات الأوروبية التي نقلتها من المراجع العربية في غرب أفريقيا فكتبت باللغة العربية على شكلها الحالي الطوارق بإبدال التاء طاء.

أما قبائل الطوارق فإنها تسمي نفسها (إمازغن)[2]».

ومعنى إمازغن كما يرويها الأستاذ محمد عبد الرحمٰن هي:

«... نسبة إلى جدهم (إمازيغ) بن حام بن نوح»[3].

ويستمر الأستاذ محمد عبد الرحمٰن يقول:

«... ففي غدامس. مرزق. غات. تمنغست. يسمي الطوارق

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف: الطوارق شعب الصحراء الكبرى. ص 6 مخطوط مكتبة المؤلف.

(2) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 7.

(3) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 6.

انفسهم باسم (إيموهاغ) وأصلها (إيموزاغ) جمع أمازيغ. فسكان هذه المناطق ينطقون (هـ) بدل (ز). ففي كيدال وأزواغ الغربي منحنى نهر النيجر يقولون (إيموشاغ) وأصلها أيضاً إيموزاغ فهم ينطقون الـ(ز) (ش). ففي آيير (أقدز) وأزواغ الأوسط. و(أضر) وأزواغ الشرقي يقولون (إيماجغن) أو (إيموجاغ) فهم ينطقون الـ(ز) (ج).

أما اسم الطوارق فلا يعرفه إلا المثقفون والمتعلمون فنادراً ما يعرفه الشخص الأمّي من الطوارق الذي لم يتصل بالثقافات العصرية والعالم الخارجي..»[1].

ويقول الأستاذ محمد أحمد الشفيع. وهو من توارق النيجر في عنوان فرعي في بحثه عن التوارق كيف يسمي هذا الشعب نفسه؟ «إن هذا الشعب يطلق على نفسه اسم (كلتماجق) كما ينطقه التوارق في النيجر أو (كلتماشق) كما ينطقونه في مالي أو (كلتماهق) كما ينطقونه في ليبيا والجزائر. فالاختلاف هو في نطق الحرف قبل الأخير من هذه الكلمة حيث ينطق على شكل (ج) في النيجر وعلى شكل (ش) في مالي. وعلى شكل (هـ) في ليبيا والجزائر.

وإذا ما حلّلنا هذه الكلمة نجدها تتكون من جزئين كل: أي أهل، أصحاب.

تماجق: ومعناه اللغة الطارقية.

وهذا يعني أن الطوارق يعرفون أنفسهم بأنهم أهل أو أصحاب اللغة الطارقية»[2].

---

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 8.

(2) محمد أحمد الشفيع/ مقالات عن الطوارق. مخطوط مكتبة المؤلف. ص 7.

أما عبد القادر جامي فيقول:

«إن كلمة التوارق جمع كلمة التارقي المفردة، ذلك لأن العرب أطلقوا عليهم اسم التوارق نسبة لقبيلة (تارغا) إحدى قبائل البربر القاطنة في الصحراء الممتدة من المحيط إلى غدامس في القرن التاسع الهجري»[1].

إذن يتبين من حديث الأستاذ عبد القادر جامي أن الاسم جاء من اسم قبيلة (تارغا).

أما الأستاذ محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف فيبين أن الاسم جاء نتيجة لنسبة هذه القبائل للوادي (تارقا) ويرى الأستاذ محمد عبد الرحمٰن أن هذا الوادي هو وادي درعة.

غير أنني أرى أن الاسم جاء فعلاً من اسم الوادي الذي كان مقراً لهذه القبائل التي انطلقت إلى الجنوب.

وفي الشمال لا نجد أي منطقة تسمى باسم (الوادي) إلا منطقة (وادي الآجال) بجنوب ليبيا (وادي الأمل والحياة) حالياً، حيث لا تزال بقية من التوارق تستقر في منطقة أوباري بالوادي. كما لا تزال الكثير من الأسماء التارقية وكذلك النقوش بالحروف (التيفناغ) والرسومات في الجبال شاهدة على وجود التوارق في هذه المنطقة.

ولهذا أرى أن سبب التسمية هو نسبتهم (لوادي الآجال) بليبيا وأن التوارق هم سكان جنوب ليبيا في فترة من الزمن وأن أغلبهم ليبيون

(1) عبد القادر جامي/ من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ترجمة محمد الأسطى. دار المصراتي، ليبيا، ص 162.

ولهذا سموا توارق أي القاطنين بالوادي (تارقا) وهو الاسم التارقي للوادي.

لغتهم

«الشعب الطارقي شعب مسلم من أصل سامي احتفظ بهويته الحضارية الأصلية و(التماشاك) لغته الوطنية وحروف هذه اللغة تسمى (التافيناغ)؟ تجعل منه أحد الشعوب الأفريقية النادرة التي تملك أبجدية نظيفة يرجع وجودها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح تقريباً. كما تشهد على ذلك الكتابات والنقوش التي تمثل الصحراء وأفريقيا الشمالية. . »[1].

كما تقول دائرة المعارف:

«بأن (روسلر) المستشرق الألماني يذهب إلى الحد الذي يدخل فيه البربرية في اللغة السامية التي تعتبر العربية فرعاً منها «ونلاحظ في البربرية كما نلاحظ باللغات السامية وجود الحروف الحلقية والعبارات الجزلة»[2].

كما يقرر محررو دائرة المعارف نفسها «بأن اللغة البربرية في استعمالها الحالي هي امتداد لصيغ اللغة العربية»[3].

ويقول الأستاذ عثمان السعدي:

---

(1) الحجّي آمي/ ملخص عن تاريخ الصحراء. مخطوط مكتبة المؤلف.
(2) دائرة معارف يونيفرساليس. مجلد 3 ص 72.
(3) دائرة المعارف. المصدر السابق. ص 170.

«ومن المؤرخين اللغويين من يرد البربرية إلى أصول فينيقية مثل غوستاف لوبون الذي يقول:

«إن لغة البربر العريقة في القدم. يحتمل أن تكون مشتقة من الفينيقية[1]، ومن الغريب أنه إذا حلّلنا الأبجدية التي يستعملها الطوارق اكتشفنا الوجاهة في رأي لوبون هذا. . فالرأي السائد لدى الكثير من الباحثين أن الأبجدية التي يسميها الطوارق (التيفناغ) استعاروها من الأبجدية الفينيقية»[2].

فلغة التوارق التي يسمونها (تاماشاق) أو (تاماشاك) هي إحدى اللهجات العربية القديمة التي قضى عليها الإسلام عندما وحّد لغة العرب بلغة قريش التي أنزل الله بها القرآن وهي اللهجة الوحيدة في اللغات الأفريقية التي يوجد بها حرف الضاد سمة اللغة العربية.

ويقول الشيخ خليفة نياس:

«عندما أنزل الله القرآن كان العرب في الجزيرة العربية يتحدثون اثنى عشر لساناً»[3].

ولقد وجدت في اليمن الجنوبي عندما زرته عام 1973 م. في أغسطس بمنطقة حضرموت قبيلة المهرة تتحدث لغة قريبة من التارقية.

كما وجدت أيضاً بغض القبائل العمانية في ظفار. وفي أعالي الجبال يتحدثون لهجة هي أقرب إلى لغة التوارق.

(1) حضارة العرب ـ غوستان لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر. الطبعة الثانية. ص 301.
(2) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان سعدي/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
(3) خليفة نياس/ السنغال. مقابلة شخصية في طرابلس 1980.

كما اكتشف اليمنيون الجنوبيون آثاراً ونقوشاً في منطقة المكلا مكتوبة بالحروف نفسها التي يكتب بها التوارق حالياً (التافيناغ).

وكلمة (التافيناغ) معناها بالتارقية الحروف التي تنسب للفينيقيين، والفينيقيون هم شاميون من العرب نزحوا إلى شمال أفريقيا، ولغة التوارق تجد بها الكثير من الكلمات العربية الفصحى وتجدها في صميم اللغة لا في مستحدثاتها.

ولنضرب لذلك مثلاً:

فالتارقي إذ قال لك أسرع في السير. قال لك (اركض) وهي كلمة عربية صحيحة. وإذا قال لك اجلس قال (أقيم) وهي عربية من الإنامة وإذا نفى التارقي شيئاً قال لك كلا كلا. وهي نفس الكلمة العربية المستعملة في النفي كلاً كلاً.

وإذا قال لك التارقي إنه يبحث عن فكرة في موضوع ما. قال الدبارة: والدبارة هي التدبير أو الدبارة وهي كلمة عربية فصحى.

ويقولون للشيخ (مغار) وهي كلمة عربية صحيحة، وفي الحديث النبوي الشريف أن أعرابياً قدم على النبي ﷺ فرآه مع أصحابه. فقال: أيكم ابن عبد المطلب. فقالوا: هو الأمغر المرتفق. أرادوا بالأمغر الأبيض الوجه (لسان العرب)[1]. ويسمّي التوارق الرأس (إيغف) أو (إغف) وفي العربية الفصحى خفأ الشيء ظهر، والرأس أبرز شيء في الإنسان.

---

(1) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان السعدي. المصدر السابق. ص 52.

ويقولون للوجه (أودم) وهي مأخوذة من الأديم وهو بشرة الإنسان أو جلده، ويُقال أديم الأرض أي وجهها.

ويقولون للكبير (امقران). و(امقورن) والقرون في اللغة هو الشخص الذي يأخذ اثنين اثنين، وقيل في المثل العربي (طفيلي وقرون) والأقرن في العربية الرجل القوي الذي يأتي بأسيرين في وقت واحد، ويقال للناقة: القرون التي تحلب وتملأ إناءين في وقت واحد. ويقول التوارق للعمامة (تقلموست) وهي القلنسوة العربية ويقولون للقميص (تقميصت) وهي عربية واضحة.

وإذا قال لك فلان ينام قال لك (يطّسْ) وفي العربية وطس الشيء في الماء إذا غطسه. والنوم فيه معنى الغطس في اللاوعي[1].

ويقول التوارق للماء (أمان) والعرب يقولون (الماء أمان) وللشرب يقولون (اسو) وهي يحسو الرجل الماء أو المرق يشربه جرعة جرعة.

ويقول التوارق لمحطة القوافل (مرزق) وهي عربية ومعناها المكان الذي يأتيه الرزق.

أما سلام التوارق عندما يلتقون فأكثره عربي صميم. فيقولون:

السلام عليكم: وهي تحية الإسلام.

إيسلان: ومعناها أسألك عن حالك.

الخير غاس: إننا في خير عميم، وغاس نزل وتعمق.

ويسألونك عن الاسم فيقولون:

---

(1) انظر عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان السعدي. من ص 44 إلى 54.

يقولون (اخمادي يالله) ومعناها الحمد لله.

ويقول التوارق للمرأة (تمطّوث) ومعناها العربي للإنسان الذي يطمث. والطمث للمرأة.

ويقولون للباس المرأة (تملحفت) أي الملحفة وهي القماش الذي يلتحف به الإنسان.

هذا قليل من كثير في صميم لغة التوارق من اللغة الفصحى مما يدل على أن نشوء اللغتين واحد. وأصلهما واحد. ويقول الأستاذ عثمان سعدي:

«وبعبارة أكثر وضوحاً فإنني صرت متيقناً أن اللغة البربرية ما هي إلا إحدى اللهجات العربية القديمة. التي تفرعت عن اللغة العربية الأم التي يعتبر مهدها الجزيرة العربية. ثم إن القبائل التي تكلمت اللهجة البربرية انتقلت جميعها بلغتها إلى شمال أفريقيا. ومما يؤكد ذلك وجود بعض القبائل بجنوب اليمن لا زالت تتكلم لغة شبيهة بالبربرية حتى الآن»[1].

كتابتهم

التيفناغ

التيفناغ هي الحروف التارقية التي يكتب بها التوارق لغتهم.

وذكرنا أنها هي نفس الحروف (الفينيقية) التي نقلها الفينيقيون معهم من الشام إلى شمال أفريقيا قبل الميلاد.

---

(1) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان السعدي. المصدر السابق. ص 46.

ولقد وجد اليمنيون الجنوبيون في منطقتي حضرموت. والمكلا. نقوشاً بالفينيقية في السنوات الماضية.

كما أننا نجد هذه الكتابات في مغارات جبال الأكاكوس. وتاسيلي. والهقار. وجبال الآيير.

وتحتوي هذه الأبجدية على اثنين وعشرين حرفاً ولهذا يضطر التوارق لتركيب حرفين لإعطائهم حرفاً آخر غير موجود في أبجديتهم، وتلتقي حروفهم مع الحرف الحميري القديم (المسند) في كثير من الحروف. مثل (ل) (اا) والـ(ش) و(التاء) (+) حيث لا تزال مستعملة في الكتابة الأريترية حتى الآن كما أن الدال (د) هو نفس الدال العربي.

وهذا كله يدل على أن لغة التوارق. وحروف لغتهم من أصل عربي قديم سواء أكان فينيقياً (تيفناغ) أم (حميرياً) يمنياً قديماً.

وحروف التيفناغ تكتب من اليمين إلى اليسار في العادة. أما إذا أراد التارقي أن يتناول موضوعاً مهمًّا ويرسله إلى شخص آخر بعيد. ويتوقع أن تقع رسالته في يد الأعداء فإنه يضطر إلى الكتابة في كل الاتجاهات. من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. ومن فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق. وهنا يستغرق فك رموز الرسالة الواحدة عدة أيام[1].

وتضع بعض قبائل التوارق حرف (+) التاء على رقاب الإبل كسمة لها. وهي الحرف الأول من كلمة (توارق) أو (تماشق) وقد ذهب

(1) مشاهداتي الخاصة وجورج غيرستر/ الصحراء الكبرى/ تعريب خيري حماد. ص 58 المكتب التجاري ـ بيروت.

الكثيرون من كتّاب الغرب إلى أن هذا الشكل هو الصليب يستعمله التوارق لأنهم كانوا قبل الإسلام نصارى. وأعتقد أن الرأي الذي أوردناه هو الصحيح. وهذا الرسم (+) حرف التاء التارقي تسم به قبيلة (النوائل) العربية في ليبيا إبلها وهي من القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية وتنتمي إلى بني سليم الذين هاجروا إلى شمال أفريقيا في القرن الرابع الهجري. إذن هذا الرسم لا علاقة له بالمسيحية وإنما هو التاء التارقية أو (التيفناغ).

وحروف التوارق لا يتقنها كل التوارق بل تتقنها النساء والخدم وبعض الذين تعلموها من النساء، ولكن بعد قدوم الاستعمار الفرنسي إلى المنطقة ومحاولته تمزيق شعبها بدعاياته المغرضة شجع هذه الحروف محاولاً أن يجعل لبربر شمال أفريقيا هوية أخرى غير هويتهم العربية الإسلامية. ومحاولاً أن يجد لهم أصولاً غير أصولهم وقومية غير قوميتهم.

ويقول الأستاذ عثمان السعدي في هذا الموضوع:

«الغرض من هذه الدراسة إثبات الأصول العربية للبربر. وأنا أتكلّم في هذا المجال بلا عقدة. فأنا من الذين يقال عنهم بربر. أنا من الشاوية. من منطقة الكاهنة. صومعة الكاهنة المشهورة تقع على مرمى حجر من منزلي في «دوار تازينيت». وبئرها التي كانت تشرب منها جيوشها تقع في مضارب القبيلة التي أنتمي إليها. وكسيلة ويوغورطا وتاكفاريناس وغيرهم من منطقتي أي من جبال أوراس ـ اللمامشة. لكن الفرق بيني وبين بعض المنتمين إلى البربر من دعاة النزعة البربرية هو

أنني درست اللغة العربية وتتلمذت سواء في المدارس الثانوية أو في الجامعة على يد أساتذة عرب وقبائل (بربر) مسلمين ووطنيين. فتحوا عينيّ على حقيقة أصول البربر العربية بينما تتلمذ ذوو النزعة البربرية على يد أساتذة مستعمرين وبطريقة أوضح على يد (الآباء البيض). والآباء البيض في تاريخ الجزائر لم يكونوا يحملون تحت جلابيبهم البيضاء الدعوة المسيحية. وإنما كانوا يحملون الأفكار الاستعمارية التي تعمل على غرس الوجود الفرنسي الاستعماري بالجزائر..»[1].

وأخيراً نختتم الكتابة عن التيفناغ برأي الأستاذ جورج غيرستر عند حديثه عن النقوش في الصخور في الجبال بمنطقة التوارق يقول:

«وتحمل الصور الصخرية للجمال عادة كتابات منقوشة وتحت الرموز إلى نظام الكتابة الليبية ـ البربرية المشتقة من الحروف الفينيقية التي كانت مستعملة في البحر الأبيض المتوسط عندما كانت قرطاجنة في ذروة قوتها. ولا ريب في أن كتابة التوارق تقوم دليلاً على ذلك»[2].

---

(1) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ المصدر السابق. ص 9.

(2) جورج غيرستر/ المصدر السابق. ص 56.



الباب الثاني
النظام السياسي
عند التوارق

النظام السياسي عند التوارق

لم يكن للتوارق على مدى التاريخ نظام سياسي، ولم تقم لهم أية دولة متعارف عليها كغيرها من الدول. إذا ما استثنينا دولة المرابطين (الملثمون) التي قامت في القرن الثاني الهجري (العاشر الميلادي) إلى القرن السابع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وكان التوارق يمثلون جزءاً كبيراً من جنودها وكل قياداتها السياسية والعسكرية حيث التحم معهم أغلب سكان الصحراء الكبرى والتي تتكون من قبائل تارقية وعربية وكذلك قبائل المغرب العربي.

غير أن التوارق في صحرائهم جعلوا لأنفسهم نظاماً سياسياً تعارفوا عليه وحافظوا على نواميسه واحترموه فيما بينهم على مدى التاريخ. وإذا ما حاول أحد المساس بهذا النظام والتنظيم وحاول الخروج عنه قاموا إليه وأرجعوه إليه بالقوة في حروب محلية تقوم وتخمد بين الفينة والأخرى.

وسمّى التوارق مناطقهم بسلطنات يرأسها سلطان يختارونه لذلك من بينهم.

وتنقسم منطقة التوارق إلى سبع سلطنات مقسمة على النحو التالي:

1 ـ سلطنة آزقر

تقع سلطنة الآزقر في سهول ووديان وواحات جبال تاسيلي. وتمتد من غدامس ومرزق في ليبيا إلى جانب وليزي في الجنوب الشرقي الجزائري، وتتخذ من مدينة غات في جنوب غرب ليبيا مركزها.

تتكون هذه السلطنة من عدة قبائل أهمها:

(أ) أوراغن.

(ب) منغساتن.

(جـ) إفوغاس.

(د) إلمطين.

(هـ) إمنّان.

(و) كيل ولّي.

(ز) امقّرغسن.

وليست لهذه القبائل أراض محددة بل هي تتداخل فيما بينها مع قبائل عربية أخرى في المنطقة.

2 ـ سلطنة الهقّار

تشترك سلطنة الهقّار في حدودها الشرقية مع سلطنة آزقر وتتخذ من مدينة (تمنغست) في الجنوب الشرقي الجزائري مركزاً لها وتنتقل بين جبال الهقّار على الحدود مع مالي والنيجر الحالية.

وتتكوّن سلطنة الهقّار من عدة قبائل أهمها:

(أ) كيل أغلا.

(ب) تيطوق.

(جـ) كل أغري.
(د) تاغت ملّت.

3 ـ سلطنة واللِّيمدن كل أطرام

الليمدن أهل الغرب، هذا معنى التسمية. وتحتل هذه السلطنة منطقة (أزواغ) الغربي ومنحنى نهر النيجر. ويحدها من جهة الغرب إقليم ولاته في بلاد شنقيط (موريتانيا الحالية) ومن الشرق تتداخل مع شقيقتها سلطنة (تكريقريت) ومن الشمال تحدها تيزي (تنزروفت) تجاه سلطنة الهقار ومن الجنوب تحدها بلاد (مالنكي) التي تقطنها قبائل الزنوج البامبارا.

وتشمل هذه السلطنة عدداً كبيراً من القبائل تتشكل في إمارات كبرى أهمها:

(أ) إمارة كل انتصر: في غرب وجنوب تينبكتو.
(ب) إمارة تنكريقيف: في منحنى نهر النيجر.
(جـ) إمارة كونته: وهي إمارة عربية حول مدينة (قاو).
(د) إمارة إفوغاس: في أضغاغ أو (أدرار) حول جبال إفوغاس.

وأهم القبائل التي تتشكل منها هذه السلطنة:
(أ) كل إهارا: وهي قبيلة السلطان.
(ب) كل تهينات.
(جـ) أغطفانن: واسمها تحريف لاسم قبيلة غطفان العربية.
(د) إلوغمان.
(هـ) أودالن.

(و) إمنّان.

(ز) إمغران.

(حـ) إشدنهارن.

(طـ) إمضّضغن.

(ي) كل ولِّي.

(ك) إداو اسحاق: وهي مجموعة قبائل.

(ل) كل انتصر: وهي أيضاً مجموعة قبائل فيها: كل أغزاف. تنكريقيف. كل تبوراق. كل تقلالت. كل اسكن. كل قوسّي. الهشان. أبوغليتين. إقلاد. أفوغاس. إيدنان. إيرقناتن.

4 ـ سلطنة تقريقريت والليمدن أهل الشرق

وهي تتوسط بلاد التوارق ومعنى كلمة تقريقريت الوسطى لأن موقعها وسطاً بين السلطنات. إذ يحدهما شمالاً سلطنة الهقار وجنوباً سلطنة (كل أقرس) ومن الغرب سلطنة (والليمدن كل أطرام) ومن الشرق تحدها سلطنة (تمزقدا) و(آيير) ومركز هذه السلطنة مدينة طاوة (شمال النيجر) الحالي، (حوالي 450 كم شمال نيامي العاصمة).

وتتكون هذه السلطنة من قبائل أهمها:

(أ) كل نان: (قبيلة السلطان).

(ب) كلا أغلال: (قبيلة الإمام في أغلب الأحيان).

(جـ) تقرمت.

(د) إراولن.

(هـ) إيخيرخيرن.

(و) أزرياضن.

(ز) تلميديس.

(حـ) أقيران.

(طـ) كيل إزار.

(ي) آيت أواري.

(ك) الشريفن: (وهم ينسبون إلى بني هاشم).

(ل) داغمنا.

(م) اقدالن: (وهم بقايا قبيلة قدالة).

(ف) إزاويتن: (وهم من قبائل الزوايا بموريتانيا).

(ص) اجوانجواتن.

(ق) إيدابيرن.

ـ ـ إبهيوان.

ـ ـ إيكدقان.

ـ ـ ايبنكلان.

ـ ـ إلبكان.

ـ ـ ابضيضاين.

ـ ـ انمغراون: (وهم بقايا قبيلة مغراوة الشهيرة بالشمال الأفريقي).

ـ ـ إيكلان.

ـ ـ إبراكيتان.

وغيرها قبائل أخرى أصغر من هذه.

5 ـ سلطنة آيير

سمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى جبال (آهيير) التي يقطنها رعايا

السلطنة. ويحدها شمالاً سلطنتا آزقر والهقار. وتشترك جنوباً مع سلطنة (تمزقدا) في منطقة أزواغ الشرقي عند هضبة (تقيديت) وغرباً تتداخل مع سلطنة والليمدن كل دنّت (تقريقريت) في منطقة (انقال تقدّا) وشرقاً رمال تينيري غربي واحات كوار (بلما).

وتتكوّن سلطنة الآيير من سكان مدينة (أقدز) الذين لم يكن أغلبهم من التوارق. بل من الهوسا وعناصر أخرى. وتنتمي أسرة سلطان الآيير إلى أصول عثمانية تركية. إذ ينتمي أحد أصول هذه الأسرة إلى مدينة غات حيث عينه الأتراك حاكماً على أقدز عندما كانت غات تحت الإدارة العثمانية فصار سلاطين الآيير يدعون نسبهم إلى الأتراك[1].

ومن المتعارف عليه أن سلطان الآيير من الهوسا من النسب المذكور باتفاق مع القبائل التارقية المتواجدة في المنطقة.

ولا يزال السلطان حتى الآن من هذا الأصل الليبي من غات والذي يدعي منتسبوه أنهم عثمانيون لأن ليبيا في ذلك الوقت كانت تتبع العثمانيين (وأقدز) تتبع والي طرابلس العثماني.

وتتكون سلطنة الآيير من مجموعة من القبائل أهمها:

1 ـ كيل أواي.

2 ـ أيكزكزن.

3 ـ كل تدلّي.

---

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ الطوارق شعب الصحراء الكبرى. مخطوط مكتبة المؤلف. ص 37.

4 ـ إفوغاس.

5 ـ إهقّارن.

6 ـ كل إغاروس.

7 ـ كل افداي.

8 ـ أخير خيرن.

9 ـ إمزوراك.

10 ـ كل فروان.

11 ـ إفرتين.

12 ـ إقدالن.

ومن تقاليد سلطنة الآيير أن يتولى شيخ القبيلة كيل أواي منصب مستشار السلطان لشؤون التوارق وهو بمثابة نائب السلطان ويسمى بلغة التوارق (أنَسْتافيدت).

6 ـ سلطنة تمزقدا

كانت هذه السلطنة من أقوى السلطنات التارقية إذ إنها تحتل أراضي خصبة تنزل بها الأمطار وتتحكم في طرق القوافل القادمة من وإلى ليبيا وبلاد الهوسا وكذلك مصر كما ترتبط بعلاقات تجارية مع شعوب بحيرة تشاد ومملكة كانم وقبائل التبو.

وقد ذكرها ابن بطوطة عندما ذهب في رحلة إصلاح بينها وبين سلطنة (تكريريت) حيث قال:

«.. وفي أيام إقامتي بها. توجه القاضي أبو إبراهيم، والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي. إلى سلطان (تكدا)

وهو بربري يسمى إزار وكان على مسيرة يوم منها. ووقعت بينه وبين (التكركري) وهو من سلاطين البربر أيضاً منازعة فذهبوا إلى الإصلاح بينهما»[1].

وتحد سلطنة تمزقدا شمالاً سلطنة آيير وتحدها جنوباً مملكة (كتشنا) الهوساوية ومن الغرب تحدها سلطنة (تكريقريت) وسلطنة (كل أقرس) ومن الشرق تحدها مملكة (برنو) أو (كانم) ورمال (ترقيت) وقبائل التبو وتحتل سلطنة (تمزقدا) منطقة (أزواغ)[2] الشرقي التي تسمى أحياناً (دمرقو) ومركزها (تاركا) غربي مدينة (تانوت) الحالية شمال زندر.

وتتكون من عدة قبائل أهمها:

1 ـ الشريفن: (وهم ينتسبون للأشراف بني هاشم).
2 ـ كل فروان.
3 ـ ايكزكزن.
4 ـ ايفدين.
5 ـ إيكشكشن.
6 ـ إفوغاس.
7 ـ إمزوراك.
8 ـ كل انبرده.
9 ـ ابرضيانن.

---

(1) ابن بطوطة/ رحلة. الدكتور علي المنتصر الكتاني. الجزء الثاني. ص 800. مؤسسة الرسالة.

(2) أزواغ/ ومعناها الصحراء. ويسميها العرب (أزواد).

10 ـ إزمّايان.

11 ـ إيزغران.

12 ـ إقدالن.

13 ـ كل طمات.

14 ـ إيمزْوَغَنْ: (المزاوغة. ومنهم في ليبيا قبيلة بترهونة، وفي تونس أيضاً قبيلة كبيرة).

وأهل هذه السلطنة بحكم اختلاطهم بقبائل الهوسا صاروا مزدوجي اللغة (لغة الهوسا. ولغة التوارق). ويقول الشيخ خليفة نياس أحد مشايخ الطريقة التيجانية في السنغال: إن أصل الهوسا عرب وهي قبيلة (الحوصة) العربية وحُرّف اسمها في افريقيا لأن الأفارقة لا يستطيعون نطق (الحاء) فينطقونها (هاء)[1].

7 ـ سلطنة كل اقْرسْ

هي أقصى سلطنات التوارق إلى جهة الهوسا وتتكون من اتحاد مجموعة من القبائل التي تتمتع كل واحدة منها بنوع من الاستقلال الذاتي في شؤونها الخاصة. وفي علاقاتها مع جيرانها ورعاياها من القرويين السود. وغالباً ما تتحالف مع مملكة (قوبير) في حروبها ضد سلطنة (تكريقريت).

وأهل هذه السلطنة يتطبعون بكثير من عادات الهوسا وكذلك لغتهم وتتداخل مع مملكة (قوبير) وأصبح من العسير تحديد مناطق النفوذ بينهما.

(1) الشيخ خليفة نياس/ مقابلة شخصية في طرابلس 1980.

وتحتل سلطنة (كل أقرس) المنطقة المعروفة (بآضر) الواقعة جنوب أزواغ الأوسط وهي منطقة جبلية تشعبت منها مجموعة من الوديان الصغيرة ولذلك سمِّيت باسم (آضر) ومعناها الوادي الصغير في لغة التوارق.

وتشترك هذه السلطنة مع إمارة صغيرة محايدة ومستقلة من هذه السلطنات وهي إمارة (إليسَوَنْ) التي تتخذ مقراً لها في (كيتا) شرق طاوة. بالإضافة إلى القرويين السود المسلمين المعروفين باسم (كل آضر) أي أهل الوادي الصغير الذين يخضعون لسلطان (تكريقريت) في أغلب الأحيان.

وتحد سلطنة كل أقرس من الشمال والغرب سلطنة (تكريقريت) ومن الجنوب مملكة (قوبير) ومن الغرب سلطنة (تمزقدا) ومركز هذه السلطنة (أرزا روري) شمال مدينة (ماداوا) وتتكون من عدة قبائل أهمها:

1 ـ كل إقلال (وهم مجموعة الأغلال بشنقيط، عرب).
2 ـ إغاون.
3 ـ كل امنير.
4 ـ إتيسان.
5 ـ وعدد كبير من الموالي والعبيد الذين يسمون (إغويلن).

نظام الحكم في السلطنات

يتكوّن نظام الحكم في السلطنات التارقية من الهياكل التالية:

1 ـ منصب السلطنة أو السلطان ويسمى في اللغة التارقية (الأمنوكال).

2 ـ منصب شيخ القبيلة ويسمى (امغار).

3 ـ منصب الإمام.

السلطان

يتولى هذا المنصب شيخ أقوى قبيلة من القبائل التي تشكل الاتحاد أو السلطنة. ويسمى (أمنوكال) أي الرئيس الأعلى للبلاد.

ويساعد السلطان في حكمه مجموعة من (الأتابال) أي رؤساء القبائل أو بالأصح رؤساء مجموعات القبائل لأن كل شخص من هؤلاء الرؤساء تحت إمرته مجموعة من شيوخ القبائل (الأمغار).

ويتولى الحكم بعد السلطان ابن أخته وهو وريثه في الحكم فلا يتولاه إخوته أو أبناؤه. ويرى التوارق في ذلك أن ابن الأخت يجري في عروقه الدم النقي الواضح لسلالة السلطان أكثر من الإخوة والأبناء الذين قد يشك في نقاء دمهم. وهذه العادة عربية قديمة[1].

---

(1) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام/ جواد علي.

ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللّطيف:

«وقد بقيت هذه العادة حتى عهد قريب في عدد من السلطنات مثل الهقار وكل اقرس. وقد بطل العمل بها في السلطنات الأخرى مثل واللّيمدن. وتكّريقريت. وآيير. فأصبح الحكم وراثياً يتولاه أكبر الأبناء للسلطان أو أحد إخوته أو أبناء عمه إذا لم يكن له ولد»[1].

ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف:

«وفي الهقار واطرام وتكريقريت يسمى السلطان (أمنوكال) أو (أمغار ناكال) ومعناه إمام البلد أو شيخ البلد. وفي آيير وتمزقدا وكل اقرس يسمى (الطبل) لأنه يمسك الطبل شعار الحكم والسلطنة ويضرب عليه لإعلان الطوارىء والدعوة إلى الاجتماعات الرسمية»[2].

ويقول الخجي آمي:

«وفي حالة اضطرارية لأي قبيلة لتلحق بقبيلة أخرى، فإنها لا بد وأن تأخذ ترخيصاً خاصًا من الأمنوكال لاستغلال المراعي أو الإقامة في أي منطقة لزمن غير محدود. وفي حدود كونفيدراليته فإن الأمنوكال يحتاج لمعاونة أقرب معاونيه يجبون الضرائب ويأخذون الإتاوات ويقيم العدل ويقرر بداية ونهاية التنقل في المنطقة.

والأمنوكال ينصب من طرف (لاماني) وهو مجلس (الأتابالان) رؤساء المجموعات. وهو بالتالي يستطيع أن يعزله وكذلك المجلس يكون تحت رئاسة الأمنوكال الذي له وحده الحق في إعلان الحرب أو

---

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. المصدر السابق. 44.

(2) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. المصدر السابق. 44.

نشر السلام. ومجلس رؤساء المجموعات هو الذي يتبنى ويتخذ الوسائل الخاصة بالأمن والاقتصاد والمسائل الدينية والاجتماعية.

ومن أجل القيام بكل هذا، فإن الأمنوكال محاط بمجموعة من القانونيين[1] والحكماء والعلماء يقومون بوظائف المستشارين والقضاة والأئمة في المساجد والمكلفين بالبعثات والسفراء.

أما وظائف الرئيس السياسي والرئيس العسكري، فإن الأمنوكال هو الذي يتقلّدها، يساعده في ذلك (أمغار انغامان) (القائد العسكري) وهذا يقوم بتدريب الشباب على الأسلحة المتنوعة كالسيف والرمح وغيرهما..»[2].

الطبـل

يعتبر الطبل عند التوارق رمز السيادة، وكذلك كان عند العرب إلى عصر قريب.

والطبل عبارة عن قصعة من العود (الخشب) كبيرة يربط عليها جلد بعير أو جلد بقرة بحبال متينة. ويثقب ذلك الجلد ثلاثة أو أربعة ثقوب متقاربة دائرية ليست بالكبيرة لتسمح للهواء بالخروج عند الضرب على الجلد. ويضرب الطبل بعصا تصنع خصيصاً له أو بحبل متين، وهو الأفضل، حتى لا يتسبب الضرب في عطب الطبل... وعادة ما يكون ذلك الحبل عقال بعير. والطبل هو الطريقة التي يستطيع بها

(1) القانونيون/ ليسوا خريجي الجامعات في القانون. ولكنهم خبراء قوانين العرف في المنطقة.

(2) الخجي آمي/ ملخص عن تاريخ الصحراء/ بحث مخطوط مكتبة المؤلف. ص 14.

(الأمنوكال) إسماع أوامره لمرؤوسيه في مختلف القبائل. إذ إن صوت طبل الأمنوكال تتبعه أصوات طبول رؤساء القبائل الأخرى بنفس الأمر إلى أن يصل الأمر إلى أسماع أقاصي القبيلة في المنتجعات التارقية المتناثرة في صحراء السلطنة.

ولما كان للطبل هذه الأهمية، فإنهم وضعوا نواميس وقوانين متعارفاً عليها يستطيع أبعد شخص في التوارق، عن طريق عدد ضرباته وأوقاتها، أن يعرف المقصود من صوت الطبل ويستعد للأمر المطلوب.

ويقول الخجي آمي ـ وهو من توارق واللّيمدن ـ عن المواضيع التي يضرب فيها الطبل والرموز المتعارف عليها لمواضيع الضرب. يقول:

«وأهم الأشياء التي يضرب فيها الطبل هي:

1 ـ الأماني (التجمع العام).

2 ـ اختفاء إحدى القوافل.

3 ـ تغيير مكان مخيم الأمنوكال.

4 ـ إعلان هجوم غزاة أعداء.

5 ـ إعلان الحرب.

6 ـ العودة من عملية حربية.

7 ـ القيام بغزو والخروج في عملية ضد الأعداء.

8 ـ القيام بتغييرات خاصة.

وكل صنف من هذه الأشياء له شيفرة خاصة مقررة من المجلس العام. وتكون معروفة في جميع الأوساط في الكونفيدرالية التي تخصها الشيفرة.

ولنذكر بعض النماذج على ذلك:

إعلان الحرب: 12 ضربة على الطبل تعاد بدون انقطاع كامل اللَّيل والنَّهار.

غزو على الأعداء: ست ضربات على الطبل تعاد على الأقل أربع مرات في الأربع والعشرين ساعة.

الإعلان عن قدوم غزو خارجي (لم يصل بعد): يضرب على الطبل بدون انقطاع كامل اللَّيل والنهار حسب زمن ورود الخبر.

الاستدعاء العاجل للمجلس العام (أماني): ثلاث ضربات على الطبل في النهار ومثلها في الليل.

اختفاء إحدى القوافل المهمة: ضربتان على الطبل تعادان عدة مرات بدون انقطاع.

الإعلان عن رفع الخطر: ثماني ضربات على الطبل فقط لا تعاد»[1].

وهكذا يتفق هذا الشعب الصحراوي الذي تتناثر جموعه في الصحراء على هذه الشيفرة ليسهل إبلاغه الخبر. ويسهل استنفاره في أي لحظة من لحظات الليل أو النهار.

وهذه القضايا كلها تعني السلطان أو تخصه، والطبل، وطريقة ضربه، والشخص المكلف بالضرب وعادة ما يكون أحد العبيد دائماً رهن إشارة السلطان.

---

(1) الخجي آمي/ المصدر السابق. ص 16.

ويأتي بعد السلطان في الأهمية والترتيب الوظيفي الشيخ (أمغار).

شيخ القبيلة (أمغار)

يقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللَّطيف:

«وإلى جانب السلطان يوجد شيخ على رأس كل قبيلة يتولى الإشراف على شؤون قبيلته ويمثلها في الاجتماعات العامة ويحمي مصالحها ويجمع منها حصتها من الأموال المطلوبة لخزانة السلطنة أو لتمويل الحرب. ويقود رجال قبيلته في حالة الحرب أو للغارة على إحدى الجهات المعادية ويسمى شيخ القبيلة (أمغار) أو (خاكمي)، ولما مزّق الفرنسيون الكونفدراليات الكبرى في بلاد التوارق رفعوا شيوخ القبائل المهمة إلى مستوى الزعماء التقليديين على رأس مجموعات إدارية تابعة للإدارة الفرنسية مباشرة..»[1] ويأتي في الأهمية بعد السلطان والشيخ شخصية دينية مرموقة هي شخصية الإمام.

الإمـام

بعد انتشار الإسلام بين بدو التوارق استحدثوا هذا المنصب وفي العادة يتولاه أحد الفقهاء المتضلعين في الدين الإسلامي ومهمته إرشاد السلطات وتنويرها في مسائل الدين الحنيف. كما يشرف على القضاء ويصادق على أحكام القضاة. كما يعتني بأمور التعليم والمساجد. وإليه يعود الرأي في حل النزاعات والخصومات القبلية.

ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللَّطيف:

«ويبدو أن هذا المنصب لم يتمكن من الاستمرار إلا في سلطنة

---

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. 44.

(تكريقريت). أما في السلطنات الأخرى، فإن الإمام تحول إلى مجرد مستشار أو قاض تابع للسلطات إلى أن تمَّ إلغاء منصبه نهائياً في أطرام وفي الهقار وفي غيرهما..»[1].

المجلس العام

يتكوَّن المجلس العام عند التوارق من جميع شيوخ القبائل الممثلين في السلطنة ويجتمعون بدعوة من (الأمنوكال) حيث تعرض عليهم الأمور المهمة ويقررون الحرب والسلم والقضايا المهمة في التجارة وإرسال القوافل الكبيرة وحمايتها وقضايا الغزو وصد الغزو وحتى قضايا رحيل المنتجع بصفة جماعية طلباً للكلأ أو خوفاً من العدوّ أو الالتجاء إلى أرض دفاعية استعداداً للحرب.

وإلى جانب هذا فهم يعينون (الأمنوكال) وكذلك يعزلونه إذا بدا منه الضعف بسبب المرض أو الشيخوخة وعدم القدرة على قيادة السلطنة. ويعينون بعد نقاش طويل أحد أفراد العائلة الحاكمة. ولهم معايير في اختيار (الأمنوكال) الجديد، منها:

- أن يكون حسن السيرة والسلوك.
- وأنه لم يقم بأي عمل مشين في حياته.
- وأن يكون قوي البنية والعقل.
- وأن يكون محبوباً من الشعب أو من غالبيته.

وإذا لم تتوفر هذه الشروط في أحد أفراد الأسرة الحاكمة

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. 44.

(السلطان) فإنهم يختارونه من بين رؤساء المجموعات شريطة أن يكون من أسرة شريفة.

والشرف بمفهوم التوارق أن يكون نسبه في أعلى السلم الاجتماعي في تنظيم البنية الاجتماعية.

احتفالات التنصيب

يعتبر تنصيب (الأمنوكال) الجديد عند التوارق مناسبة من المناسبات المهمة في حياتهم.

لهذا يقيمون احتفالات ذات مراسم معروفة ومتفق عليها ولو أنها غير مكتوبة.

ومن هذه المراسم:

يقوم بترتيب الاحتفال مجموعة من المرابطين (الفقهاء) المتخصصين في قراءة القرآن، ونادراً ما يلجأ المجلس العام للانتخابات بخصوص اختيار السلطان الجديد (الأمنوكال) ولكنه أحياناً يلجأ لذلك ـ وهو من النادر ـ عندما يعرض أكثر من مرشح لتولي منصب (الأمنوكال).

وفي هذه الحال يقوم المجلس بوضع كل شخص مرشح لهذا المنصب بعيداً في خيمة أو تحت شجرة، ويطلبون بعد نقاش طويل من كل شخص يرغب في اختيار شخص من المرشحين أن ينتقل ويجلس بجانبه.

وهنا يفوز بالسلطنة (الأمنوكال) الشخص الذي يجلس بجانبه أكثر عدد من شيوخ القبائل (أعضاء المجلس العام) وهنا يرضى الجميع بالنتيجة.

وقد يحدث أحياناً أن يرفض أحد الخاسرين النتيجة فتقوم الحرب بين المتصارعين. مثل ذلك الصراع الذي حدث بين ورثة السلطان محمد الكميتي سلطان (تكّريقريت) عندما استسلم للفرنسيين ومات بعد ذلك بفترة فقامت حروب بين ابن عمه (إسماعيل) وابن أخته (أخزي) واستمرت حوالي عشرين سنة أذكاها الفرنسيون ليضعفوا الفريقين ويلهوهما بأنفسهم.

وفي النهاية ناصروا إسماعيل وبقي أخزي يحاربهم إلى أن قبض عليه وأعدم من قبل الفرنسيين.

العلاقات السياسية
بين السلطنات التارقية

لم تقم بين هذه السلطنات ـ على مدى التاريخ ـ أي وحدة سياسية باستثناء دولة المرابطين التي جمعت هذه السلطنات لفترة وجيزة ثم عادت إلى سابق عهدها.

ونظراً لاتساع الأرض الصحراوية ـ حيث يقطن التوارق ـ وبعثرة القبائل في أرجائها الشاسعة، وقلّة الموارد وندرة الأمطار وسيطرة الجفاف في كثير من الأحيان على مناطق دون أخرى، ورحيل التوارق البدو طلباً للكلأ وسعياً لمعيشة حيواناتهم، ولأسباب أخرى أيضاً اقتصادية لسيطرة بعض القبائل على طرق القوافل المتجهة للشمال أو الجنوب.

لكل هذه الأسباب مجتمعة أو لبعضها كانت المنافسات بين هذه السلطنات التي أدَّت في بعضها إلى حروب طاحنة سببها النهب والغزو بينها مثل حرب (إنطروان) بين سلطنتي (الهقار) و(تكريقريت) في أواخر القرن التاسع عشر. وسببها المباشر غارة مجموعة من الهقار على أحياء قبيلة (كل افداي) ونهبها.

كما نذكر الحرب التي قامت بين سلطنتي (تمزقدا) و(تكّريقريت) وهي التي ذكرها ابن بطوطة في رحلاته وتوسطه في الصلح بين السلطانين[1].

---

(1) انظر ابن بطوطة/ الدكتور علي المنتصر الكتاني. المصدر السابق.

كما تقوم معارك صغيرة بين الحين والآخر بين السلطنات وأحياناً بين قبائل السلطنة الواحدة كمعارك قبيلة منغساتن وقبيلة (أوراغن) وكلتاهما من سلطنة (آزقر) وذلك في أوائل القرن العشرين ونهب كل منهما لإبل الأخرى حيث حدثني الحاج إسماعيل محمد علي وهو من قبيلة منغساتن وكان يقودها من جانب منغساتن الفقّي انقدازن وهو من أوراغن، ولكنه يتبع أمه المنغساتنية، وصار ينسب إلى منغساتن على عادة التوارق ومن جانب أوراغن يقودها الخير خمدان وهو أيضاً من منغساتن ولكن أمه من أوراغن فصار يتبع أخواله.

ولقد التقيت بهؤلاء الرجال ولكن أكثرهم صراحة في إخباره لي بتفاصيل هذه المعارك، وهو الحاج إسماعيل محمد علي الذي تربطني به صداقة شخصية منذ عام 1960 عندما كنت في درج[1].

وعند دخول الفرنسيين إلى الجزائر وقفوا يساعدون قبائل الهقار ضد سلطنة (تكّريقريت) كما وقف الإيطاليون يساعدون أبا بكر لقوي وعيّنوه سلطان آزقر في غات ضد قبائل منغساتن التي رفضت الانصياع تحت الاستعمار الإيطالي. وأرسلت إليه أسلحة عن طريق غدامس ليهاجم المجاهدين المنسحبين إلى فزان من المناطق الشمالية ومن بينهم قبيلة منغساتن[2].

ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف:

(1) الحاج إسماعيل هو الآن في عمر يقارب التسعين. ولقد التقيت به عدّة مرات وأحاديثه مسجلة عندي آخرها في مزرعته بارباري 1982 كما رافقني إلى الحمادة الحمراء في رحلة صيد عام 1983.

(2) انظر كتاب: نحو فزان، للجنرال قرسياني.

«ولكن أهم أسباب توتر العلاقات بين هذه السلطنات يرجع في الغالب إلى النزاع على العيون المالحة في (تقدا) و(انقال) والتي كانت ملتقى سنوياً يتجمع عنده أصحاب الحيوانات وخاصة الإبل التي تردها من كافة الاتجاهات في ازواغ الغربي ـ اضغاغ ـ وازواغ الأوسط وآضر كل اقراس. وفي الهقار؛ بالإضافة إلى قبائل آيير الموجودة في تلك المنطقة. وذلك لفائدة تلك الملاحات للإبل وغيرها من الحيوانات. وتتوسط هذه المنطقة المراعي التي يرتادها التوارق أثناء فصل الأمطار الموسمية (أغسطس ـ سبتمبر) بعيداً عن الرطوبة والبعوض والحشرات التي تكثر في فصل الأمطار في المناطق الجنوبية.

وقد جرت العادة على تواجد مختلف القبائل التابعة للسلطنات التارقية في هذه المنطقة، وتكون بمثابة ملتقى سنوي يلتقي فيه زعماء القبائل. وينعقد فيه اجتماع بين بعض السلاطين للتباحث في الأمور التي تهم القبائل. ومن أجل تسوية النزاعات والمسائل التي تحدث بين رعاياها[1].

كما أن إيواء بعض السلطنات لبعض القبائل المنشقة عن السلطنات المجاورة سبب الحروب بينها كما حدث بين سلطنة (تكّريقريت) و(أطرام) وكذلك بين (كل أقرس) و(تكّريقريت).

وقد تحدث المعارك بين أتباع مجموعات تريد الإصلاح وأخرى تتمسك بالتقاليد مثل حرب (حدا حدا) و(الجيلاني) وهما مصلحان اجتماعيان أرادا إرجاع الدين إلى مساره الصحيح في منطقة التوارق.

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. المصدر السابق. 53.

ولكن السلاطين اتحدوا ضدهما وحاربوهما وانتصروا عليهما. هذه هي العلاقات بين السلطنات فيما بينها.

أما العلاقات بين السلطنات التارقية والعالم الخارجي فهي ضعيفة جدًّا. ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللَّطيف:

«فلا يعرف التوارق في العصر الحديث عن العالم الخارجي إلا ما يصل إليهم عن طريق الحجاج الذين تكون غالبيتهم من الشناقطة (الموريتانيين) وقلَّة من أهل البلاد»[1].

ويستطرد محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف في حديثه عن هؤلاء الحجاج القادمين إلى الصحراء من مكة عن طريق مصر وليبيا بقوله:

«هؤلاء الحجاج هم الذين يزودون السلاطين بأخبار العالم الإسلامي والأحداث الكبيرة التي تحدث في العالم. وذلك بطريقة مشوهة وغير صحيحة. كما يقومون بنشر الأفكار التي تسود في المشرق كالطرق الصوفية وغيرها من الأفكار»[2].

ولهذا نجد نظرة التوارق للعالم الخارجي محدودة وغير واضحة. وهم دائماً يقسمون العالم إلى مسلمين وكفّار وكل الذين لا يتكلمون العربية هم كفّار دخولهم للمنطقة رجس يجب تجنبه. ولقد أخبرني الأخ المرحوم خي بابا شباخ أنه في الصحراء الكبرى عند التوارق والعرب إذا شرب فرنسي أو أي كافر في إناء يغسلونه سبع مرات إحداهن بالتراب وذلك لإزالة النجاسة.

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. المصدر السابق. 56.
(2) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. المصدر السابق. 56.



الباب الثالث
الحياة الاجتماعية في المجتمع التارقي-الطبقات الاجتماعية-

الحياة الاجتماعية في المجتمع التارقي

تعتبر الأسرة هي الخلية الصغرى في مجتمع التوارق وفي المجتمعات القبلية بصفة عامة. وتسمى الأسرة عند التوارق (إيهن) أي الخيمة وكذلك العرب أيضاً يسمون الأسرة (البيت) وهو الخيمة. وتتكوّن الأسرة من الأب والأم والأولاد وعدد من الخدم حسب مكانة رب الأسرة. وتأتي بعد الأسرة العائلة أو العشيرة وتسمى عند التوارق (كل إيهن) وتتكوّن من عدد من الأسر تربطهم قرابة الدم وعادة ما ينحدرون من جد واحد للعائلة ويكون ذلك الجد غير بعيد. ويعيش مع هذه العائلة أو العشيرة مجموعات من العبيد والموالي التابعين لها.

المحلة أو الحي (أغيوان) ويكون الحي من مجموعة من العشائر أو العائلات التي تترابط بروابط الدم مع مجموعات مواليهم. هي أشبه بالتجمع لدى عرب الصحراء.

ويتعاون سكان هذا المنتجع في حفر الآبار وسقي المواشي وإعداد وحماية القوافل.

كما يؤسس الحي (أغيوان) عند بعض التوارق مسجداً للصلاة يؤدون فيه الصلوات ويجتمعون فيه ويكون مؤقتاً مصنوعاً من الحصر أو الحشائش اليابسة وهو أشبه بالكوخ وعادة ما يكون بدون سقف وتشرف

عليه مجموعة (إينسلمن) أي الفقهاء بالمنتجع[1] ويأتي بعد المنتجع هذا من ناحية السلم الاجتماعي القبيلة.

القبيلـة

والقبيلة وتسمى عند التوارق (توشيت) تتكوّن من مجموعة من الأحياء التي تنتمي إليها. وتتجمع في منطقة واحدة متقاربة تضمها منطقة من الرعي واحدة ومجموعة من الآبار لسقي حيواناتها ولشربها. وتجمع القبيلة كافة الطبقات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع التارقي (النبلاء ـ الفقهاء ـ الموالي ـ العبيد ـ الحدادون والمطربون). ويجمعها الولاء المشترك لأحد الأحياء في القبيلة الذي يتولى رئاستها عن طوع خاطر. ويجمعها كذلك جدّ مشترك يجتمع عنده معظم أفراد القبيلة ويرأس هذه القبيلة شيخ يكون من أقوى العشائر فيها ومهمته الدفاع عن القبيلة وتمثيلها لدى السلطان كما يقودها في الحرب والسلم ويمثلها في الاجتماعات الرسمية لدى القبائل. وتجتمع مجموعات القبائل في المنطقة تحت لواء سلطنة واحدة.

والسلطنة (تمغر) وهي اتحاد مجموعات من القبائل يجمعها (الطبل) الواحد الذي يمتلكه السلطان الذي يعينه مجموعة شيوخ القبائل المتحدة والمتحالفة وتعتبر السلطنة كل الأراضي التي تتنقل فيها القبائل التابعة لها حدود أراضيها ومدار هيمنتها. ومن الغريب أن المدن التي تقع في مساحات السلطنات تعتبر محايدة ومشتركة لكل السلطنات بحيث يرد جميعهم إلى أسواقها لبيع منتوجاتهم وشراء حاجاتهم[2].

---

(1) مشاهداتي الخاصة في بلاد التوارق.

(2) انظر محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 62.

الطبقات الاجتماعية عند التوارق

يتميز مجتمع الصحراء الكبرى عموماً. والتوارق خصوصاً بوجود فوارق طبقية متباينة ومتمايزة لدرجة أن التزاوج لا يتم في أغلب الأحيان بين طبقة وطبقة أخرى إلا ما ندر. وأن حِرفاً معينة لا يقوم بها غير المصنفين في طبقة معينة وتعتبر مشينة لطبقة أخرى إذا ما قامت بها.

وأهم طبقات المجتمع التارقي الطبقات الآتية:

1 ـ طبقة النبلاء (إماجغن ـ إماشاغ ـ إموهاغ)

وهذه الطبقة تتكوَّن من أولئك الذين يتمسكون بالعادات والتقاليد التارقية العريقة. والذين يبرزون أنفسهم ويفرضون شخصيتهم على الآخرين سواء في الحروب أو بمركزهم المادي أو قوة شخصيتهم. والسلطان وكذلك شيخ القبيلة يكونان من هذه الطبقة (النبلاء) وهناك قبائل تُعتبر نبيلة وبمجرد أن يذكر إنسان أنه يتمي إليها يُعرف أنه من النبلاء دون شرح للموضوع. ومن هذه القبائل:

(أ) في أزواغ الأوسط

كل نان ـ إراولن ـ تكّرمت ـ إخيرخيرن ـ تلّميديس ـ إيظرياضن ـ آقيران ـ كل آظار.

(ب) في أزواغ الغربي ومنحنى نهر النيجر

كل أهارا ـ كل تهنبات ـ إغطفانن ـ أودالن ـ إلوغمان ـ تنكّريكيف.

(جـ) في آضر

كل قبائل (كل اقرس) هي من النبلاء باستثناء عبيدهم ومواليهم.

(د) في أزواغ الشرقي

الشريفن ـ إكزكزن ـ كيل فروان ـ إفوغاس ـ إفدين.

(هـ) في آيير

كيل أواي ـ كيل تدليّ ـ إيكزكزن ـ كيل فروان ـ إفوغاس ـ كيل فداي ـ إهقارن ـ كل أغاروس.

(و) الهقار وآزقر

كل اغلا ـ تيطوق ـ إمنغساتن ـ إفوغاس ـ أوراغن ـ إلمطين ـ إمنان.

(ز) وفي إضغاغ

(جبل افوغاس) إفوغاس ـ إدنان.

ويقول محمَّد عبد الرحمٰن عبد اللَّطيف: «وأصحاب طبقة النبلاء لا يقومون بأي نشاط خاص بهم، ولا يهتمون بالتعليم، ولا بأي نوع من الثقافة، وإنما يقتصر نشاطهم على دعوى سيطرتهم على الطبقات الأخرى ونهب ممتلكاتها كلَّما سنحت الفرصة بذلك وبكل الوسائل بما في ذلك العنف والخداع[1].

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. 19.

2 ـ طبقة إمغاد

«وقد تكوَّنت هذه الطبقة من الأسر والعشائر التي لم تساعدها الظروف على التمسك بالعادات والتقاليد التارقية. ولم يلزم أصحابها أنفسهم بالمحافظة على الضوابط الاجتماعية الصارمة التي يلتزم بها النبلاء. وذلك إما لكونهم لا يطمعون في تولي السلطنة ولا يرغبون في فرض أنفسهم على غيرهم من القبائل. أو لكونهم من قبيلة مقهورة تغلبت عليها قبيلة السلطان فأخضعتها لتبعيتها أو كانت من قبيلة غريبة وفدت إلى المنطقة وهي في حالة ضعف يكفيها أن تحصل على السماح لها بالاستضافة ورعي مواشيها في مضارب القبائل المضيفة. مقتنعة بانضمامها إلى رعايا القبيلة الحاكمة. ومن أشهر قبائل هذه الطبقة:

(أ) في أزواغ الغربي (إضغاغ)

كيل وليّ ـ إلكّان ـ إركّناتن ـ أبو غليتن.

(ب) في أزواغ الشرقي

إبنكلان ـ إلبكان ـ انمكّراون ـ إيتـكان ـ كل تبيكورت ـ إظمايات ـ إبرضيانن ـ كل البردة.

(جـ) في الآيير

إبركّالن.

(د) في الهقار وآزقر

كيل وليّ ـ تاغت ملّت ـ امقّرغسن.

ويقتصر عمل الإيمغاد على حرفة الصيد خدمة لأسيادهم (النبلاء) ويأخذ منهم السلاطين مرافقين لهم لخدمتهم. كما تأخذ نساء النبلاء

مساعدات وصديقات من نساء رعاياهم إيمغاد التابعين لهم. . »[1].

وأفراد طبقة الإيمغاد هم محاربون أشداء ويتخذ منهم السلاطين جلَّ جيوشهم.

3 ـ طبقة الفقهاء (إنسلمن)

تكوَّنت هذه الطبقة من مجموعات من الأفراد تفقهوا في الدين وتفرغوا له وتولوا عملية نشره بين التوارق وتحفيظ القرآن لأبناء الطبقات التي ترغب في تعليم أولادها.

وتكوَّنت هذه الطبقة لدى التوارق بعد ظهور الإسلام. وهي طبقة محترمة يقدِّرها الجميع وينظرون إليها على أنها المحافظة على الدين الإسلامي في مجتمع التوارق.

وأفراد هذه الطبقة في العادة لا يحملون السلاح ويلجأون دائماً إلى حمى طبقة النبلاء التي تتولى الدفاع عنهم وحمايتهم.

ويكون الإمام دائماً في سلطنات التوارق من هذه الطبقة.

وتسمى هذه الطبقة (إيمزوغن) أي المزاوغة.

وقد يسميهم النبلاء انتقاصاً لقيمتهم (ابروكورين) أي تعبيراً لهم بلونهم الأبيض الأحمر على غير عادة لون توارق المنطقة المائل للسمرة وهذه الطبقة تحمل لواء اللغة العربية وآدابها وفقه اللغة والأدب وهي في الغالب تنتمي إلى أصول عربية وبعضها ينتمي (لبني هاشم) حيث يدعون الشرف.

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. 20.

ومن أشهر قبائل هذه الطبقة:

(أ) **كل أغلال**: وهم فرع من قبيلة الأغلال المتواجدة ببلاد شنقيط.

(ب) **الشريفن**: وينتسبون لبني هاشم.

آيت أواري: ويقولون إنهم جاءوا من الشمال من جبل هواري وقد ذكرنا أنه موجود بالقفرة بليبيا.

(د) داغمنّا.

(هـ) **إزاويتن**: وهي بعض قبائل الزوايا الموجودة بموريتانيا.

(و) اجوانجواتن.

(ز) **إكدالن**: بقية قبيلة قدالة الصحراوية.

(حـ) إداو اسحاق: جزء من قبيلة إداو اسحاق بموريتانيا وهي عربية.

(طـ) **كيل انتصر**: تنتمي إلى الأنصار بالمدينة المنورة قيل نهم جاءوا إلى شمال أفريقيا هروباً من فتنة علي ومعاوية.

(ي) إيكلاد.

(ك) **الشيخن** (كونتا): وهي قبيلة عربية تنتمي إلى عقبة بن نافع الفهري ولهم شجرة نسب بذلك.

(ل) **كل السوق**: قبيلة عربية جاءت من برقة ولالتزامها بالتعليم في سوق القرية (تضمكات) سمّوهم أهل السوق.

(م) **إمسوفن**: ومعناها الصحراويون وهم بقية قبيلة مسوفة التارقية القديمة وقد عارض علماء مسوفة الفقيه عبد الله بن ياسين عندما جاءهم وناظروه كثيراً وانشقوا عليه.

ومسوفة. وأهل السوق. متخصصون في الخط العربي وكتبوا الكثير من الكتب بأقلامهم ونسخوها وكذلك مصاحف القرآن الكريم كما اتخذ منهم السلاطين كتبة ومحررين لرسائلهم.

ومن أشهر قبائل كل السوق:

كل تبراق (أهل برقة) ـ وكل تقلالت ـ وكل تنغاكلي كل اسكنْ ـ كل تنكريكدش.

وقد نزح كل السوق من مدينتهم التي دمرتها الحروب والجفاف إلى مناطق أزواغ الغربي. ومنحنى نهر النيجر ثم إلى أطراف مناطق أزواغ الأوسط وقد بقي بعضهم في إفوغاس.

4 ـ الحدادون: (الصنّاع التقليديون)

(إنيضن ـ إيكنوان ـ إيكدمان).

يقول التوارق إن هذه الطبقة ترجع إلى عصور قديمة وأصول قديمة ويسميها التوارق (إنيضن) ومعناها بلغتهم ابن العصر القديم. ومفردها (إيناض). ويقول التوارق: إن الكتابات والنقوش القديمة في الصخور والكهوف هي من صنع (إنيضن). وهذه الطبقة تحتكر الصناعات التقليدية وهي التي تصنع كل لوازم الحياة في الصحراء. كالمواد المنزلية. القصاع. الأقداح. والخيمة من الجلد. وأوتاد الخيمة. وركائزها. ورواحل الإبل. وسروج الخيل وتجهيز الإبل بالأكياس الجلدية المنقوشة والمطرزة كما يصنعون آلات الحرب. الدرق. والرماح. والسيوف والخناجر.

ويصنعون الحلي للنساء والرجال. كالخواتم. والأقراط.

والأساور. والخلاخيل. والمجوهرات وصياغة المعادن. ولقد شاهدت الصناعات التي تصنعها هذه الطبقة في الصحراء فكانت على درجة عالية من الاتقان والجمال والنقوش المميزة بالصحراء.

ولقد شاهدت أن بعض الحدادين يصنعون أخمص البنادق ويصلحونها وآخرين يقلّدون أي حلية ترغب أن يصنعوها لك بالمقاس نفسه والنقش نفسه والمعدن نفسه وإن شئت الميزان نفسه.

ومما يزيد المرء إكباراً بدقتهم وقدرتهم العجيبة أنهم يصنعون ذلك بآلات بدائية ويصهرون معادنهم في بوتقات على نار الخشب أو الفحم النباتي التي يؤججونها بمنافيخ يصنعونها من الجلد والخشب بطريقة فريدة ومتقنة.

وكل مجموعة من الحدادين أو الحرفيين يتبعون قبيلة من قبائل الصحراء التوارق أو غيرهم. وينتسبون إليهم. ويقوم هؤلاء الحرفيون بخدمة أسيادهم من القبائل الأخرى بحيث يُنسب الحداد لسيده. حتى في ذبح الشاة وسلخها وتقطيع لحمها لا يقوم به إلا الحدادون. ويعتبر غيرهم هذه الحرفة منقصة لهم. وقد ذكّرتني هذه الحادثة بكسيلة الذي أمره عقبة بن نافع بسلخ شاة واعتبرها إهانة حسب عادات أهله وبذلك انقلب على عقبة وقتله في القصة المشهورة وارتد عن الإسلام. رحم الله عقبة، فإنه لا يعرف عادات قبائل المنطقة وبذلك خسر نفسه بخطأ كان بمقدوره أن يتلافاه.

وحتى اللحم عند توزيعه على الآكلين للحداد لحمه المتعارف عليه. فهو دائماً نصيبه الرقبة والرأس والأرجل، ولا يناولونه أطايب اللحم كما يفعلون مع (النبلاء أو أينسلمن)..

وأهم قبائل الحدادين أو بالأصح تجمعاتهم:

1 ـ إيكنوان: التي تتخصص في صناعة الطوب والخزف وأواني الطبخ والقدور وقلل تبريد الماء وقلل حفظ اللبن والسمن وغيرها.

2 ـ إيكدمّات: يتخصصون في صناعة الحصر. وفرش المنازل واحتياجات الخيمة.

وهؤلاء الحرفيون يقومون أيضاً إلى جانب حرفهم هذه باستقبال الضيوف وترتيب الضيافة لضيوف أسيادهم. وإحياء حفلات السمر إذ يقومون ببعض التمثيليات البدائية المضحكة حيث شاهدتها عدَّة مرات في مناطق الصحراء وفي مناسبات الأفراح.

ومن الحرفيين هؤلاء تخرج طبقة المغنين والشعراء والمداحين الذين يسمّون (يِقِّيوْ) أو (تِيقّيوتْ).

وسكان الصحراء جميعاً يخشون ألسنة هؤلاء الحرفيين إذ إن هؤلاء الناس عندهم لا يحفظون سرًّا وهم ثرثارون ويضربون المثل بثرثرتهم. وهم طمّاعون جشعون وتضرب الأمثال بطمعهم وجشعهم. وتروي الكثير من النوادر عن طبائعهم وجبنهم فهم لا يشتركون في المعارك ولا يخوضونها. وهم أتباع من غلب بالرغم من حذقهم صناعة الأسلحة.

وسكان الصحراء لا يردون طلباً لهؤلاء المغنين حتى إن أحد أمراء منطقة (تجكانت) في موريتانيا أصيب في إحدى المعارك في يده. ولم يستطع الأطباء الشعبيون علاجها وتعفنت يده وأرادوا قطعها حفظاً لسلامته فرفض. فأوعزوا لأحد المغنين الذي قدم بفرقته وأنشد يمدح هذا الأمير في قصيد طويل مشهور يقول في مطلعه:

قَـوَّات اريـامـوا كـامـلات   فـي الضيـق منيـن ايفـاتـن
صبحوا عندو متراجمات   اليـــوم التيـــديـنـــاتـــن

ومعناها الرجل الذي يشبع الجوعانين في سنوات الضيق والقحط والحرب أصبح اليوم عنده المداحون يمتدحونه ويسألون العطاء.

ولما سأل الأمير الشاعر ماذا يريد أن يعطيه؟

أجاب الشاعر: أريد يدك المريضة.

وهنا قدَّم الأمير يده للقطع بالطريقة البدائية وبدون أي مخدر وناولها للشاعر الذي أخذها ودفنها بعيداً[1].

5 ـ العبيد والموالي:

(إيكلان ـ إيدرفان ـ ابروكن).

هذه الطبقة أغلبها من السود الذين كانوا يستخدمون لدى القبائل القوية. وقد امتزجوا بالمجتمع التارقي وأصبح كل شخص ينتمي إلى قبيلة سيده. وعلى مدى الزمن تحرروا وأصبحوا جزءاً من قبائل التوارق التي صاروا ينسبون إليها.

وقد جاءوا في البداية كرقيق من أفريقيا عن طريق الشراء أو الخطف أو الإغارة. ولكن آخرين منهم قدَّموا أنفسهم كعبيد بطوع أنفسهم لينقذهم أسيادهم الجدد من الجوع في سنوات القحط والمجاعة. وليس شرطاً أن يكون هؤلاء سود البشرة بل قد يكونون

(1) هذه القصة سمعتها في ليلة سمر في موريتانيا من المطرب محمد ولد النانا 1973. وهو من المطربين في الصحراء (تقيّوْ).

بيض البشرة، جاءوا في البداية إلى مجتمع التوارق كأسرى حرب من قبائل أخرى وبعضهم من قبائل التوارق أنفسهم.

ويشتغل هؤلاء العبيد والموالي بالرعي لأسيادهم وخاصة رعي الإبل وهم مقتنعون بذلك. وقد حاورت أحدهم ذات مرة عندما وجدته يرعى الإبل في الصحراء عام 1973 وطلبت منه أن يرافقني إلى ليبيا ليشتغل هناك حراً بعيداً عن العبودية. فأجابني ولمن أترك إبل سيدي؟ أجبته اتركها له يرعاها. فضحك مني وهو يقول سيدي لا يرعى الإبل. وتركني والتحق بإبله التي ابتعدت عنا.

كما يقوم هؤلاء بالزراعة وأعمال المنازل كخدم منازل وجلب المياه من الآبار والحطب لإشعال نار الموقد في الخيمة وليس لهؤلاء الناس قبيلة مخصوصة وإنما هم متوزعون في كل القبائل.

أما الموالي: فهم أبناء العتقاء الذين كانوا في البداية عبيداً وتحرروا منذ عهود الإسلام الأولى. وأصبحوا يزاولون أعمالهم الخاصة ضمن قبائلهم المتواجدين فيها.

وتسمى هذه المجموعة في موريتانيا (الحراطين) وقد يتزوج السيد من أمة فينتج ابناً هجيناً يصبح حراً بحكم مولده. وهكذا يتكاثر السود في القبائل الصحراوية والتارقية من أبناء الإماء وخاصة في سلطنات (تمزقدا) و(كيل اقرس) و(آيير).



الباب الرابع

الحياة الاقتصادية عند التوارق وسيطرتهم على طرق القوافل

الحياة الاقتصادية عند التوارق

يشتغل التوارق بتربية الحيوانات وخاصة الإبل والماعز وأنواع من الضأن تخص المنطقة تدعى (تيهري) ليست لها أصواف ولها ذيل طويل وأجسامها مغطاة بشعر قصير كشعر البقر كما يربّي توارق الجنوب المتواجدون في منطقة السافانا ـ حيث المياه وفيرة ـ البقر.

ويتَّخذ التوارق من ألبان الإبل والبقر طعامهم الرئيسي وكذلك من لحومها. كما تدهن نساء التوارق شعورهن وأجسامهن بالسمن.

ويقوم العبيد والموالي برعي هذه المواشي وتفقدها وسقيها والسهر عليها.

وينتقل التوارق من مناطقهم نحو المناطق الممطرة تبعاً لرعي مواشيهم.

وكذلك يرحلون في الخريف نحو المياه المالحة لسقي الإبل التي تحتاج للملح في فترة من السنة وإلا نفقت.

ويحتقر التوارق الزراعة ولا يحسنونها أصلاً. ويعتبرونها من عمل العبيد والطبقات السفلى. ولو أن بعض السلطنات في الجنوب المتواجدة على نهر النيجر مثل سلطنة (كل اقرس) تقوم بزراعة الذرة والدخن وبعض الخضر ولكن بكميات صغيرة. ويشتغل التوارق بالصيد

وخاصة الغزلان والوعول والنعام والزراف. وقد شاهدتهم في أسواق النيجر ومالي يبيعون اللحم المقدد. والجلود. ودهن النعام الذي يوصف للعلاج (الزهم) وكذلك بيض النعام وريشه. كما أنهم يقدمون إلى غات وإلى مرزق بقوافلهم المحمَّلة بهذه الأشياء ويشترون بدلها التمر والشاي والسكر وبعض المقتنيات الغالية والقماش. وعندما كنت في درج وغدامس عام 1959 ـ 1962 شاهدت بعضهم يجلب الحطب من الصحراء في قوافل من الإبل ويبيعه في الأسواق ليتَّخذه الناس لطهي طعامهم قبل اكتشاف النفط والغاز.

ويعتمد التوارق في غذائهم على التمر واللبن واللحم ويصنعون من التمر بعد أن يدقوه في الهاون (تابكة).

كما يتغذون في سنوات الأمطار ببعض الحبوب البرية التي تنمو في الصحراء وكذلك الكمأة التي يجمعونها ويشرحونها ويجففونها ويبيعونها في الأسواق. وقد لاحظت ذلك في أسواق غدامس وغات.

كما أن التوارق يعتمدون في اقتصادهم ومعيشتهم على الغارات القبلية حيث يخطفون مواشي القبائل المجاورة وأحياناً حتى أفراد القبيلة حيث يستعبدونهم ويستغلونهم أبشع استغلال.

ويقومون في سنوات الجفاف بغـزوات للمدن المجاورة لنهبها كما فعلوا. (لتينبكتو)[1]. بعد غزو المغاربة لها في القرن الثامن عشر بعد ضعفها.

---

(1) تينبكتو/ مدينة في شمال مالي أسسها التوارق ومعناها عندهم (تين) أي مكان أو موضع و(بكتو) اسم امرأة قالوا إنها خادمة كانت غفيرة لبعض أشياء التوارق في ذلك الموقع.

«ولما كان التوارق يحتلون الصحراء المحيطة بالمدينة من ناحيتي الشمال والجنوب فقد ظلَّ الخطر يخيم على تينبكتو وظلَّت الغارات تداهمها دون توقع وعلى حين غرة»[1].

كما أن موقع التوارق في وسط الصحراء الكبرى جعلهم حلقة وصل بين الشمال الأفريقي: المغرب. الجزائر. تونس. ليبيا. وبين قبائل الهوسا في ممالك كانم. وقرو. (نيجيريا الحالية) وكذلك سكان بحيرة تشاد. ووسط أفريقيا وحتى بلاد غانا فهم تجار قوافل. ينقلون إلى الجنوب الملح الذي يحضرونه من (بلما) ومن (تاودني) وهو من السلع النادرة قديماً بحيث كان العبد يشتري بموقع قدمه ملحاً. أو أن الملح يباع بوزنه ذهباً[2]. كما ينقلون القماش والأغطية والفرش المصنوعة من الصوف القادمة من الشمال.

ويحملون من الجنوب الذرة والدخن والأرز إلى منتجعاتهم، ثم يسيرون في قوافل إلى الشمال تحمل ريش النعام والجلود والسيوف والدرق. والإبل. حيث يبيعونها في أسواق غات. ومرزق وتوات. ويعودون ومعهم مصنوعات الشمال. ولما كانت طرق القوافل من الشمال إلى الجنوب وبالعكس مزدهرة قبل الاحتلال الفرنسي للمنطقة، سيطر التوارق على طرق هذه القوافل وكانوا يأخذون الأتاوات عنها وكذلك أجرة الخبرة لقيادتها وحمايتها وإلاَّ فإن هذه القوافل تتعرض للنهب من قبلهم.

---

(1) رحلتان عبر ليبيا/ رسائل ألكسندر جوردون لينج 1824 ـ 1826.

(2) لابوري/ مؤلف هندي بالفرنسية عن احتلال مولاي الذهبي لتينبكتو/ مترجم. خي بابا شياخ/ ازراد. مخطوط مكتبة المؤلف. ص 7.

وقد تسير القوافل في حماية قبيلة معينة فتهاجمها قبيلة معادية وتستولي على القافلة.

وكانت الطرق الشهيرة نحو الجنوب عبر الصحراء:

1 ـ المغرب عن طريق تيفلالت تيندوف تينبكتو.

2 ـ الجزائر عن طريق عين صالح. توات. تمنغست. زندر. اغادس. كانو.

3 ـ الجزائر عن طريق تمنغست. عين قال. تيساوا. كانو.

4 ـ ليبيا عن طريق طرابلس. غدامس. غات. أقدز.

5 ـ ليبيا طرابلس. غدامس. غات. تانوت.

6 ـ ليبيا طرابلس. مرزق. أقدز.

7 ـ ليبيا طرابلس. مرزق. وداي. كانم.

8 ـ ليبيا بنغازي. القفرة. وداي. كانم.

9 ـ ليبيا بنغازي. القفرة. مرزق. أقدز.

10 ـ مصر عن طريق الواحات. القفرة. مرزق إما إلى وداي أو إلى كانم.

ويسيطر التوارق تقريباً على جميع هذه الطرق ويستفيدون منها إما خبراء وإما حماة لها وإما ينهبونها.

وكان القماش المتنوع الأشكال والبسط والمنسوجات الليبية والمصرية وخاصة القماش الأزرق ذا الصبغ الكحلي الذي يعلق بالجسم هو أفضل ما يقتنيه التوارق ومن أغلى ملابسهم ويتخذون منه القمصان الواسعة والعمائم. ويسمونه (طاري) ولا يمكن أن يتم مهر العروس بدونه ـ يأتيهم من مصر عبر ليبيا.

ولسيطرة التوارق على طرق القوافل وقفوا حائلاً ولسنين طويلة ضد الرحلات الأوروبية الاستكشافية للمنطقة والتي مهدت لسيطرة الاستعمار الحديث متخذاً الطرق نفسها التي سارت فيها بعثاته.

لباس التوارق

يستمر أطفال التوارق في أغلب الأحيان بدون لباس حتى سن السابعة أو الثامنة وحينها يلبسونهم قميصاً واسعاً ومشقوقاً من الجانبين أو هو بالأحرى قطعة قماش مربوطة من الجانبين ومشقوقة في الوسط حيث يدخل الولد رأسه. ويخرج يديه من جانبيها الواسعين جدًّا.

ويترك الولد رأسه عارياً يزينه سطر من الشعر في مقدمة رأسه إلى مؤخرته ويحلق الباقي.

وبعض القبائل تترك للولد قطعاً من الشعر في المقدمة والوسط والمؤخرة وفي الجانبين على شكل قرنين ويحلق الباقي.

أما البنت فتترك عارية في السنوات الأولى ويسترون عورتها بقطعة جلد. هذا في الماضي، حتى تصل سن السابعة حيث يلبسونها الملحفة التي تلبسها نساء التوارق.

وتترك المرأة التارقية وجهها عارياً بعد أن تلبس مجموعة من القمصان الواسعة والتي تنجر على الأرض خلفها عندما تسير مثيرة الغبار وراءها. وتربط رأسها بخرقة بعد أن تضفّر شعرها بطريقة مربعات جميلة وضفائر صغيرة تتجمع في ضفيرة كبيرة من كل جانب تلوى للخلف وتوضع في لفافة من القماش.

أما الشاب فإنه عندما يصل إلى سن البلوغ يلبسونه العمامة في حفل بهيج ويتلثم حيث يستر وجهه كما يفعل الرجال الكبار ويحلقون له مقدمة رأسه ويترك وسط رأسه بدون حلاقة حيث يطول شعره ويباهي به وأحياناً يخرج من أطواق العمامة. وقد شاهدت مثل هذه الحلاقة في قبائل العرب بمنطقة (أبو ظبي) بالخليج العربي.

ويعتبر التوارق كشف الفم عيباً.

ويلبس الرجل قميصاً واسعاً (دراعة) وأحياناً في الاحتفالات يلبس أكثر من قميص يكون أحدها أزرق مغمساً بالنيلة التي تترك آثارها على جسم التارقي ووجهه ويديه. كما يلبس عمامتين إحداهما زرقاء نيلية.

وسكان الصحراء عموماً يلبسون هذا اللباس الذي تلتصق أصباغه بالجسم. ويقولون إنه يمنع البرد والحر كما يحفظ الجسم من تشققات البرد والحر.

ويلبس التارقي سروالاً واسعاً يتدلى حجره إلى كعبيه. ويلبس مداساً مصنوعاً من جلد البعير ويسمونه (ريحيّة). وقد يتمنطق بسيفه ويجر رمحه في يده. كذلك السيف يكون طويل النجاد بحيث ينجر على الأرض وقد يزين زنده بسوار من العاج أو المعدن حاد الطرف الخارجي يستخدمه في الضغط على رقبة الخصم عند النزاع والتماسك بالأيدي[1].

---

(1) مشاهداتي الخاصة. وانظر فريدريك هورغان/ رحلتان عبر ليبيا/ مكتبة الفرجاني. ص 154 ـ 155.

كما يزين التارقي ذراعه بسكين في غمد له حلقة يدخل فيها يده. ويمسك بترس مصنوع من جلد جاموس الماء كما يزين التارقي صدره بمجموعة من الأحجبة والتعاويذ الجلدية والمعدنية مربوطة في سير من الجلد معلق في رقبته مهمتها حفظه من العين والحسد. وللهيبة والقبول. وبعضها ضد الرصاص وللنصر على الأعداء. كما يزين عمامته هي الأخرى بتعويذة أو اثنتين يحرص على أن تظهر في واجهة رأسه عندما يتعمم. وقد يزين أيضاً رقبة جمله بتعويذة (حجاب) لتحميه من العثار وتساعده على الجري السريع!!

وإذا سار التارقي بين الخيام أو في موقع يراه الناس فهو يسير وئيداً. بارز الصدر مرفوع الرأس حتى يستطيع أن يرى الطريق من فجوة اللثام التي يتعمد تضييقها في هذه الحالة منتعلاً بمداسه يمشي بخطوات واسعة وبطيئة مبعداً بين رجليه حتى لا يجرح المداس الكبير رجله الأخرى عند تنقل خطواته وكثيراً ما يتمزق السروال من تحت من جراء حافات المداس الحادة.

أما إذا سار وحده فإنه يسرع في المشي رابطاً وسطه بحزام من الجلد. يقفز فوق جمله كالقط. حافي القدمين يعقدهما على رقبة الجمل ليجعل منهما مهمازاً لجمله. ماسكاً بيده خطام جمله المثبت بحلقة من المعدن في أنف البعير ليسهل قياده. وقد علق على جوانب الراحلة (تيركت) غرائر من الجلد من صنع الحدادين يضع فيها كل ما يلزمه في رحلته من زاد وماء.

وعلى مقدمة الراحلة جهة اليمين تعلق قصعة صغيرة من النحاس

تسمى (أمّناس) يسقي فيها التارقي جمله ويشرب هو فيها ويتناول فيها طعامه وإذا جاع فصد جمله وأخرج دمه في تلك القصعة ووضعه على النار وطبخه وأكله.

وفي الأفراح عند التوارق حيث يسابق التارقي بجمله فإنه لا يضع على جمله أحمالاً زائدة. وإنما يضعون الراحلة فقط وهي عبارة عن سرج من الخشب من صنع الحدادين ملبّس بالجلد ومزخرف. ومقدمتها على شكل رجل دجاجة ويسمونها الدجاجة. وقد كتب بعض الفرنسيين مبيناً أن الراحلة بمقدمتها المثلثة هي بقايا النصرانية عند التوارق لأنها تشبه الصليب. كما قالوا إن ذلك هو حرف التاء (+) عند التوارق!

وإذا جاز هذا، فإن الدجاج كان مسيحياً لأن رجله مثلثة وكذلك الغراب وبقية الطيور!

إن مقدمة الراحلة لا علاقة لها بالمسيحية وإلا لجاز أن التوارق جعلوا مقدمة الراحلة هلالاً بعد الإسلام!

والتوارق من أبرز العرب في ركوب الإبل والتسابق بها.

ويقول عبد القادر جامي:

«إن هؤلاء ذئاب الصحراء المتصفون بما يحير العقول من الصبر والتجلد. يشربون دم الإبل التي يركبونها في أثناء السفر الطويل والغزوات. ومنهم من يقطع من شحم الذروة جزءاً يقتات به ليتمكن من مواصلة السير والبقاء على قيد الحياة»[1].

(1) عبد القادر جامي/ من طرابلس إلى الصحراء الكبرى/ ترجمة محمد الأسطى. ص 174.

مساكن التوارق وطعامهم

يسكن التوارق خياماً مصنوعة من الجلد أو الحصير أو القش وبعضهم يسكن الكهوف.

ويقول عبد القادر جامي:

«عندما بحث المؤرخ الشهير هيرودوت عن الليبيين قال: «قبائل رُحل مساكنهم أكواخ من الحصر والبردى المضفور ينقلونها متى شاءوا إلى أين شاءوا غذاؤهم لبن الضأن ولحمه».

إن تعريف هيرودوت بمعيشة ومساكن الليبيين ما زال قائماً عند أحفادهم التوارق»[1].

والتوارق يأكلون ما يجدونه وغذاؤهم غير معقد وهم صبورون على الجوع والعطش. غذاؤهم الأساسي اللحم واللبن ومتى وجدوا هاتين المادتين لا يطلبون سواهما. ويأكلون الذرة والدخن. وفي الشمال يأكلون القمح والشعير في مناطق آزقر. وآيير. والهقار. ويطحنون برحا بدائية من صنعهم، وهي عبارة عن حجرين توضع بينهما الحبوب وتدعك الخادمة الحجر الأعلى على الأسفل يسمونها (ويكة) وبعضهم تطبع بعادات التبو فيطبخون بذور الحنظل ثم يدقونها بعد

(1) عبد القادر جامي/ المصدر السابق. ص 173.

تحميصها ويأكلونها وحدها أو يخلطونها مع التمر. ولقد أكلتها مرة عندهم وكان طعمها مقبولاً وخالياً من المرارة.

والتوارق حريصون على تناول طعامهم بالملاعق. وكل تارقي يضع دائماً ضمن زاده الملعقة لتناول الطعام. وإذا فقدها عمد إلى شجرة واقتطع منها عوداً وشكله على شكل ملعقة ويتناول به طعامه»[1].

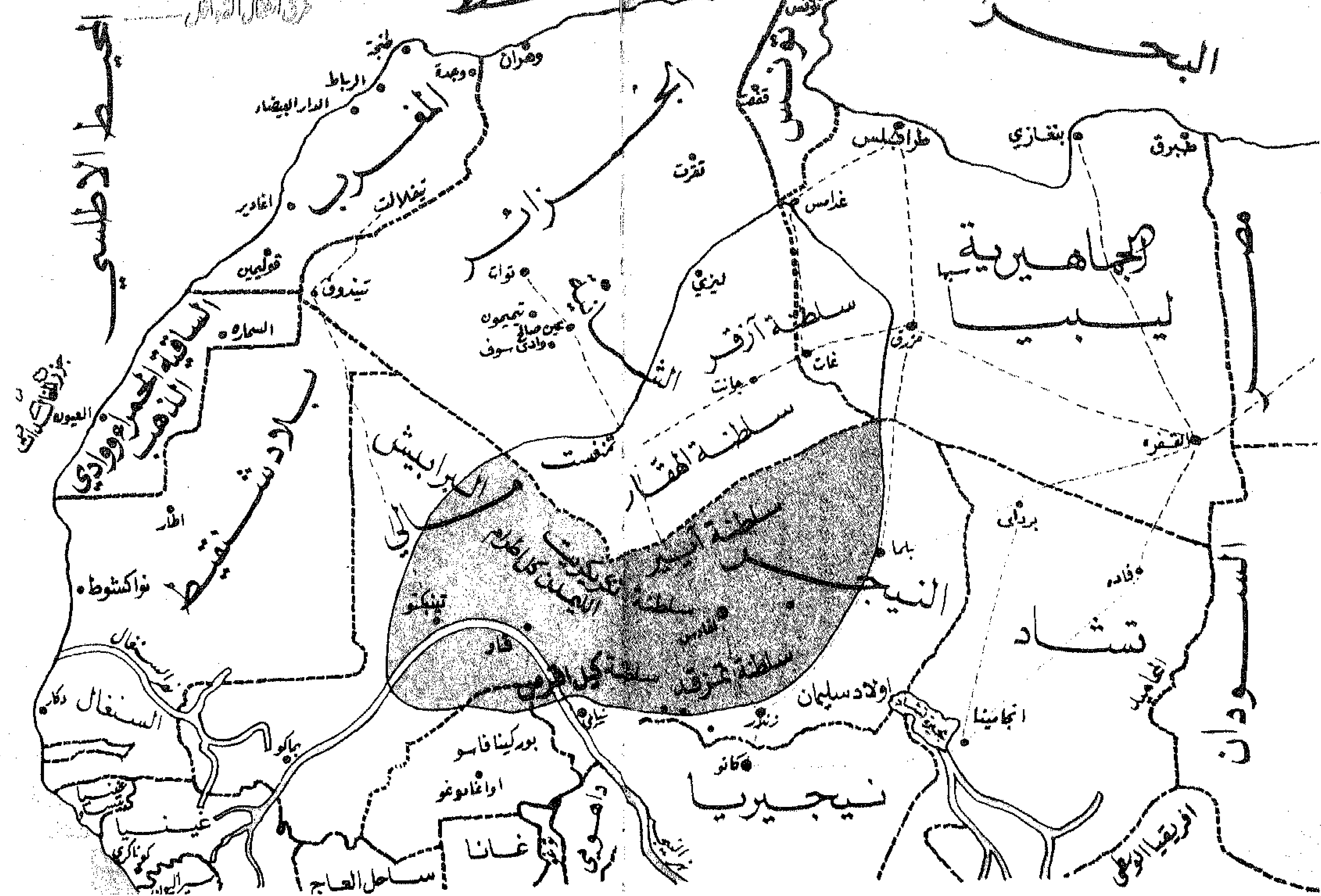
وإذا وجد التارقي الطعام، فإنه يأكل بشراهة وبكثرة وإذا فقده، فإنه يصبر على الجوع دون أن يتبرم.

واللحم المشوي شيء أساسي لدى التوارق فهم يشعلون النار ويضعون اللحم في الرمل الحامي حتى يصير أقرب للنضج فيخرجونه ويأكلونه. وأكلت معهم عدة مرات هذا الشواء وكان أحياناً شبه نيء.

ويعمدون إلى معدة الحيوان ويفتحونها فتحة صغيرة ويخرجون محتوياتها ويغسلونها ثم يضعون بداخلها قطع اللحم والكبد والكلى والقلب والرئة ويضعون معها الملح. ثم يشعلون النار ويضعون فيها الحجارة الصوانية الصغيرة ويتركونها حتى تحمر من النار. ثم يخطفونها بأيديهم ويضعونها الواحدة تلو الأخرى في داخل معدة الحيوان المعدة للنضج. ويمسكون فمها باليد الأخرى ويحركونها بشدة وكلما انتفخت وقاربت الانفجار يفتحون لها قليلاً فيخرج البخار وهكذا إلى أن تبرد الحجارة ويكون اللحم قد نضج. وهنا يفتحون المعدة. ويخرجون الحجارة حيث يرمونها بعيداً ويتحلقون حول الشواء يأكلونه بنهم وقد

---

(1) عبد القادر جامي/ المصدر السابق. ص 174.



خارطة تبين طرق القوافل
البحر الابيض المتوسط
المحيط الاطلسي
المغرب
الجزائر
تونس
الجماهيرية ليبيا
مصر
السودان
تشاد
النيجر
نيجيريا
مالي
بلاد شنقيط
الساقية الحمراء ووادي الذهب
السنغال
غينيا
غانا
ساحل العاج
بوركينا فاسو
افريقيا الوسطى
البرابيش
سلطنة آزقر
سلطنة الهقار
سلطنة آيير
سلطنة تمزقد
طنجة
الرباط
الدار البيضاء
وجدة
وهران
اغادير
تفيلالت
تيندوف
السمارة
العيون
نواكشوط
اطار
داكار
باماكو
تنبكتو
قاو
تمنغست
توات
تيميمون
عين صالح
وادي سوف
تقرت
غدامس
قفصة
طرابلس
بنغازي
طبرق
مرزق
غات
جانت
سبها
ليزي
الكفرة
بردي
فادة
بلما
انجامينا
كانو
زندر
اولاد سليمان
اواغادوغو

أكلته معهم مرة ولم أستسغه لأن طعم الفرث لا زال عالقاً به. وربما مرد ذلك لعدم غسلهم المعدة جيداً.

والتوارق لا يأكلون الدجاج ولا بيضه. فلقد قدم البيض لأحد التوارق في غات فرفضه، ولما سألوه لماذا لا تأكل البيض؟ أجاب: (إنني أعرف أمه أين ترعى»[1].

كما يأنف التوارق وكل عرب الصحراء الكبرى من أكل خشاش الأرض والطيور التي عادة تكون وسخة مثل الدجاج.

ولكن عبد القادر جامي يقدم لذلك سبباً غير هذا فيقول في الهامش:

«بمقتضى المذهب الخارجي الذي اعتنقته قبيلة (برغواطة) الكبيرة فإن أوقات الصلاة تعين بصياح الديوك لذلك حرم عندهم أكله. وحيث إن هذه القبيلة انقرضت نتيجة مهاجمتها من طرف دولة المرابطين التي أسسها الصنهاجيون أجداد التوارق فمن المحتمل أن هذا الاعتقاد انتقل إليهم حيث إن تسرب عادات واعتقادات الشعوب المغلوبة إلى الأقوام المحتلة الغالبة حقيقة تاريخية متكررة..»[2].

غير أنني لا أتفق مع عبد القادر جامي في هذا الاستنتاج فالتوارق جميعهم سنيون مالكيون ولم يعتنقوا المذهب الخارجي الذي سرى في شمال أفريقيا سواء الصفري أو الأباضي ولو أننا نجد رائحة الشيعة في بعض تصرفاتهم فمرد ذلك إلى الحكم الفاطمي الذي حكم شمال

(1) نادرة سمعتها تروي في غدامس عن التوارق.

(2) عبد القادر جامي/ المصدر السابق. ص 171.

أفريقيا في فترة من الزمن وما زالت بعض العادات الشيعية تلاحظ في احتفالات عاشوراء والمولد النبوي عند كل سكان شمال أفريقيا والتوارق من بينهم.

ونرجع إلى الحديث عن طعام التوارق في صحرائهم فهم يجففون الكمأة التي يجمعونها في فصل الربيع ويأدمون بها طعامهم.

ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف:

«وتوجد حبوب برية تنبت مع الحشائش إذا نزلت الأمطار بغزارة مثل الأرز والشعير (اشغور) و(إيشيبان) وهي حبوب تشبه الأرز في الأصل إلا أنها صغيرة جدًّا وغالباً ما يعيش عليها السكان في فصل الخريف الذي تكثر فيه الحبوب والبقول البرية...»[1].

كما ينضجون خبزهم على الجمر ويسمى (تاجللّة) ولصنعها طريقتان: إحداهما يكون العجين متماسكاً كما يعجن عند كل الناس ويسطح ويشكل على شكل دائري ويوضع على الجمر ثم يغطى بالرمل المحمّى بالنار ويترك حتى ينضج. وأحياناً تشعل النار فوقه وهو تحت الرمل حتى ينضج.

والطريقة الثانية توضع حجر مسطح في النار ويترك حتى يحمر والنار تشتعل فوقه ومن حوله. وبعد أن يحمى يمسح أعلاه من الجمر بأغصان الشجر ويعمدون إلى الدقيق المذاب في الماء على شكل سائل كالحساء ويسكبونه فوق الحجر المحمّى ويترك قليلاً فيصير خبزاً ناضجاً.

---

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر نفسه. ص 58.

ويدخل التوارق اللبن في عدة أنواع من طعامهم. يطهونه مع الدقيق فيصير حساء ويأكلونه. أو يشربونه مع التمر أو يأدمون به الأرز أو كسكسي القمح أو كسكسي الشعير (الملثوث).

كما يستخدم التوارق التبغ (المضغة) بكثرة ويخزنونها في أكياس صغيرة مصنوعة من الجلد ويضعونها في جيوبهم حيث يتناولونها بين الحين والآخر بتخزينها في الفم كطريقة اليمنيين في تخزين القات.

أثاث التوارق

يتكوّن أثاث بيت التارقي من قطع قليلة حتى يسهل حملها عند الرحيل فتجد في خيمته المصنوعة غالباً من الجلد والمرفوعة على بعض الأعمدة تجد بها فراشاً من الصوف عادة ما يكون مستورداً من ليبيا (الكليم المصراتي) أو من الجزائر (الزربيّة) أو من المغرب وذلك لفرشه للضيوف. وكذلك حقيبة أو حقيبتين من الجلد تضع فيها المرأة التارقية الدقيق في مزاود من الجلد ولوازم الأكل في جلود أخرى أصغر منها.

وكذلك بعض القدور والتي يكون بعضها مصنوعاً من الطين. وهاوناً خشبياً أو من نحاس. وكوباً من نحاس لشرب الماء وعدداً من الملاعق بعدد أفراد الأسرة تكون مصنوعة من الخشب وعدداً من القرب لجلب الماء وقطعة حديد دائرية الشكل لإعداد الخبز وملعقة كبيرة لسحب المرق من القدور ورحا مصنوعة محلياً من الحجر وبعض الأكياس للحبوب.

والتوارق في الماضي لا يأكلون الفلفل والطماطم والبهارات في طعامهم ولكنهم يكتفون في طبخهم بالماء والملح فقط وأحياناً باللبن.

كما يحتفظ التارقي في خيمته براحلة لجمله ويزينها عند الأفراح

من سيور الجلد المضفورة. وكذلك عند الميسورين والطبقات العليا (النبلاء) هودج للمرأة عند الرحيل.

وإذا كان التارقي ممن يملكون الخيل وهذا نادر ـ لأن الخيل ـ تحتاج للماء دائماً والصحراء قليلة الماء، فإنه يملك ضمن أثاثه سرج جواده. ويكون هذا السرج مُشترى من أسواق الشمال (ليبيا أو الجزائر أو المغرب).

والتوارق لا يسكنون في نجوع مجتمعة كإخوتهم العرب. وإنما يسكنون منفردين في الأودية والجبال والصحارى إلا إذا شعروا بالخطر فإنهم يجتمعون[1].

كما يحتفظ التارقي بأثاثه الزائد ومؤونته الزائدة على حاجته في كهوف الجبال بعيداً عن أعين الفضوليين.

ويقول عبد القادر جامي:

«إنها عادة قديمة عند بربر الشمال الأفريقي عموماً يدل على ذلك المغارات لحفظ المؤن في رؤوس الجبال وحافات الكهوف التي يتخذونها كمخازن»[2].

(1) عبد القادر جامي/ المصدر السابق. ص 176.
(2) عبد القادر جامي/ المصدر السابق. ص 177.



الباب الخامس

عادات التوارق و تقاليدهم

عادات التوارق وتقاليدهم

لا يختلف التوارق كثيراً في عاداتهم وتقاليدهم عن كل سكان الصحراء الكبرى وكذلك الشمال الأفريقي الذي يتشابه إلى حد كبير في عاداته وتقاليده مع سكان الجزيرة العربية. غير أن هذا لا يمنع من وجود فروق بين المنتجعات والقبائل في عاداتها وتقاليدها ولو كانت طفيفة.

ويعتبر مجتمع التوارق من المجتمعات المتفتحة في الإسلام والخالي إلى حد بعيد من العقد والتعقيد. فالشباب والشابات يلتقون في الأفراح وغيرها دون أن تغطي المرأة التارقية وجهها بل على العكس، فالرجل التارقي في مثل هذه اللقاءات هو الذي يغطي وجهه ويحرص على تضييق لثامه حتى لا يظهر منه غير العينين في اللقاءات التي تتواجد فيها المرأة وتقول الرواية التي تشبه الأسطورة إن سبب ذلك أن التوارق هاجمهم العدو في أحد مخيماتهم ذات مرة وانهزم الرجال ولكن النساء لبسن العمائم وملابس الرجال وضيقن اللثام وامتطين ظهور المهاري وطاردن العدوّ الذي هاله كثرتهن فترك لهن الأموال وفرّ هارباً. ومنذ ذلك التاريخ بدأ الرجال يتلثمون لتغطية وجوههم من عار الهزيمة. والنساء يكشفن عن وجوههن اعتزازاً بالنصر الذي حقّقنه[1].

(1) سمعت هذه القصة من شيخ تارقي من قبيلة منغساتن.

غير أنني أرى أن اللثام عادة عربية قديمة كان الحميريون يتلثمون وقد استشهد الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة عندما جلس متلثماً ثم قام للخطبة ببيت لابن سحيم وهو شاعر عربي قديم:

أنــا ابــن جــلا وطــلاع الثنــايــا   متى أضـع العمامـة تـعرفـوني

وهو هنا يقصد اللثام ولكنه لم يستقم الوزن بذكره فكنى عنه بالعمامة وقد حسر الحجاج عن وجهه.

ويقول ابن عذارى:

«وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ولذلك سموهم بالملثمين وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف وسبب ذلك على ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد وتفعله الخواص منهم فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم»[1].

السمَر

يلتقي التوارق شباباً وشابات خارج الخيمة في عراء الصحراء حيث يوقدون ناراً ويستمعون إلى الغناء والعزف على آلة الطرب (الأمزاد) ولا يتحرجون من أن يجلس كل شاب إلى جانب عشيقته يحادثها ويسمر معها في عفة دونما شيء يجرح الطهر أو الحياء ويسمون ذلك (تهالة).

ومن غريب صنعهم في هذا التجمع أن الشاب عندما يجلس إلى صاحبته لا يمكن أن يقوم عنها أو يتحرك أو يقوم لشيء ـ حتى لقضاء

(1) ابن عذاري/ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ الجزء الرابع، ص 128. دار الثقافة ـ بيروت.

الحاجة ـ وذلك إلى الفجر حين ينفرط الجمع ويذهب كل شخص لشأنه.

ولو قدر وأن قام من مجلسه ثم عاد فإنه يسقط من عين صاحبته ويعتبر في نظرها كاذباً في حبه لأن هناك حاجة أخرى تشغله عنها ويمكن أن تجعله يقوم عنها.

وقد تختبر الفتاة حبيبها وكذلك هو الآخر يختبرها.

ولقد سمعت قصة من شاب من إفوغاش (كيدال) قال:

«جاء أحد الشباب لصاحبته ليلاً ليجلس معها ويحادثها ويسمر معها ووجدها متكئة على فراشها فجلس بجانبها وغرس رمحه في الأرض وبقي يحادثها حتى الفجر.. وعند الفجر سحب رمحه وسار في طريقه ولقد تبين أن الرمح عندما غرسه كان مغروساً في ذراعها طيلة الجلسة فلم تتأوه ولم تتحرك!

وعندما عاد لها في الليلة القادمة وجدها قد فرشت له الفراش على كانون من الجمر. فجلس ولم يتحرك إلى الفجر متحملاً حر النار في صبر».

كما تختبر الفتيات الشباب في شجاعتهم بأن يطلبن منهم إخراج «صخان» الشاي من النار دون أن يناولنهم شيئاً يمسكون به فيخرجونه من النار وقد تحترق أياديهم ولكن دون أن يبينوا ذلك أو يتأوهوا أو يظهروا أنهم تأثروا من ذلك.

وعندما يتأكد الشاب من حب صاحبته له ويتفقان على الزواج تقوم المراسم التالية:

الزواج: عندما يعجب الشاب بالشابة ـ شريطة أن يكونا من طبقة واحدة إذ نادراً ما يتم الزواج من طبقة كطبقة النبلاء مثلاً، وطبقة الإيمغاد، أو العبيد ـ يرحل الشاب مع مجموعة من أصدقائه وأقربائه الرجال وينزلون بالقرب من خيمة والد العروس ويرسل الشاب شخصين أو ثلاثة إلى والد العروس ووالدتها يخطبون له ابنتهما. وعندما تتم موافقة والد العروس على تزويج ابنته وكذلك والدتها يعينان المهر المطلوب. فترجع الجماعة للخيمة التي يقيم بها العريس وأصحابه ويعرضون عليه المهر. وإذا ما وافق عليه يكلف أحد الأشخاص ويكون ابن عمه أو أخاه أو ابن خاله ويفوضه بشهادة الجميع أنه وكيله لدى عقد الزواج من مخطوبته. حيث يذهب ذلك الوكيل إلى الخيام ـ خيام أهل العروس ـ فيقدم المهر إن كان موجوداً.

المهر: والمهر لدى قبائل النبلاء سبع نياق. أما لدى الموالي والعبيد فيكون اثنين من الماعز. كما يختلف ذلك بين السلطنات فبعضها أكثر وبعضها أقل. وأصبح أخيراً المهر اسمياً يُدفع مؤخراً وقد لا يُدفع وخاصة النياق السبع قد تدفع منها واحدة أو أكثر وتذكر في العقد على أساس أنها ستُدفع.

مراسم الزواج: لا يدخل الزوج على زوجته إلا بعد إتمام المهر وتسليمه كاملاً لأسرة العروس. وإلى جانب المهر فإن أم العروس تشترط (تاغتست) أو هديتها الخاصة وعادة ما تكون ثوراً أو جملاً. وتكون طريقة تقديم (تاغتست) أن تجتمع النسوة في المخيم لتهنئة أم العروس بخطبة ابنتها ويتحلقن حول (تيندي) وهو جلد مربوط على

هاون يشبه (الدربوكة) عند أهل شمال أفريقيا. ويضربن هذه الآلة تعبيراً عن الفرح ويطالبن بهديتهن (تاغتست) وهنا يتقدم أصحاب العريس على جمالهم يقودون أمامهم الثور أو الجمل المقدم هدية. وعند وصولهم إلى جمع النسوة حيث يتحلقن حول (تيندي) يقطعون بالسيف عرقوبه فيسقط على الأرض وينحرونه ويتركونه للنساء في الحفل.

ولتقسيم هذه الهدية قواعد متعارف عليها:

إذ يتحلق الناس حول الجمل أو الثور بعد نحره ويقطعون لحمه. وكل من قطع شيئاً فهو له. باستثناء الظهر فهو مخصص للحدادين ولا يتعدى عليه أحد.

ويستمر هذا الحفل ثلاثة أيام يكون فيها العريس وأصحابه في ضيافة أصهاره. وبعدها يذهب العريس لاستحضار المهر كما يجب عليه أيضاً أن يحضر معه (تيوسِّي) و(التيوسِّي) هذا عبارة عن:

- كمية من الشاي والسكر.
- كمية من العطور (أضوتن).
- كمية من التبغ.
- ملحفة لأم العروس (تسيغناس).
- عدة أحذية متنوعة.

وعند حضور العريس بهذه الأشياء المصاحبة للمهر يستمر الحفل من جديد ويجتمع أهل الحي لأخذ نصيبهم من الهدية حيث تقوم أم العروس بتوزيعها على كل أهل الحي بالتساوي ويضرب على (تيندي) ثلاثة أيام بلياليها وفي بعض القبائل يومين فقط.

وفي هذا الحفل يحدد العريس الموعد الذي يختاره ويناسبه لأخذ عروسه.

عند تحديد موعد الزواج يعود الزوج (العريس) ومعه مجموعة من أصدقائه وأترابه يسميها التوارق (توكسيست) أي رفقاء العريس. وعادة ما يكونون من الشباب غير المتزوج. وتبدأ الاحتفالات بوضع آلة الضرب (تينِدّي) في ساحة واسعة خارج المخيم وتتحلق حوله النسوة يضربنه بإيقاعات رتيبة وهن يتغنين على إيقاعه بغناء يمجد المناسبة ويركب الرجال المهارى ويتسابقون بها. ويكون ذلك بعد الظهر ويستمرون إلى المغرب.

وفي المساء الذي تكون في ليلته الدخلة ـ وعادة يكون اليوم الثالث للاحتفالات ـ يجهزون جملاً لركوب العروس وتقوده النسوة بعيداً عن الخيام حيث تركب العروس وأختها إن كانت لها أخت أو خادمتها. ويواصلن الطريق نحو خيام العريس التي تكون في العادة ليست بالبعيدة حيث يركب الرجال جمالهم ويلحقون بالجمل الذي تركبه العروس لمرافقتها إلى خيمة العريس.

وتستقبلهم أم العريس بقرع الطبل (تيندي) وتقوم بمساعدة مواليها وجاراتها بنصب خيمة العروس الجديدة وتكون خارج الخيام وعادة تكون بعيدة عنها نسبياً نحو الشرق وبينها وبين مخيم الأهل أكمة لتسترها عن المخيم. ويستطيع الشباب اللعب بعيداً عن أعين الشيوخ الذين يجلّونهم ويقدّرونهم. وفي مخيمات عرب الصحراء تبنى خيمة العريس أمام الخيام باتجاه القبلة أما عند التوارق فليس من الضروري أن تكون أمام الخيام بل منحرفة ناحية الشرق.

وعند وصول العروس تقوم بتوزيع الهدايا التي جلبتها معها حيث تشرف أم العريس ونساء منتجعه على ذلك، وتأخذ أم العريس النصيب الأكبر من هذه الهدايا.

ومن الأشياء التي تجلبها العروس لبيت زوجها:

1 ـ عدد 1 جمل ركوب.

2 ـ عدد 1 خيمة (واهكيت).

3 ـ عدد 1 أسَبَرْ (نسيج لصد الرياح).

4 ـ عدد 1 تشايهات (غرائر من الجلد تضع فيها لوازمها).

5 ـ عدد 3 الطّعنا (قدح من الخشب).

6 ـ عدد 4 تيسايهات (مرآة).

7 ـ عدد 5 تمانكايين (عمود الخيمة).

8 ـ عدد 2 أسَوْسَوَنْ ولايها (نسيج تغطى به القصاع).

9 ـ عدد 1 تيِسْكِرْت (عمود برأسه فروع لوضع القصعة التي بها الحليب).

10 ـ عدد 1 تَزَوَتْ (قصعة للبن).

11 ـ عدد 1 أسيلكو (مغرفة).

12 ـ عدد 1 أسوسو (غطاء يوضع على القصعة).

13 ـ عدد 2 مخدات جلدية (أمغار).

14 ـ عدد 1 كسكاب للجمل (حلقة حديد توضع في أنف الجمل).

15 ـ عدد 1 تشّاوت (نسيج من الشعر يوضع حول رقبة الجمل للزينة).

كما تحضر العروس الملابس الخاصة بها ومنها:

1 ـ ابروغ الدوكالي (لحاف).

2 ـ وان قرقار (لباس للزينة).

3 ـ أللشُّو (غطاء الرأس).

4 ـ تتبانتبا (شال).

5 ـ تيزَبْوَتينْ (أخراص توضع في الأذن).

6 ـ آشيجان (أسورة).

7 ـ تكارضي نزرف (قلادة من الفضة).

8 ـ تاسغالت (قلادة من الخرز).

9 ـ تيليلت (خيوط مضفورة من الجلد سيور).

10 ـ أششلاج (وشاح من السيور الجلدية).

11 ـ تيضهوتين (الخواتم).

12 ـ خميسة (قلادة خماسية توضع في الرقبة).

والعريس أيضاً له جمل محمل بملابسه وخصوصياته وتحتوي لابسه على:

1 ـ تقمصت (قمصان).

2 ـ ترسْويِّين المحمودي والديني (قماش أبيض ومزركش).

3 ـ اللشّان (ملحفة).

4 ـ تمنتكا (حزام) (نطاق).

5 ـ أفكلان تنباتنبا (حذاء من جلد النيجر ومالي ومزركش).

6 ـ ابرنوس نلشو (برنس أسود).

7 ـ تكوبا (السيف).

8 ـ أبسر (خنجر).

9 ـ ألآغ (الرمح).

10 ـ إبرتك (السوط).

كما أن هناك أدوات خاصة بزينة الجمل وإظهاره بالمظهر الذي يليق بالمناسبة ومنها:

1 ـ تَرِكْ أعزاك (راحلة جيدة).

2 ـ أشايف (حزام الراحلة).

3 ـ تسستك (سجادة تفرش على الراحلة).

4 ـ أهلُّوم (حزام لربط الراحلة من الخلف).

5 ـ الجبيرة (غرارة من الجلد تعلق على الجمل).

6 ـ أباون (جلد يعلق على الجمل له قفل).

7 ـ أبروغ (سجادة توضع على الراحلة للزينة وتغطى بها).

8 ـ أزوا (ظرف يعلق على الجمل كالمزود).

9 ـ تغيرتْ دالسّاوي (صينية من النحاس).

10 ـ تاغنتْ (خزام في أنف الجمل).

11 ـ أكسكاب (حديد يوضع فوق أنف الجمل).

12 ـ أسِسّرْ (قلادة توضع في رقبة الجمل ـ سلسلة من حديد).

13 ـ أنَيْنا (أجراس توضع في رقبة الجمل).

14 ـ أشكوه (وهي الشكوة المعروفة في العربية الفصحى).

15 ـ أضبيا (وهي المزود).

16 ـ تشاوت (خيوط مضفورة من الشعر تربط في رقبة الجمل).

17 ـ تكوت.

18 ـ تِساتين (فراش يوضع تحت الراحلة لتقي الجمل).

وعند تجهيز خيمة العريس والعروس تبقى العروس في خيمة أم العريس ويدخل العريس إلى الخيمة مع أصدقائه. وتتقدم النساء ليلاً بالعروس، ويبقين خارج الخيمة ويذهب وكيل العريس لملاقاتهن ليفاوض وكيلة العروس ـ وعادة تكون خادمتها أو إحدى قريباتها ـ وتطلب النسوة مقداراً من الملابس والروائح والأشياء حتى يسلّمن للزوج زوجته. ويحاول وكيل العريس مفاوضتهنّ لتنقيص المبالغ المطلوبة. ويستمر التفاوض وأحياناً طوال الليل إلى أن يوافق الوكيل على تقديم ما يطلبنه، فيسلمن له العروس ويسلّم لهن الأشياء المطلوبة، ويتقدمن بها نحو الخيمة حيث يدخلنها على العريس الجالس في الخيمة وقد لبس كامل زينته: «قميصين من القماش الواسع أحدهما أبيض والآخر أزرق من النيلة، وعمامتين إحداهما بيضاء والأخرى زرقاء نيلية متداخلتين وسروالاً واسعاً ومداساً أيضاً واسعاً وقد عطّر ملابسه وضيق فتحة لثامه. وأحياناً يكون قد تمنطق بسيفه ووضع خنجره في ذراعه ولبس حُجُبه المتدلية من رقبته والمثبتة في مقدم عمامته».

وبعد أن تصل العروس يخرج أصحابه ويتركونه معها. أما في قبيلة منغساتن فلقد رأيتهم ليلة الدخلة بعد حفل السباق للمهارى في المساء تهرب العروس وتختفي عند إحدى صديقاتها ويبحث الجميع عنها إلى أن يجدوها فيأتوا بها لخيمة العريس بدون أي زينة وتتفاوض النسوة مع وكيل العريس على ما يقدمه لهن مقابل تسليمه العروس ثم بعد ذلك يستمر الحفل عادياً كبقية المناطق التارقية.

يدخل العريس على عروسه في الليلة الأولى بعد أن يُدخلوها عليه، وفي الصباح يجتمع أصدقاء العريس، ويقدم لهم شحم سنام الناقة التي نحروها ليلة الدخلة فإذا كانت العروس بكراً فلا يأكلون شحم السنام بل يجررونه بأشكال جميلة ويعطرونه ويصبغونه بالنيلة ويرجعونه للنساء اللواتي يعرفن أن العروس بكرٌ فترتفع الزغاريد.

أما إذا وُجدت العروس غير بكر، فإنهم يأكلون الشحم كما أن العريس في هذه الحالة لا ينحر الناقة التي تكون قد رُبطت منذ ليلة البارحة لنحرها صبيحة الدخلة فيطلق سراحها، ويعتبر أهل العروس وجود ابنتهم غير بكر عاراً لحق بهم.

وفي هذه الحالة، فإن قبائل العرب عادة ما يطلّقون المرأة ويرجعونها إلى أهلها ويكون أب العروس ملزماً بإرجاع المهر.

أما في التوارق فالطلاق غير وارد في مثل هذه الحالة ولكن المرأة تعتبر ناقصة وتلحقها المذلة.

هذه الطقوس عند طبقة النبلاء و(إنسلمن) أما إذا كان العريس والعروس من طبقة إيمغاد أو العبيد والموالي فإنهم يقدمون للعريس وأصدقائه صباح يوم الدخلة كمية من اللحم في قصعة ـ كفطور لهم ـ ويكون من لحم العنز التي ذبحت البارحة. كما يكون ضمن قصعة اللحم لحمة الكتف.

فإذا كانت العروس بكراً أرجعوا للنساء لحمة الكتف معطرة ومزينة بالنيلة دون أن يأكلوها. أما إذا اكتُشف أن العروس غير بكر (بدون بكارة) فإنهم يأكلون اللحمة ويثقبون عظمة الكتف ويعلقونها في

عمود الخيمة الأمامي[1]. ويستمر العرس سبعة أيام بلياليها يحيي سهراتها الفنانون من طبقة الحدادين بطربهم وغنائهم وتمثيلياتهم المضحكة. ويكون (للأمزاد) الباع الأكبر في إحياء مثل هذه السهرات. والأمزاد هو آلة تشبه الربابة العربية يتفنن في ضربها النساء.

ولقد استمعت إلى الأمزاد عدة مرات وكان من أجمل ما سمعت من الآلات الموسيقية الصحراوية. بحيث تستمع إلى المطربة تردد لحن الغناء على الأمزاد فتظنه لروعته ينطق معها بالغناء.

وفي جميع أيام أسبوع الاحتفالات يحتجب العريس في الخيمة ولا يخرج أبداً. ويحضرون له الطعام مع أصدقائه الذين يكونون قد شكّلوا حكومة من السلطان وهو العريس. والوزير وهو وكيل العريس. والقاضي. والشرطة.

أما العروس، فإنها تخرج يومياً مع صاحباتها حيث يضيفنها على وجبات الطعام ولا تعود إلا ليلاً.

ونائب العريس أو الوزير هو الذي يتكلم باسمه ويتلقى منه الإشارات. فالسلطان (العريس) لا يتكلم بصوت مرتفع أبداً ولكنه قد يومىء بسيفه عندما يريد أن يعفو عن شخص يتعرض للعقاب.

ويستمر الشباب في ألعابهم ومصارعاتهم وجريهم طوال أيام الأسبوع وللعريس أمر لا يرد طوال فترة أيام الأسبوع وهو فيها لا يقابل والده ولا والدته وكذلك صهره وأم زوجته.

---

(1) شاهدت ذلك في قبيلة منغساتن وحدثني به رجالهم 1959.

وبعد نهاية الأسبوع يتفرق الجميع وتبقى العروس بجانب خيمة والدها إلى أن تلد ابنها البكر. ويبقى زوجها مع إبله أو مع القوافل التجارية ولا يعود إلى زوجته إلا ليلاً حيث تبنى لهما خيمة صغيرة يناماان فيها[1].

وبعد أن تلد الزوجة مولودها الأول يحق لزوجها أن يحملها معه وينتقل بها من جوار أصهاره ويذهب حيث شاء.

تربية الأولاد عند التوارق

في أغلب مجتمعات التوارق تبقى المرأة بجوار والديها إلى أن تلد المولود الأول. أما في بقية المجتمع، فإنها ترجع إلى بيت أسرتها في الأشهر الأخيرة للحمل حيث تلد في بيت أمها وتحت رعايتها وهذه الطريقة الأخيرة يشاطرهم فيها جميع عرب الصحراء الكبرى.

والولد الأول تربيه جدته لأمه. ويعيش بين أخواله إلى سن الرشد.

وترضع المرأة التارقية ولدها. وإذا وُجد ما يمنع ذلك ترضعه إحدى قريباتها أو بعض نساء مواليها.

تسمية المولود

وفي اليوم السابع يحتفلون بتسمية المولود ويقيمون حفلة تذبح فيها الخراف. وتكون مناسبة للغناء والرقص. ويسمّى المولود بناء على

(1) مشاهداتي الخاصة. وعبد القادر جامي. المصدر السابق. ص 184.

القرعة. حيث يجتمع رجلان من أسرة أبيه ورجل من أسرة أمه ويأخذون ثلاث قطع من كبد الشاة التي ذبحت للمناسبة ويضعون بها القرعة ويجرون القرعة ثلاث مرات. ويسمى الولد بالاسم الأكثر ظهوراً في القرعة ومن الرجال الثلاثة الذين يجرون القرعة، وعلى الرجل الذي تفوز قرعته التي يطرحها أن يحضر هدية للمولود كما يجب أن يهدي له الهدايا في المناسبات ويقولون إن فلاناً هو الذي سمّاه.

وبهذه المناسبة تقدم الأطعمة والشاي للمهنئين الذين يتقاطرون على بيت الوالد من الصباح. ويدعون للأب بالبركة والخير في مولوده.

ويسمّي التوارق أولادهم بأسماء عربية إسلامية وخاصة عند مجموعة (أنسلمن) مثل أسماء الأنبياء والرسل والصحابة والأو.ياء وأصحاب الطرق الصوفية.

وقد يحصل تغيير في نطق الاسم حسب موقعه من الجملة فنرى مثلاً رجلاً يسمّي ولده سعيد، وآخر يسمّيه سعيدو وثالث يسمّيه سعيدون، ويظنون أنها أسماء مختلفة، وكذلك بالنسبة للاسم محمد. فنراه محمد، ومحمدو ومحمدون، وكذلك البنات زينب وفاطمة فنراها أحياناً زينبو، وفاطمتو.

كما نجد أيضاً النبلاء (إيماجغن وإيمغاد) يسمّون أسماء عربية محرفة نتيجة لعدم قدرتهم على النطق الصحيح بالعربية. فنجد عندهم مخمد وإسماغيل والخورير (الخضر). وفطميتا (فاطمة) وغيشتو (عائشة) وغيرها.

كما يسمّون أيضاً أسماء تارقية قديمة. أما العبيد فيسمّون أولادهم

من قبل أسيادهم فنرى أسماءهم بركة، وياسين، وسالم، والحمد، وتبارك، على السور القرآنية.

كما يسمّونهم بأسماء العبيد المشهورين في الإسلام. بلال، توبان، خوله.

ويسمّونهم على أيام الأسبوع مثل الاثنين للذكر والسبت للبنت. والخميس للذكر. كما يسمونهم أسماء تارقية قديمة مثل الدكلول للأنثى وينغن وتنوفن للذكر.

ويحلق التوارق رؤوس أولادهم بحيث يتركون لهم شريطاً من الشعر يمتد من مقدمة الرأس إلى مؤخرته (بالنسبة للأولاد) حتى يبلغوا سن الرشد فيتلثموا ويبدأوا في تحليق مقدمة الرأس فقط ويسمونها (باغيرف).

أما البنات فيحلقون لهن رؤوسهن كاملة ويتركن لهن في وسط الرأس قزعة صغيرة تسمى (أشقدا وتفقلقين) حتى سن الخامسة حيث يتركن شعورهن كاملة.

ويزاول الولد اللعب مع أقرانه ويرعى صغار الماشية وخاصة صغار الماعز. ويذهب مع الخدم للآبار لجلب الماء. ويتبارى مع الصبيان في المصارعة والجري ولعب الكرة بالعصي ويقوم بصيد صغار الطيور واليرابيع مع أقرانه ويتعلم حروف (التافيناغ) من النساء والخدم اللواتي يتقن الكتابة بها بعكس الرجال وخاصة النبلاء الذين يرون في تعلم الكتابة والقراءة نوعاً من السخافات لا تليق بهم كرجال. فمهمتهم حمل السيف والقتال فقط.

وفي هذه السن ليس هناك أي تمييز بين أبناء الطبقات. فلباسهم واحد أو متقارب وكذلك حياتهم اليومية وألعابهم وسمرهم، غير أن الولد يكون أكثر اندماجاً مع أهل أمه من اندماجه مع أهل أبيه. والتوارق ينسبون إلى قبائل أمهاتهم.

ويقول عبد القادر جامي:

«فالتارقي مهما كانت منزلة أسرة والده واعتبارها إذا لم تكن أمه من الأحرار فلا يعتبر من علية القوم.

لذلك تراهم يقدرون أقاربهم من الأم كالخال ويعتبرون أبناءهم كالإخوة والأشقاء. ينظرون لأقاربهم من جهة آبائهم نظرة الأجانب. وينتقل (الطبل) بالوراثة من الأم إلى أولادها وإلى أبناء الأخت. وإذا لم يوجد وارث من جهة المرأة ينتقل إلى أقارب من الدرجة الثانية إلى الجدات والخالات. وفي أثناء إقامتي في غات كانت الوارثة لطبل قبيلة (آزقر) بنت رئيسها القديم الشيخ اخنوخن»[1].

الختان

يجري الختان لدى التوارق للأولاد فقط. وتقام له ولائم كبيرة وتذبح فيه عدة رؤوس من الأغنام. ويضرب فيه (تيندّي) ويختنون أولادهم عادة في الشتاء حتى لا يتعب الولد من الجرح. ويقوم بعملية الختان أحد الشيوخ المدربين على مثل هذه العمليات. كما يجري الختان للولد في السنوات الأولى من عمره ويلبس الصبي قبل الختان قميصاً أبيض مزيناً في جيوبه الأمامية بتطريز ويلبسونه طاقية يخيطون

(1) عبد القادر جامي/ المصدر السابق. ص 180.

عليها قرن غزال وعوداً من شجر (الداد) لطرد العين والحسد. ومثل هذا يفعل العرب في شمال أفريقيا عموماً ويضع التوارق العطر على أنف الصبي حتى لا يمرض فيما بعد عندما يشم رائحة العطور.

ويمسك الصبي أحد أقاربه حيث يقوم الرجل المكلّف بختنه وهنا يمسك الصبي أحد الرجال من يده ويجري به بسرعة لمسافة لا تقل عن 100 مائة متر. ويقولون إن مثل هذا الجري يمنع رجوع الدم للجسم فلا يمرض الصبي. ويعالجون جرح الصبي بفحم الطلح المسحوق. أو بفحم نبات يسمّى بلبلن. ويغسل الجرح بالماء الساخن كل يوم إلى أن يُشفى.

الطلاق عند التوارق

مجتمع التوارق قليل الطلاق، وهم لا يلجأون إلى الطلاق إلاّ نادراً كما أنهم لا يجمعون أكثر من زوجة واحدة في عصمتهم في الوقت الواحد في الغالب. والمرأة في مجتمع التوارق تحظى باحترام زائد وهي كما ذكرنا سافرة إلا في طبقات (إينسلمن) الجماعات المتدينة فهي هنا لا تقابل الرجال ولا تجالسهم.

والمرأة التارقية تستطيع أن تذهب للأسواق وتبيع وتشتري كما تقوم برعي الماشية. وشاهدت بعضهن يرعين الماعز في الصحراء. ويبتن وحدهن مع ماعزهن دون خشية أي شيء منفردات في الصحراء. وينمن داخل القطيع الملتف حول راعيته ولا يتعرض لهن أحد بسوء.

وإذا ما رغب التارقي عن زوجته، فإنه يطلقها على الطريقة الإسلامية بعد أن يدفع لها باقي مهرها المؤجل.

أما إذا أرادت التارقية أن تطلق من زوجها ولم تعد تطيق البقاء معه، فإنها تنتقل إلى منزل أهلها وتبعث إلى أحد الرجال الموثوق فيهم وتقول له: «أنا هاربة إليك».

فيقوم هذا بنحر جمل أو ثور ويكرمها وتجري مراسيم الطلاق وتنتظر العدة ثم تتزوج من آخر.

أما إذا كان زوجها متوفى فتخرج بعد نهاية العدة وتأتي إلى خيمة أحد العلماء وتقول له:

«أنا هاربة إليك وأريد أن تكتب لي حجاباً ينجيني من شر الإنس والجن». فيفهم العالم ذلك ويبقيها في حمايته إلى أن تتزوج إذا لم يكن لها أهل.

عادات التوارق تجاه الموتى والقبور

تختلف الطبقات الاجتماعية لدى التوارق في نظرها إلى الموت والأموات والقبور. فعند الطبقات المتمسكة بالعادات الجاهلية يتخلى أهل المريض عنه عند دخوله مرحلة الاحتضار والإشراف على الموت. فيكلون أمره حينئذٍ إلى أصحابهم من الجماعات الإسلامية (إنسلمن) فيجهزونه ويصلون عليه ويدفنونه. والتوارق بصفة عامة ليست لهم مقابر جماعية وإنما يدفنون موتاهم حيث توفوا في الصحراء ولهذا تجد قبوراً فرادى في الصحراء. ولا يتحمس التوارق لزيارة القبور والأضرحة.

ويدفنون موتاهم على الطريقة الإسلامية حيث يغسل الميت ويكفن ويصلى عليه ويدفن. وفي بعض المجموعات يختم عليه القرآن وتذبح عدة شياه ويتصدق بها. ويُعطى للرجل الذي قام بغسل الميت خمس أو سبع منها ولمعاونه أقل من ذلك.

وليست هناك كلمات متعارف عليها عند التوارق للتعزية كما أنهم لا يندبون الميت. ولا تصرخ النساء وتولول كبعض القبائل العربية الأخرى.

ويتألم التوارق من ذكر اسم الميت ويتجنبون النطق باسمه وخاصة إذا كان المتوفى شخصية مشهورة. وإذا ما أرادوا الكلام عنه فيذكرونه بكنيته أو اسم أحد أولاده.. وهي عادة عند أهل الشام حتى الآن.

وغالباً ما يذكر أبناء المتوفى باسم أمهم فيما بعد فيقولون فلان بن عائشة، أو ابن تفلْوِيت أو غيرها.

ويغلف التوارق القبور بكثير من الخرافات. ويعتقدون أن الجن والعفاريت تسكنها. ويزعمون أن شخصاً مرَّ بجانب القبور فسمع أحاديث يتداولها الجن مع أصحاب القبور. وآخر شاهد مخلوقات مجنحة تقف على أحد القبور ويقولون إنها ملائكة تترحم على صاحب القبر. كما يزعمون أن قبوراً لأشخاص مشهورين شاهدوا نوراً يسطع عليها ليلاً. إلى غير ذلك من الأساطير التي يروونها في الصحراء.

وإذا مرَّ التارقي بقبر في الصحراء لشخصية مشهورة معروفة لديه، فإنه يطوف بجمله أو ناقته عليه سبعاً ويقرأ عليه الفاتحة وكثيراً ما تسمّى الأماكن في الصحراء بأسماء الموتى الذين دفنوا فيها فيقولون مثلاً وادي فلان، أو جبل فلان أو بئر فلان.

الاحتفالات عند التوارق

يحتفل التوارق كبقية المسلمين بعيدي الفطر والأضحى إذ يجتمعون خارج الحي صباح العيد، وقد لبسوا كامل زينتهم في انتظار السلطان والإمام الذي يتقدم ويقرأ الخطبة، ويكون موضوعها الوعظ والإرشاد والتذكير بيوم الآخرة والجنَّة والنَّار. وتكون مكتوبة لهذه

المناسبة منذ عهد قديم، أو تكون من كتاب قديم كتبت فيه مثل هذه الخطب.

والتوارق سنيّون على مذهب الإمام مالك حسب ما ورد في كتاب «الرسالة لابن أبي زيد القيرواني».

وبعد انتهاء الصلاة يقوم الشباب بالسباق على خيولهم وجمالهم مارين بالأحياء التارقية الموجودة في المنطقة وتقام مهرجانات الموسيقى وضرب الطبول في المساء والغناء والرقص ويحضرها النسوة والأولاد والشباب من كافة الطبقات الاجتماعية.

كما يحتفل التوارق بيوم عاشوراء الذي يعتبرونه أحد الأعياد الدينية حيث تصنع فيه كميات من الطعام ويدعى إليها الناس فيأكلون ويشربون ويقرأون القرآن والمدائح النبوية وسيرة النبي ﷺ وسيرة أهل بيته وهي في نظري بقية من عادات الشيعة التي لا تزال بقاياها في شمال أفريقيا من أيام الفاطميين. ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللّطيف:

«ويبدو أن الاحتفال بيوم عاشوراء قد بدأ منذ عهد قديم في فترة الحكم الشيعي في بلاد المغرب»[1]. ويستمر قائلاً:

«وقد وجد التوارق في يوم عاشوراء فرصة لإحياء بعض العادات الوثنية القديمة. فيحتفظون بعظام الأضاحي إلى يوم عاشوراء فيكسرونها ويضعونها في طعامهم في ذلك اليوم بدون معرفة أي معنى لذلك، إلا أنهم وجدوا آباءهم عليه»[2].

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 74.
(2) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 74.

كما يحتفل التوارق احتفالاً كبيراً بعيد المولد النبويّ حيث يقرأون القرآن عند السلاطين في حـفلات تحييها الطرق الصوفية بمشائخها والتي أهمها انتشاراً في الصحراء. القادرية، والتيجانية، والخلوتية، والختمية، الميرغنية.

وتقرأ سيرة الرسول والمدائح النبوية حسب أوراد ومؤلفات أصحاب الطرق. غير أنهم جميعاً يتفقون على قراءة قصيدة البردة للبوصيري إلى جانب قصائد المديح والأشعار باللغة التارقية.

كما يعقد التوارق حفلات الترويح على مريض يئس الأطباء من علاجه فيعتقدون أنه مصاب بالجن فتقام له حفلات من الموسيقى والغناء والرقص ويعتقدون أنها تطرد الجن.

احتفالات الخريف

عندما تجتمع كل قبائل التوارق في شهري الخريف (أغسطس ـ وسبتمبر) حول الآبار المالحة في الشمال لسقي مواشيهم التي تحتاج للملح في هذه الفترة في مناطق (أغزر ـ وانقال ـ وتَقِدَّا) غرب اقدز، يقـومـون بمهـرجـانـات ومسـابقـات على المهـارى وحفـلات للـرقـص والموسيقى. والمبارزات بالسيف والرمح بين شباب القبائل. والجري والمصارعة. كما تقدم لعبة (الكرة) بين المنتجعات وهي كرة صغيرة يضربها اللاعب بالعصا وتتبارى النسوة ويسمينها (كرى) وهو نفس الاسم العربي. وتنقسم النساء إلى مجموعتين كل مجموعة من حي والمجموعة التي توصل الكرة إلى الحي المنافس تعتبر منتصرة. وهي نفس اللعبة التي يلعبها الرجال في ليبيا في فصل الربيع.

أسوات: وهي حفلة تخص الشباب من الجنسين حيث تقف الشابات في صف والشباب في صف مقابل وتقوم النساء بالغناء أما الرجال، فإنهم يتبارون في المصارعة. وهناك رقصة خاصة في أسوات للصراع تسمى (زيغ) وهذه الرقصة أو اللعبة لا يدخل ساحتها إلا من كان مشهوراً في لعبة الصراع العنيف.

أكرشي: لعبة تشبه السباق، يقومون بها أيضاً في فصل الخريف. وهي أن تذهب مجموعة من الشباب من أحد الأحياء إلى حي آخر بمنطقة أخرى ويطلبون منهم أن يعطوهم (أكرشي) وهو غطاء رأس أجمل امرأة في ذلك المنتجع.

وعندما يناولونهم إياه ينطلقون به بأقصى سرعة عائدين إلى مخيمهم. وقد يتبادلونه بينهم بحيث دائماً يكون في يد الأسرع في العدو. وأصحاب المخيم الذي أخذ منه يطاردونهم مسرعين أيضاً.

وإذا ما لحقوا بهم، فإنهم يرجعونه منهم. أما إذا لم يستطيعوا اللحاق بهم، فإنه يعتبر عاراً على الحي الذي لم يستطع إرجاع (أكرشي) الذي يخص أجمل نسائهم[1].

---

(1) هذه المعلومات استقيتها من ورتوردين محمد الشيخ 61 سنة من منطقة كيدال إفوغاس مالي وذلك في عام 1986.



الباب السادس

أ-الطب الشعبي عند التوارق

ب_الفأل والتطير عند التوارق

أ ـ الطب الشعبي عند التوارق

التوارق منعزلون بعيداً عن المدن والتمدن، يكيفون أنفسهم لعالم الصحراء اللامتناهي، معتمدين على قدراتهم الذاتية في مصادمة الحياة ورد آفاتها والتهوين منها، ومنها الأمراض.

ولذا، فإنهم يشخصون أمراضهم ويعتمدون في علاجهم على التجربة، الخطأ والصواب. مستخدمين الأشياء المتوفرة لديهم في صحرائهم من أعشاب وحشائش ونار وتعاويذ ـ إذا عجزوا ـ.

وقد يبرز من بينهم أطباء شعبيون بالتجربة والتواتر والتوارث حيث يستخدمون لكل مرض علاجاً نافعاً وإذا ما عجزت العلاجات أرجعوا المرض إلى القوى الخفية من الجن والملائكة فيعقدون له حفلات الرقص والغناء والموسيقى ويلجأون إلى شيوخ الدين ليكتبوا لهم التعاويذ والأحجبة.

ولنأخذ أمثلة على الأمراض المتوفرة في المنطقة والمعروفة لديهم وطريقة علاجهم لها:

آلام العيون: الناس في الصحراء معرضة عيونهم للإصابة بالغبار والشمس الحارقة ولهذا يعالج التوارق آلام العيون بالكحل. فالتارقي دائماً تراه يهتم بتكحيل عينيه ويرى ذلك من السُّنَّة. وغالباً ما تجد محفظة الكحل ضمن أثاثه على جمله. والكحل أداة للزينة وكذلك للعلاج.

كما يعالجون العيون المريضة بحليب المرأة المرضع يقطرونه في العين، ويكحلون العيون المريضة بالملح.

آلام الرأس: دائماً ما يصاب الإنسان بآلام الرأس (الصداع) ولمثل هذا المرض أسباب عدّة. والتوارق يعالجون مرض الرأس كما يلي:

- يربط الرأس بقطعة من القماش.
- يجرح الجبين بالموسى جراحات صغيرة على امتداد الجبهة حتى يسيل الدم أو (يبقطون) أي يفصدون الوريد الموجود في الجبهة بموسى حادة فينزل الدم بغزارة وينتظرون الدم حتى يتغير لونه من الأسود القاتم إلى الأحمر الفاتح وحينها يضغطون على العرق ليكف الدم ويرفعون رأس المريض إلى أعلى حتى لا ينزل الدم ثانية.
- وقد يلجأ التوارق إلى جرح الأذن حتى يسيل الدم منها.

أمراض الحنجرة واللوزتين: يعالج التوارق هذه الأمراض بالتالي:

1 ـ يلفون رقبة المريض بروث البقر المخلوط بالماء البارد.

2 ـ يغلفون رقبة المريض بحبوب الفاصوليا المدقوقة بالماء.

3 ـ يجرح المريض بجروح صغيرة حول الفكين لإخراج بعض الدم.

4 ـ يطهى الحليب مع الشاي والسكر ويسقى للمريض ويجب أن يبقى الإبريق بعدما يغلي فيه الحليب بدون غطاء ما لا يقل عن 24 ساعة حتى يكون المخلوط بارداً جدًّا.

5 ـ تدهن الرقبة بدم حمار فيشفى من مرض العنق.

علاج الجروح: ينظف الجرح بالملح ثم يوضع فوقه بعض النباتات بعد أن تدق، أو يوضع عليه بعر الإبل، والنبتات التي توضع على الجرح هي:

1 ـ سعف ذكر النخيل.

2 ـ قوناكيا (نوع من العشب).

3 ـ نبات يسمى (إيفورب).

4 ـ فحم الحطب.

السعال والإلتهاب الرئوي: يعالج السعال عند التوارق بالأشياء التالية:

1 ـ يغلى الفلفل مع الحليب، ثم يحرك بعود أخضر من شجرة تستعمل لدبغ الجلود (الجداري). ثم يسقى للمريض.

2 ـ يدهن المريض حول الصدر بالزيت أو السمن.

السعال الديكي: ويعالج السعال الديكي الذي يصيب الأطفال:

1 ـ يسقى الطفل حليب حمارة.

2 ـ يأكل المريض لحم ابن آوى، أو لحم حيوان صحراوي صغير كريه الرائحة يسمى بالعامية (شفشه).

الزكام: يعالج الزكام عندهم بالأشياء التالية:

1 ـ يطبخ الحليب مع الفلفل ثم يعطى للمريض.

2 ـ يوضع الفلفل على الجمر ويشم المريض الدخان المنبعث من الفلفل حيث يشرع في العطس. ويرون أن في ذلك خروج الداء.

3 ـ يضع المريض رأسه فوق قدر الطبخ ويشم البخار المنبعث من القدر.

الصقّير: (الصفراء) وهو مرض الكبد ويصيب المريض بالاصفرار والتوارق يعالجونه:

1 ـ يعطى المريض مخلوطاً من زبدة البقر + الملح + نبتة صحراوية تسمى عند التوارق (تيارقي) + الفلفل ويطبخ هذا الخليط ويعطى للمريض ليشربه.

2 ـ كما يطعم المريض كلى البعير أو كلى البقرة أو كلى الضأن أو الماعز.

3 ـ جلد حيوان البر (الغزال + الودان أو غيره) يطبخ ويأكل منه المريض.

الصرع: بالرغم من أن للصرع أنواعاً كثيرة وأسباباً كثيرة، كل منها يخالف الآخر غير أن التوارق في جميع الحالات يعتبرون أن هذا المرض سببه الجن وبالتالي يقيمون للمريض رقصة (التام تام) ويضمخ المريض بالعطر.

نهشة الأفعى ولسعة العقرب: بالنسبة للأفعى يكون علاجها:

1 ـ يقطع المكان الذي عضته الأفعى.

2 ـ يربط فوق الجرح لمنع تسرب السم.

3 ـ يسقى الملدوغ كثيراً من الحليب الساخن. والشاي الساخن ثم مرق اللحم حتى يتقيأ الملسوع.

4 ـ يقام للملسوع حفل راقص (تام تام) حتى ينسى المريض آلامه.

5 ـ تقتل الأفعى ويقطع ذيلها ثم يوضع دم الذنب على المكان الملسوع.

6 ـ يعطى الملسوع التمر حتى تهدأ ـ كما يتوقعون ـ نبضات القلب.

أما **لسعة العقرب**، فإنهم يعالجونها لكونها أقل خطراً من الأفعى بالأشياء التالية:

1 ـ يعطى الملسوع الشاي الساخن.

2 ـ يغطّى الملسوع بجلد ماعز أو خروف مسلوخ حالاً.

3 ـ يسقى الملسوع الحليب المغلي.

انتفاخ البطن: لانتفاخ البطن أسباب شتى غير أن المقصود به هنا هو الانتفاخ الناتج عن سوء الهضم (البطنة) فيعالجها التوارق:

1 ـ إذابة النطرون أو البوتاس في الماء ثم يسقى للمريض.

2 ـ يسقى المريض زبدة البقر.

3 ـ يسقى المريض الشاي الأخضر بدون سكر.

حوادث السقوط: وهو سقوط الإنسان من مكان مرتفع كجمل أو حصان أو سقوطه في بئر أثناء نتح الماء فيعالج التوارق مثل هذه الحالات بالآتي:

1 ـ يوضع المريض فوق لحاف ويتناول شخصان طرفي اللحاف ويبدآن برجه عدّة مرات.

2 ـ تحفر حفرة ثم يوضع فيها المريض ويردم ولا يترك منه ظاهراً إلا رأسه ولمدة حوالي الساعة ثم يخرجونه ويناولونه اللحم الجاف.

3 ـ يعطى له لحم الماعز بكثرة.

والتوارق في مجموع طبهم الشعبي يعتمدون على اللحم ويناولونه لمرضاهم بكثرة. ولهذا نجده يدخل في كثير من علاج الأمراض عندهم.

علم البيطرة

التوارق متخصصون في طب الحيوانات وخاص الإبل، وهم يعالجونها بشتى الطرق وعندهم لكل مرض علاج.

الجروح العميقة: (الدبرة) كثيراً ما تصاب الجمال أثناء حمل الأثقال بجروح عميقة أمام السنام أو خلفه سببها ضغط المتاع على ذلك المكان وقلّة الوقاء الذي يحول بين الأثاث وظهر البعير.

وبالتالي يصاب بجروح تتعفن ويزيدها الطيور ألماً وخاصة الغربان حيث تركز على سنام الجمل المصاب وتنقر الجرح مما يزيده اتساعاً وعمقاً، وتزيد البعير ألماً.

ويعالج التوارق الجروح في مثل هذه الحالة بالأشياء التالية:

1 ـ يغلى الماء مع روث البقر ثم يوضع فوق الجرح العميق.

2 ـ الجروح التي تحصل للجمل في أخفافه والناتجة عن السير لمسافات طويلة فوق الحجارة الصلبة. يوضع عليها الشحم ثم تكوى بالنار.

الشايون: وهو مرض يصيب الأغنام والخيل والحمير. ويقول التوارق: إن سببه كثرة الدم في الحيوان ويعالجونه كما يلي:

1 ـ يقطع جزء من أذن الحيوان المريض ويترك الدم يسيل بعض الشيء.

2 ـ يقطع جزء من ذنب الحيوان.

3 ـ يسقى الحيوان الحليب مع الملح.

4 ـ يوضع الدخان (التبغ) في عيني الحيوان المريض.

وباء البقر: التوارق الجنوبيون يهتمون كثيراً بتربية البقر ويعتبر جزءاً من ثروتهم الكبيرة. وقد يصاب البقر بالأوبئة فتنقص ثروة التارقي بانتقاص عدد القطيع.

وإذا ما أصاب أحد الأوبئة قطيع البقر وبدأت الأبقار تنفق يعالجها التوارق بالآتي:

1 ـ يسقى القطيع من بئر لم تستعمل للشرب مدة طويلة وتكون على الأقل سنة كاملة.

2 ـ أخذ جلدة الحافر من بقرة مريضة وجعل ثقب في أذن بقرة كبيرة ووضع الجلدة المنزوعة من البقرة الأولى في ثقب أذن البقرة الثانية. وتمرض الأخيرة بالحرارة عدة أيام ثم تشفى تماماً. وينقص المرض في القطيع.

وهذه الطريقة أشبه ما تكون بعملية التلقيح. هذا كما يحتاط التارقي كثيراً خوفاً من أن تصاب إبله أو بقره بالمرض ولهذا نراه يتخذ

لنفسه في صحرائه طقوساً يراها تمنع مرض حيواناته وتقيها عين الحسود وشر العين.

ففي فترة تناول الإبل الملح خلال شهري (أغسطس وسبتمبر) يمنع التارقي حليب إبله عن الناس إلا أفراد أسرته. إذ في معتقده أنه إذا تناول أحد الغرباء حليب إبله فإن الإبل تموت.

وللإبل عند التوارق أهمية خاصة. فحتى تناول حليبها له طقوس:

فإذا ولدت الناقة، فإن مجموعة من الأشخاص لا يتناولون لبنها قبل أن يمر على مولدها ثلاثون يوماً. وهؤلاء الأشخاص هم:

1 ـ الذي أكل التمر في مدة قريبة.
2 ـ الذي أكل من لحم الصيد.
3 ـ المرأة الحائض.

إذ يعتقدون أن الناقة إذا شرب لبنها أحد هؤلاء المذكورين في فترة ولادتها الأولى، فإن الناقة سينضب لبنها وتموت. أما الغنم والماعز، فالمدة المقررة لا تقل عن خمسة أيام، وكذلك البقر فالمدة لا تقل عن عشرين يوماً. وفي جميع الحالات، فإن الأشخاص المذكورين آنفاً لا يستحب منهم أن يشربوا لبن الحيوانات الحديثة الولادة، لأن في ذلك مضرة لهذه الحيوانات[1].

---

(1) هذه المعلومات استقيتها من مشاهداتي الخاصة ومن بعض شيوخ التوارق. وأكثرها من الأستاذ وليله همه من توارق الجنوب افوغاس (مالي).

ب ـ الفأل والتطيُّر عند التوارق

التوارق كأي مجتمع بدوي عربي صحراوي يخلق من صحرائه جوًّا من الثقافة الخاصة به. والمعتقدات المتوارثة التي تصبح جزءاً من كيانه، وتصبح في مرحلة من مراحل الزمن أشياء مسلَّماً بها يناقشونها ويتصرفون إزاءها وكأنها شيء ثابت لا محالة.

فمن الأشياء التي تبعث على التشاؤم لدى التوارق ويتجنبونها:

1 ـ يمنع على راعي الغنم حمل عصا محروقة بالنار أو بها آثار من التسوس، لأن في اعتقادهم أن الراعي الذي حمل تلك العصا يفقد الأغنام. وإن حمل مثل هذه العصا يتسبب في فقدان القطيع.

2 ـ إذا خرج القطيع للمرعى، فإن إلقاء جزة صوف خلفه معناها عدم عودة القطيع للخيام لسبب طارىء لا يسر.

3 ـ إن قذف عود مشتعل بالنار خلف القطيع وهو يتحرك للمرعى يتشاءمون منه ويعني فقدان القطيع بغزو أو موت وعدم عودته للخيام.

4 ـ عندما يموت حيوان بمرض أو بغيره، فإنه يُحرق ويمنع استعمال عصوين لتحريكه أثناء الحرق، لأن ذلك يعني موت حيوان آخر.

5 ـ عند شيِّ اللحم لا يستخدم في ذلك عصوان، لأن ذلك يعني موت القطيع، وإنما يحرك اللحم بعصا واحدة.

6 ـ إذا سقط اللحم المشوي على الأرض، فإن ذلك يعني عند التوارق موت الكثير من الغنم. ولذلك يحافظ الرعاة على عدم سقوط اللحم.

7 ـ لو رجع ثور القطيع (الفحل) إلى الخيام من المرعى في الصباح وحده، فذلك علامة سيِّئة جدًّا ولها عند التوارق مدلولان:

(أ) أن الأعداء سيستولون على كل القطيع.

(ب) انهزام المخيم أمام الأعداء.

لهذا إذا عاد الثور وحيداً إلى الخيام، فإنهم يسرعون لذبحه ويتصدقون بلحمه على كل الجيران.

8 ـ الموقع الذي يسفك فيه دم الحيوان أو الإنسان، فإن التوارق يعتبرونه مسكناً للجن ويتجنبونه، فإذا مرَّ بجواره أو تخطاه إنسان بقصد أو بدون قصد وجب عليه أن يذكر اسم الله وكذلك الرماد. وبول الأطفال. والأماكن المهجورة التي كانت في الماضي مواقع الخيام جميعها يعتبرونها مساكن للجن ويجب تجنبها.

9 ـ المسافر من التوارق ساعة انطلاقه من الخيام من سفره لا ينادى عليه من الخلف حتى ولو نسي شيئاً ويريدون إلحاقه به، فإنهم يتبعونه إلى أن يلتفت أو يلحقوا به.

10 ـ والمسافر يجب أن لا تمر أمامه امرأة معترضة طريقه، لأن

في ذلك نذيراً بعدم التوفيق في الرحلة، وكذلك لا يستحب أن يمر من منزل إلى منزل ساعة الانطلاق.

11 ـ والمسافر يتشاءم من اختراقه لقطيع من الماعز ساعة انطلاقه في الرحلة، ولهذا تراه يتجنبه.

12 ـ والتارقي لا يسافر أول يوم أو ثاني يوم في الشهر. ولا يسافر يوم الجمعة، إذ إن السفر عندهم يوم الجمعة معناه أن الرحلة ستطول.

وفي السفر هناك حيوانات يحب أن يراها المسافر التارقي ويتفاءل بها، وأخرى لا يحب أن يراها ويتشاءم إذا رآها.

ومن الحيوانات التي يحب أن يراها ويتفاءل برؤيتها:

1 ـ أنثى الغزال.

2 ـ الخروف.

أما الحيوانات التي لا يود رؤيتها وإذا رآها لا تسره فهي:

1 ـ خنزير البر: رؤيته تدل على أن السفر سيكون سيّئاً.

2 ـ الضبع: رؤيته تدل على أن السفر سيكون فيه مهانة وإهدار للكرامة.

3 ـ ابن آوى: رؤيته تدل على أن المسافر سيضل الطريق وتحصل له مغالطات كثيرة في رحلته.

4 ـ الأرنب: رؤيته تدل على أن السفر أو الرحلة يكون فيها خبث ومكر.

كما أن عند التوارق هناك أشخاص تدل رؤيتهم على مجلبة للحظ ومن هؤلاء:

- المرابط.
- الفقيه.
- الشريف.

وآخرون رؤيتهم تجلب النحس في أول السفر وهم:

- الإنسان الأعور.
- الشخص الذي به عاهة أو غير متناسق النمو.
- الساحر.
- الرجل أو المرأة المسنة.
- المجرم.

كما يتشاءم التوارق من بعض التصرفات التي قد يتصرفها الإنسان على حسن نية. ومنها:

- لبس فردة واحدة من الحذاء وترك الرجل الأخرى حافية، فإنهم يعتبرون هذا من فعل الجن.

- إذا خلع أحدهم نعليه وانقلب أحدهما ظاهراً لباطن فيقولون إن ضيفاً قادم للسلام وهو (غير منظور) أي أنه من الجن ويسرعون بإرجاع الحذاء لطبيعتها.

- حلاقة جزء من رأس الطفل يشير إلى اليتم (أي أن والده سيموت) وبالتالي يتحاشون ذلك إلا مع اليتامى.

ـ لبس الثياب مقلوبة يدل عندهم على أن الرجل سيترمل (يفقد زوجته بالموت).

ـ الجلوس على (المهراس) الهاون علامة على فقدان مصادر الحظ.

ـ خياطة الملابس ليلاً وخاصة الملابس البيضاء يعني قدوم حزن للعائلة وبؤس.

ـ أخذ مقباسين من نار واحدة من الجيران يتسبب في فقدان الرغوة من الحليب، وبالتالي نقص الحليب من الغنم.

ـ دخول المرأة الحائض إلى (مراح) الغنم يسبب نقص الحليب من هذه الأغنام.

ـ قضم الأضافر بالأسنان يسبب الفقر.

ـ إذا كان أحد يحمل قرب الماء على ظهره، فلا يجوز له اختراق مكان الغنم، لأن ذلك دلالة على فقدان القطيع.

ـ عندما تضفر المرأة جزءاً من شعرها وتقوم دون أن تضفر باقي الشعر، فإن ذلك يتسبب في موت أحد إخوتها.

ـ ترك قماش أبيض على سطح المنزل يعني موت شخص من تلك الأسرة.

ـ زيارة امرأة في الصباح الباكر، تنذر بحدوث حظ سيىء للعائلة أو حصول حادث سيىء لأحد أفرادها.

ـ مرور أي شخص في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس بين الخيمة ومرابض الحيوانات ينذر بالفقر ولهذا يمنعون ذلك.

ـ لا يعطون ماء القربة الجديدة للجيران، والتي لم يمر على اقتنائها أسبوع على الأقل، فإذا فعلوا ذلك، فإنه ينذر بسقوط شعر القربة.

ـ المرأة التارقية يجب ألا تنام عند طلوع الشمس أو عند غروبها، فإذا فعلت ذلك، فإن أهلها سيصبحون فقراء متسولين.

ـ بداية من منتصف النهار، فإن زيارة شقيقين معاً ممنوعة، لأنها تنبىء بأن معركة ستحدث في ذلك المخيم.

يمنع على الفتيات الجري باتجاه المخيم، لأن هذا علامة على قدوم الأعداء.

ـ إذا أكل الرجل أو شرب من إناء أكلت أو شربت منه امرأة نفساء قبل أن تتم الأربعين يوماً على نفاسها، فإن هذا الرجل سيكون عرضة للجروح من أبسط الأشياء.

ـ النساء لا يأكلن لحم جمل معروف أو مشهور مخافة هجاء صاحبه لهن بشعر أو بكلام غير لائق.

ـ يمنع على المرأة أن تشق وسط قطيع الغنم وهو يشرب على البئر، لأن ذلك إذا فعلته نذير سوء للقطيع.

ما يمنع نزول المطر عند التوارق

المطر عند بدو الصحراء قاطبة مصدر الخير والرفاهية وازدياد نتاج القطيع لهذا يتمنون هطوله ويفرحون لسقوطه، ويعتبرون سنوات الجفاف التي يقل فيها المطر سنوات سيئة يموت فيها القطيع وتنتشر

المجاعة وكثيراً ما يؤرخون في تواريخهم بسنوات الأمطار الغزيرة وسنوات الجفاف.

ويرجع التوارق أسباب عدم هطول الأمطار لأفعال يرتكبها البشر فتذهب بالمطر بعيداً. ومن هذه الأسباب:

- عندما ترفع المرأة رأسها عارياً إلى أعلى وتنظر للسحاب هنا يكف المطر عن النزول.
- قوس قزح علامة على توقف المطر.
- نهيق الحمار تحت ماء المطر يوقفه عن النزول.
- خوار الثور يوقف المطر.
- استقبال الضيوف بطريقة سيئة يوقف المطر، كما أنهم يفسرون أحلامهم حسب متطلبات حياتهم، فرؤية ثور يخور في المنام دلالة على قدوم المطر.

وعندما ينقطع المطر يفرش التوارق غطاء وسط المخيم عند الإمام. ويأتي الناس جميعاً بالمواد الغذاية والمال ويضعونه على ذلك الفراش ويتصدق به على الفقراء، فإذا فعلوا ذلك، فإنهم يرون أن هذا سبباً من أسباب نزول المطر.

الطبيعة ومعتقدات التوارق

الصحراويون يرجعون كل الأشياء لمسببات. ويعتبرون أن هناك قوة خفية تحرك الأشياء، وعلى المرء أن يكتشف سرها ليتقي شرها وإلا وجد نفسه ضحية شرور الطبيعة فمن ذلك:

ـ عندما يشاهد التارقي سقوط نجمة في الليل (شهب) عليه أن يأخذ حفنة من التراب ويربطها في خرقة قماش إلى الغد، فإنه يجد في ذلك التراب شعرة. ويفسرون ذلك أن كل إنسان أو حيوان له نجمة في السماء وإذا سقطت نجمة فمعناها أن إنساناً أو حيواناً مات تلك اللحظة وإذا كانت الشعرة التي وجدها في التراب المربوط بيضاء، فإن الميت حيوان. أما إذا كانت سوداء فإن الميت إنسان.

ـ التوارق يقومون بدفن الأظافر والشعر. إذ يعتقدون أنه عن طريق الأظافر والشعر يمكن أن يلحق الأذى بصاحبها عن طريق السحرة والحُجُب، فإما أن يجن أو يمرض وهي عادة معروفة عند كل سكان الصحراء.

ـ عندما يظهر حول القمر (هالة) فإنهم يقولون بل يعتقدون أن الشيخ أو السلطان غاضب. ولذلك يجب إزالة الغضب فيضعون قطعاً معدنية من النقود في الهاون ويدقونها.

ـ عندما يشاهدون النجوم كثيرة في السماء ـ نتيجة صفاء الجو ـ يقولون إن مرد ذلك لا بد أن الحدادين شبعوا.

ـ المختلط بالتوارق ـ بل بالصحراويين عموماً ـ يشاهد على ذراع معظم رجالهم آثار حروق مستديرة على ظاهر الذراع ثلاثة أو أربعة حروق وأحياناً أكثر أو أقل. وسببها أن أطفال التوارق يختبرون شجاعة بعضهم بوضع عيدان مشتعلة على أيديهم حتى تنطفىء النار ثم يعودون لإذكائها من جديد ويضعونها في موضع آخر.

والذي يتحمل النار دون تأوه يعتبرونه شجاعاً، أما الذي يخاف فإنه يبقى أضحوكة زملائه.

كما أن ـ حسب رأي التوارق ـ الرجل الذي لا يحمل هذه الآثار من الحروق يبقى دائماً لعبة في يد الشيطان ومطية له[1].

التوارق والجن

الصحراء مليئة بالجن هكذا يعتقد سكانها توارق وعرباً، فعرب الجزيرة يعتقدون أن الشعراء لكل منهم أليف من الجن ينفث في أذنه الشعر، وأن للجن وادياً يدعى وادي عبقر يسمع في الليل لهم فيه غناء وأهازيج.

والتوارق كأسلافهم العرب يعتقدون أن للجن سلطنات ومشيخات بعضها مسلم وبعضها نصارى وتقوم بينهم الحروب ويسقط القتلى، وكثيراً ما يتعرض الجن للقوافل يطلبون القماش لتكفين الموتى وشهداء المعارك ويجعلون من (جبل الجنون) بالقرب من غات مسرحاً لقصص الجن وملاعبه وتصوراته للبشر تارة على شكل غزال وتارة على شكل نحل وأخرى على شكل خيول أو جمال.

ويروون قصصاً عن صيادين حاولوا اصطياد الغزلان بالقرب من هذا الجبل وأنهم أصيبوا بالجنون وماتوا.

ويقولون إن شخصاً لا يستطيع أن يصعد إلى هذا الجبل ولو حاول لقذفته الجن بعيداً.

---

(1) وليلة همة، من توارق الجنوب افوغاس (مالي).

في شهر ديسمبر من عام 1979 م. وصلت إلى هذا الجبل مع مجموعة من الأصدقاء وصعدنا إلى هذا الجبل حتى وصلنا ثلثه تقريباً، ولم يمنعنا من إتمام الصعود إلا عوامل التعرية التي جعلت هذا الجبل في أعلاه أشبه بالحائط لا يستطيع الإنسان تسلقه إلا بسلم إن أراد.

ولم يعترضنا في رحلتنا هذه جن أو غيره ولم يصب أحد منا بأذى.

والآن يقام مشروع زراعي بالقرب من هذا الجبل (جبل الجنون) أنشىء بعد قيام الثورة في ليبيا ويمر بجانبه الطريق المعبّد من أوباري إلى غات. ولم يعد لأقاصيص الجن ذكر لدى العاملين في المشروع.

غير أن التوارق في صحرائهم لا يزالون يعتبرون أن الجن سبب الكثير من الظواهر في أمراضهم وأمراض حيواناتهم.



الباب السابع

أ - الأدب والرقص والموسيقى عند التوارق

ب - ألعابهم الشعبية

أ ـ الأدب والرقص والموسيقى عند التوارق

ليس للتوارق أدب مكتوب تتناقله الأجيال وتزيد فيه أو تنقص منه، أو تشذبه على مر العصور.

وإنما لهم أدب شفوي ينتقل من جيل إلى جيل بالمشافهة. وينقله الكبار للصغار ـ على غير قصد ـ بالحديث والسمر إن كان شعراً أو قصصاً يتسمّعه الصغار في مجالس آبائهم أو نراه أمثالاً تقال حسب مكانها ووقتها أو شعراً تحفظ قصصه وقصائده على عادة العرب في جاهليتهم قبل الإسلام.

وللتوارق ككل شعوب الأرض آداب في شتى صورها شعراً ونثراً. قصصاً ومسرحيات صغيرة ونوادر. أمثالاً وحكماً أملتها التجربة ومعارك الحياة والصراع معها. ولنتحدث عن كل لون على حدة مبتدئين بالشعر التارقي الذي يشبه في تعابيره وتشبيهاته الشعر العربي الصحراوي وهو ولا شك جزء منه وإن اختلفت اللهجة، فإن العقلية واحدة وكذلك الأرضية الدينية والنظرة للحياة واحدة.

أ ـ الشعـر

النظم التارقي	التعـريـب
نيكيدي إيبفاوت سيدوفي يارُات	سرنا للدويرات للغزو

فوات أبادي سي سريرات	قطعنا الفيافي وطرق الصحاري
نوسينتلي هات إلا زلاإنتات	وجدنا الإبل ترعى في مراعيها
نيكاسيفل سيز كوريندات	سقناها في اتجاه الوطن
فولسينين تيندي غينهينين غات	هذه المجازفة قمنا بها من أجل المقيمة في غات
(موماغبات) تينبيفان تاكمارت	(موماغبات) البيضاء كالجبن
أندريتيك إنيقاس داقتدلالت	ماذا يكون لو عرضها أخوها للدلالين
نيكيف تيلمين داكيمين تيساقت	لكنت أدفع ألف بقرة وألف ناقة مهراً لها

ـ 2 ـ[1]

النظم التارقي	التعريب
تران كونوين ديق أدميرين	غرام (كونو) في صدري
إستامسي فيلتينيد إلاقين	يحرق كطعنة رمح
ديكي كاميكسين فيزيزنا هلين	وأي رمح، رمح في يد خصم لدود

التشبيهات العربية الصحراوية نفسها والعواطف نفسها والبيئة نفسها كما نجد أيضاً قصائد أخرى في الفخر والحماس والثورات والإشادة بمجهودات أبطال التوارق ضد الأعداء.

أما القصيدة التالية فهي تروي أمنيات مكبوتة في صدر تارقي بعيد

(1) القصيدتان الأولى والثانية من كتاب عبد القادر جامي/ المصدر السابق. ص 183.

عن وطنه (تاهرجان) ـ وهو اسم واد ـ وكيف حلم أنه في هذا الوادي وكيف أسكت خصيمه (دمّا) زوج (سمُّوا) و(هاجر) وكيف وجده على بئر (امْناسيل) يخطب الناس فأسكته وأوصى زوجتيه أن تضرباه بالعصا وتركباه حماراً بدلاً من الجمل. وذلك قبل أن يشرب البقر ماء الحوض المملوء.

تقول القصيدة:

ـ 3 ـ

النظم التارقي

1 ـ إنْضوض إنسيغْ غور دي إبراهيم

2 ـ ضارت زوزْجَن هيشْلانين.

3 ـ هار نَمْنَوْنَوْ دْجِيغْ تَهوزْجان.

4 ـ تِيفارْ نُوكْشاف خالي دْجانين.

5 ـ نَتَكَلْ تاغانَتْ إكْوغْ بَغِيرْ.

6 ـ إيهان إيْشكَان هي أوهازْنِينْ.

7 ـ نَسْوَرْتْ تَامْزكْ دْغِ مادو دالين.

8 ـ أدوْنِيغْ دِسنْ وتَغْ ساغيلْ أسْ تَسْكَنَّا تفوكْ ساتْكُول.

9 ـ أَنورْ دانو وان (أمناسيل) إياكوسَغْ داغ أبانين.

10 ـ إيوادْتْ (داما) أودا الرَّابون إيت لاقَّوِينْ ادّرْزانين آكي لولو إيتلهانين.

11 ـ إيقَالْسَنْ شُونْ الغاليم.

12 ـ نيغَاسُ (دمّا) أتِكلْ بانْجُورْ إدْجِي واجيد إن الباخِيلْ.

13 ـ وادغ إيتادج أُوبَل قادرُ.

14 ـ نَتاوكْ (سمُّو) ناسوك (هاجر).

15 ـ آسْ (دمَّا) أرمسْ دسْ إيغاف نامُولْ.

16 ـ تَكْفِتْ أتْغاسْ سنْييت أنْغيرْ.

17 ـ وارْهِيتْ تَكْفيـ داغْ التأخيرْ.

18 ـ إياسَيسْ وَنْ إيوانْ هانِينْ.

19 ـ إبخالْ هيكَنْ أدْ انْدَجَانينْ.

التعريب

1 ـ في الليلة الماضية نمت عند أهل إبراهيم.

2 ـ بعد أن أخزى حلب الحليب.

3 ـ لقد حلمت أنني كنت في (تاهرجان).

4 ـ فأخذت الرسن لأبحث عن الجمل.

5 ـ وكان الجمل يرعى قريباً مني بين الأشجار.

6 ـ ووضعت فوقه الراحلة وهي أجمل راحلة زرقاء.

7 ـ فانحنيت وضربته بيدي اليمنى.

8 ـ وعندما بزغت الشمس.

9 ـ وصلت إلى بئر (أمناسيل) التي ورثتها عن أبي.

10 ـ وكان (دمَّا) يتحدث في الفقراء.

11 ـ وهو يهددهم ويتوعدهم ويطلب منهم مغادرة المكان.

12 ـ وهو يتكلم كأنه عالم كبير.

13 ـ فقلت له توقف عن هذا فإنه عمل البخلاء.

14 ـ وليس عمل النبلاء.

15 ـ فأرسلت كلمة إلى (سَمُّو) وأخرى إلى (هاجر).
16 ـ بأن تأخذا من رأس الجمل غُرّته.
17 ـ ثم تعطياه عصا وتركباه حماراً فهو أولى به.
18 ـ وألا تتأخرا في هذا العمل وأن يكون في أسرع وقت.
19 ـ حتى قبل أن يشرب البقر الموجود على الحوض.

ولم يقتصر شعر التوارق على الشعر الصحراوي بتشبيهاته وأوصافه بل انطلق التوارق أخيراً إلى مجالات أرحب خاصة بعد تفجير الثورة في ليبيا ونداء العقيد القذافي للتوارق أن تكون حدود الجماهيرية مفتوحة لهم نظراً لما يعانونه من اضطهاد وعسف من قبل الدول التي يعيشون فيها (مالي والنيجر).

فقدم منهم آلاف. والتحموا مع إخوانهم الليبيين وعاشوا ظروف الثورة وتثقفوا بثقافتها وتشبعوا بمبادئها وأهدافها فها نحن نجد أيضاً شعرهم يتغير.

ـ 4 ـ

نُوتَابْ نَجْباسْ إيباسْ نَقْبال.
1 ـ تازْ يسمّاوِين تِيداو نِدّار.
2 ـ إنْ يايتْما كُوضِطْ يُسْلام يستُّوره ديذْ إيبَاسُ تِفّازْ.
3 ـ تَمُّوسْ الأخَالْ آمون دغْ مان إيهانْ آشْنِي إيها جِرْجازْ.
4 ـ وازْ ليسِفْرَانْ سَلْ إِأجَزْار.
5 ـ آن إيميدّنْ وين كَلْ غَزْمانْ آنْ إيضِدَّنْ إذْكَلْ رَجْوانْ باسْ هينْ أقيم هار أَتَّالمْ جَمْ يَتبدِّي إيّتْ تَكْنام.

6 ـ آلياظْ تامغارْتْ غارِدْ ترضامْ.

7 ـ إيشِنْجا دِيدْ إيباسْ أوذَانْ آيْنْ نِسْتَفْيسيفيوْ آرْغانْ فَلْ آدْ تاكْرِشْ أكَالْ إيمْدانْ ناديت نَقّام إيباسْ نوشَالْ.

8 ـ نَاكْرِشْ تومَاسْتْ نَكْنُو إيغَرْمانْ ناكْرِشْ تاغاسْتْ ناجْ إيفَرْجانْ.

يا الله تاذْهِلْتْ آدِكْ نِتّارْ فَلاَدْ ناطِفْ أدِّينْ نيسلاَمْ.

9 ـ تاسِدْ تِيلْوَاتْ إيتيلاً إأوزار.

التعـريـب

1 ـ إن هذا الوضع الذي نعيش فيه سيىء.

2 ـ قل لإخوتي إن الثورة قد أعلنت.

3 ـ إنها قضية في الروح والقلب والدم.

4 ـ ليس هناك الآن حل سوى الحقد.

5 ـ قل لرجال المدن. والنساء، وسكان الغابات والقرى لم يبق إلا حضوركم. ووقوفكم جميعاً موحدين.

6 ـ أيها الطفل. أيتها العجوز. يجب أن تتفقوا جميعاً.

7 ـ الأعداء لن ينعموا بالسلام بعد اليوم. سنطردهم بالنار المحرقة. وستكون لنا الأرض كلها. وسنبنيها ونعمّرها ونقيم فيها ونوقف الترحال.

8 ـ ستكون لنا دولة. ونبني المدن. وسيكون لنا وطن. وتكون لنا حدائق. ونطلب من الله العون لحماية الإسلام.

9 ـ وتعم السعادة كل البؤساء والمضطهدين.

ـ 5 ـ

وهذه القصيدة الأخرى الصغيرة يخاطب فيها التارقي أحفاد البطل (أزميلُّو) ويطلب منهم في هذه الأبيات الرمزية أن يغادروا مواطن البؤس قبل أن يصيبهم الفناء.

إيمدوَنْ داغْ آميلُّو.

1 ـ آفْلِتْ دَاتْ فادْ إيدْ إيغيفْو.

2 ـ آيثا فَانَاغْ آغِلْ أوليٍّ.

3 ـ سِكْنِتْ سَالْ مَازْ آسنْ إنغيلُّو.

التعـريـب

إخواني أبناء ازميلُّو.

1 ـ غادروا قبل العطش حتى لا يصيبكم الضُّمور.

2 ـ هذا العطش سيأخذنا مثل المعيز.

3 ـ أظهروا له أننا نغادر عند الغسق.

ـ 6 ـ

أما القصيدة السادسة، فإنها وعيد لحكومتي مالي والنيجر اللَّتين تضطهدان التوارق وتجبرهما على الفرار شمالاً وجنوباً، تقول القصيدة.

مالي إذْ نيجر أتّرْماغَامْ.

1 ـ ولا دولة اتّنهيَامْ أوتَاماشَقْ آدّرَّابَنْ.

2 ـ الرشاشه دَلْ المدفَعَنْ دازركيكي وايْ تاغّادين.

3 ـ إيراها التاريخ واتِنْكَرامْ.

التعـريـب

مالي والنيجر ستخافان

1 ـ خاصة عندما يسمعون أن التارقي تدرب.

2 ـ على الرشاش والمدفع ولعلعة الرصاص.

3 ـ إنه يطلب منهم كشف التاريخ.

ـ 7 ـ

أما القصيدة السابعة التي نوردها كمثل من أمثال شعر التوارق الحديث المعطش للثورة الإسلامية والتي تهدف إلى تحرير صحرائهم من ظلم الأعداء ومن الاستعمار فهي:

يا مسِّينا إي توس نَانَاغْ.

1 ـ مالي إو نيجر آكال ناناغ.

2 ـ تكنيد ثورة إيدغ ناناغ.

3 ـ فال تاماتِّينْ مِيدَنْ ناناغ.

4 ـ يا قَوّاتينْ أغَدْا ناناغ.

5 ـ أتَزْجَرَمْ زابو ناناغ.

6 ـ وازْ تدُّوبيمْ تيشال ناناغ.

7 ـ أغْرِدْ ناسَّان هدفْ ناناغ.

8 ـ اتْخَرّزْ تُوماسْتْ ناناغ.

التعـريـب

يا الله هذا هدفنا.

1 ـ مالي والنيجر أرضنا.

2 ـ بلغ بالثورة أهدافنا.
3 ـ من أجلها يموت دوماً رجالنا.
4 ـ أيها القوادون أنتم أعداؤنا.
5 ـ اخرجوا من طريقنا.
6 ـ لا تستطيعون أن تفعلوا مثلنا.
7 ـ كلنا نعرف أهدافنا.
8 ـ وسنحرر أوطاننا.

هذه سبع قصائد في أغراض مختلفة أخذناها مثلاً للشعر التارقي والملاحظ أن الشعر التارقي هو أيضاً موزون ومقفى وموحد الهدف، ومتنوع الأغراض.

ب ـ النـثر

للتوارق أدب نثري قوامه القصص التأريخية وتاريخ البطولات والأساطير الشعبية عن العفاريت والجن وغيرها ولكن هذه الثروة الأدبية غير مكتوبة وبالتالي يصعب استقاؤها من المصادر المكتوبة وإنما تتناقل مشافهة بين الأجيال.

وقد استطعت جمع مجموعة من الأمثال الشعبية التارقية التي لا تختلف كثيراً في مضمونها وخلاصتها عن الأمثال العربية سواء منها الدارج في الشمال الأفريقي أو الفصيح من أدب العرب في جزيرتهم أيام سطوتهم وقوتهم.

الأمثال الشعبية التارقية

1 ـ آمان إيمَانْ..

وهو نفس المثل الشعبي الليبي: «الماء أمان» ـ أي أن الماء هو الحياة واليمن والراحة.

2 ـ أَسْتَنْتَنِيا إِيْلَوانْ أَسَنَاسْ آمَانْ أَسِيْلوَان.

المعنى: إذا رأيت قوماً مترفين ويعيشون في بحبوحة من العيش فاعلم أن سبب ذلك توفر الماء لديهم.

3 ـ إِكَيْوَرْ نَزّدايْ إِشَاتْشِيكْ إِضَانْ.

المعنى: الذي لا يعرفك يحرض الكلاب على أكلك.

4 ـ تَزِيضَارْتْ نَلليٍّ تُوقْدا أَتْغْرَسَتَنْيات.

المعنى: صبر الشخص الحر يساوي عمره أي عليه أن يتحلى بالصبر طوال عمره.

5 ـ شُكِيوَرْتَها زُنْ تَها آجَضْ.

المعنى: التي ليست فيك فكأنها في الحمار أي أن المصيبة التي لا تصيبك مباشرة، فكأنها أصابت حماراً فلا تشعر بها.

6 ـ أَقَمْشَكْ تُوقُوسْتْ أَدَغيتارزُّوا.

المعنى: المسحاة لا تنكسر إلا في المزرعة. ويقصدون أن الشخص يجب أن يقضي عمره في مجال تخصصه. والمثل ينبع من نظرتهم الاجتماعية لرسوخ الطبقات في مجتمع التوارق.

7 ـ آطَرِيَاغْ أَقْمِيتْ، أَوَاوَرْتَرى سَتْمِيتْ.

المعنى: الشيء الذي تريده اطلبه وحدك شخصياً وهذا المثل بمعنى المثل العربي:

مـا حـك جلـدك مثـل ظفـرك فتــول أنــت شــؤون أمــرك

8 ـ إيورنرا أقّاضْ إقْمَضْ آجِيرْ.

المعنى: من لا يحب الغبار فلا يبحث عن الـ(آجير) والآجير هي حبوب مدفونة في تراب الصحراء يحفر عليها الأطفال بالعصي ويأكلونها. ويسميها الليبيون (تميّرْ) تصغير تمر والمثل يضرب لمن يريد المكاسب بلا متاعب.

9 ـ واز أوفْري يَنْ آمْزَدِين يالهي.

المعنى: شعر الرأس لا يشعر بالبرودة، أي يقال المثل لمن تغضب عليه وتعنفه وهو لا يحرك ساكناً.

10 ـ آغان شِدْرينْ وازْماديَبا آتاكوكَلَنْ.

المعنى: الحبل الطويل لا يمنع من الرفس وهو المثل العربي الليبي نفسه: «طول الخيط يضيّع الإبرة».

11 ـ آجِرْتِدْ دَارَاكْ آتَتْ تَنْهَيادْ داتاكْ.

المعنى: ارمه إلى الخلف ستجده أمامك، ويقصد بالمثل: «اعمل الخير وانسه ستجده أمامك غداً».

12 ـ سِيغَارُوانْ كُورْ كور إيتْ مازُوجِنْ.

المعنى: احترام القرع للأذنين. ويقولون هذا المثل للاحترام الزائف من شخص ما ويريدون تنبيهه بذلك فيقولون: إن احترامك كاحترام مرض (القرع) الذي يصيب الرأس لأذني المصاب. إذ إن عدم وصوله لهما لا يعني أن المريض غير مصاب.

13 ـ أوفَا إيلال أرْزَن داغْ تاغْمَا أوهِنْ إيلاَلْ إرْزَن داغْ تِنّا.

المعنى: نبيل مكسور الرجل أفضل من نبيل مكسور الكلام. ويقصدون أن تكون مكسور الرجل أفضل من أن تكون كاذباً في كلامك.

14 ـ تقّلِدْ تَسرْوَلْتْ شاجْ آيْدِي.

المعنى: أرنب عاد يصطاد لكلب. ويقصدون بالمثل: الضعيف يطلب منه مساعدة القوي وهذا غير ذي فائدة.

15 ـ وَرْطَه صِيدْ داغْ تكْمُونَانَاك.

المعنى: لا تسخر من مصيبة أخ فقد يصيبك ما أصابه.

16 ـ تلاّهِين تاهيت تَزّار يَاضَرْ.

المعنى: الرجل العليا دائماً عليا. أي أن الرجل النبيل سيبقى نبيلاً.

17 ـ رَاسْ تندِرْمَاسْ إيترْ آدادْ بِلْ تِينْ إياضْ.

المعنى: لا يستطيع إطعام أمه ويريد إطعام أمهات الناس ويقال هذا المثل للذي لا يستطيع فعل الخير لنفسه ويحاول فعله للآخرين.

18 ـ آري تَرنْتِيلِي هازْ ايجَرَوْ إيْهَضْ إيسُونْفِيتْ.

المعنى: الذي يبحث عن الظل ويكره الليل فمن الأفضل له أن يستريح. ويقصدون بالمثل: إذا كنت تبحث عن الأخوة وتكره الصداقة بالأفضل لك أن لا تفعل، لأن هذا لا يتحقق.

19 ـ وْرِتتْ إيَرتْ يَنّاكْ وارين آكْسُودْ يالله.

المعنى: لا تطلب السوء لمن لا يخاف الله. لأن عدم خوفه من الله قمة المآسي.

20 ـ آنّاكْ كيْ أوجَرَنْ تِلِىَ إيتَدَجْ هرَدْ.

المعنى: الأخ الأغنى منك يستصغرك دائماً.

21 ـ آفُوسْ إيلاَنْ آسكْنْف وازْ إيرقْ.

المعنى: اليد في القفاز لا تحترق. ـ أي من له قوة أو جاه لا يخيب.

22 ـ وايْ جَرَنْ تايلا لتنيسْ تَرْزَاتْ إسْ تُيُورِيدْ تَرْزَا إقَدْنَتْ تِيسَّنِي.

المعنى: لا ترم الطائر في السماء بطائر في يدك ستخسر الاثنين. وهو بمعنى المثل الشعبي الليبي: يطلق الطير ويجري تحته. وبمعنى المثل العربي: «طائر في اليد خير من عشرة فوق الشجرة».

23 ـ آري وارين أوغِيصْ ايهْرنِّيسْ آداغاز وانيضْ.

المعنى: من لا يحرس ماله يحرس مال غيره أي الذي لا يحافظ على ماله ويتركه للضياع سيحتاج للعمل في حراسة أموال الآخرين.

24 ـ آري كي إيَكْفَنْ سفُّوسْ إيّانْ آهاك آغي إسْ وايَاضِنْ.

المعنى: الذي يعطيك بيد يخنقك بالأخرى. أي أن الذي يعطيك ويتفضل عليك لا شك أنه يجعلك مديناً له ودينه في عنقك تسعى لخلاصه.

25 ـ أوْفانِتْ تِيغَادْ نْيُوغُوزْ تينُ آزال.

المعنى: أن تعرق وأنت تحرس أفضل من أن تعرق وأنت تبحث. أي لأن تتعب وتسهر في حراسة إبلك خير لك من أن تتعب وتسهر وأنت تبحث عنها.

26 ـ أوكَلْ آكَلْ وازْهينْتْ نَاهَاغِينْ.

المعنى: مهما كانت يقظتك لا بد من الخسارة في بلاد ظالمة. ومعنى المثل أن اليقظة تحتاج معها لقوانين تحكم البلد.

72 ـ أواتْرهِيدْ آتَرْتْ أوازْتَرْهيدْ سُوتَرْدْ.

المعنى: ابحث عما تريد واجعل الناس يبحثون عما لا تريد. أي اهتم بشأنك واترك الناس يهتمون بشؤونهم.

28 ـ آرِي كَيْ أورْدَنْ لازْكَيْ أردو نِيكْرَا.

المعنى: من يشك في أنك جائع يشك في أنك لص.

29 ـ آري ويرينيلا هَاردْ وازْ إينسْ.

المعنى: من لا يملك شيئاً يجب أن لا يستريح. والمثل يعني الحث على العمل.

30 ـ أبرَزْهان آمَالَنْ آزْدُت.

المعنى: من يحب البياض عليه أن يوفره، المثل يدعو لتوفير المرء حاجته بنفسه.

31 ـ إيْتماسْ إكْلاَنْ تَقُّوكْ إيشِخْبَانِّيتْ إكلانْتِلِي.

المعنى: إخوانه في الشمس وأعداؤه في الظل، يقال المثل لمن يحسن لأعدائه ويقربهم ويسيء لأصدقائه وأقربائه ويبعدهم.

32 ـ وزْتَقِّيلْدْ إيجاكِسْبَا اِيمِيدَنْ إكْسِينَانْكِي ورتقِّيلْدْ تازْيُوتْ إيمِيدَنْ ألمازَنكي.

المعنى: لا تكن فلفلاً فتعطّسْ ولا تكن عسلاً فتلحس وخير

الأمور الوسط. وهذا المثل قريب للمثل العربي. «لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر».

33 ـ آتِنْوِرْ تِيمَتِّي آتِّاوِي تابتِّي.

المعنى: كل ما يخفيه الناس يُعرف بالذكاء أي هناك دائماً من يستطيع كشف ما تخفيه وهذا أشبه ببيت شعر لزهير بن أبي سلمى حيث يقول:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

34 ـ آشِلْ تَرْهيدْ دي وِرْترهيدْ هارْدَاسْ وَوَرْهيدْ.

المعنى: يوم تحبه ويوم تكرهه إلى أن تحين المنية. وهذا المثل هو المثل العربي التالي نفسه: «الدهر يومان يوم لك ويوم عليك».

35 ـ إيمَنْ أنْبَاهُو وارْمَا قَرَنْ وادِيْفلَنْ إيجِيجْ.

المعنى: الكذاب الجيد يأتي من بعيد. وهو المثل الشعبي الليبي نفسه. «تغرّب واكذب».

36 ـ مَامَا دكّسْ وارْ إي تِقّرْ.

المعنى: من لا يحفظ شيئاً لا يستطيع إظهار شيء. والمثل يحث ويحرض على الادخار.

37 ـ مَامَا دِلْمِدْ وارْ إيسِسْتِينْ.

المعنى: من لا يطلب شيئاً لا يحصل على شيء. أي أن الذي يريد تحصيل العلم لا بد له من لسان مسؤول.

38 ـ تايْلاَلْت تُوسِدْ شَجْ إيكَزْ.

المعنى: جاءت القطاة تصطاد الديك في المدينة. والقطاة هي

طائر يعيش في الصحراء. ويقصدون: أن البدوي لا يمكن له أن يعيش في الحضر أو مثل سكان المدن.

39 ـ وَرْطَتْ صِيدْ دَاغْ آرْ إينايِنْ تِسْ نَايِدْ أزَقَرْ.

المعنى: لا يسخر الأقرع من الأعور. أي لكل ذي عاهة عيب يغنيه عن شتم الآخرين.

40 ـ تاكَمْتْ هانِّي آفْرُوغْ وانْ تِيميدِي ونِّيسْ وازْهِنِّي وانِّيسْ.

المعنى: الناقة لا ترى اعوجاج رقبتها وهو المثل الشعبي الليبي نفسه: «الجمل ما يشبحش لعوج رقبته».

هذه مجموعة من الأمثال الشعبية التارقية أخذتها هنا للدلالة والتوضيح على صيغة التوارق في أمثالهم ومقاربتها للأمثال الشعبية العربية، الدارج منها والفصيح ولو أننا أوردنا مجموعة كبيرة نسبياً من هذه الأمثال، وسبب ذلك أن أمثال التوارق غير مدونة وغير مدروسة في كتب يمكن للقارىء أن يرجع إليها أو يطلع عليها، لهذا حاولت التبسط في سرد الأمثال حتى يكون القارىء على بينة ولو بسيطة بأمثال التوارق وحكمهم وخلاصة تجاربهم في صحرائهم.

جـ ـ الأحاجـي

الأحاجي هي ألغاز شعبية يسمر بها الصغار وأحياناً الكبار في ليالي فراغهم ويتندرون بها ويختبرون بها ذكاء بعضهم بعضاً.

وتنقسم المجموعة السامرة إلى مجموعتين كل مجموعة تلقي بلغز للمجموعة الثانية وإذا لم تستطع الإجابة عليه تعتبر المجموعة الأولى منتصرة ويستمرون في الألغاز وإيجاد حلولها حتى ساعة متأخرة

من الليل حيث ينفض الجمع ويعود كل فريق إلى منازله للنوم وفي الصباح تبتلعه مشاق الحياة وظروف المنطقة من رعي وسقي وجلب حطب ومهام أخرى.

وعندما يلتقون في الليل يعودون للسمر كالليلة السالفة وهكذا. ومن أحاجي الأطفال ننتقي هذه المجموعة لنلقي بها الضوء على أحاجي التوارق في سهراتهم.

1 ـ آمْغَارْ أولاين سِيسِي نِيتْ ـ أبوُرَاغْ.

التعريب: ماذا يعني شيخ مربوط من سِنّه؟

وحل **الأحجية**: التمرة والنواة.

2 ـ تالْيَاتْ تاسَّدْوِلْ تاغاقْ ـ تاسِنْدُوتْ.

التعريب: بنت ربّاها وكبرها الرقص.

حل الأحجية: الزبدة. (إذ من المعلوم أن الزبدة تتجمع ويكبر حجمها عند مخض اللبن).

3 ـ آكَالْ إيْجَانْ تيكسْت ـ تايا تُوفْت.

التعريب: أرض مرقّعة.

حل الأحجية: بيت النمل.

4 ـ إيْتنزْ إنْ مِليٍّ وَنْ إيشنّاوِنْ دِيتْرَانْ.

التعريب: شيخ يغربل (البرقوق).

الحل: السماء والنحوم.

5 ـ آلْيَاضْ وارِينْ أكْسُوحنْ تِي هايْ ـ آجَاهْ.

التعريب: طفل لا يخاف الظلام.

الحـل: الدلو إذ إنه ينزل إلى أعـماق البئر المظلمة، فهو لا يخشى الظلام.

6 ـ تَالْيَاتْ وَازْ إيتُوكْسُوضْ إيسِنّانِنْ ـ تُوتَالا.

التعريب: بنت لا تخاف الأشواك.

الحـل: البلطة. وهي الفأس الذي يقطع الأشجار.

7 ـ آلياضْ وارينْ يايلا تِنْفَاهارُ هاسْ تاغَشِدْ إزكّانِيضْ ـ تَيَنْضرِبَاتْ.

التعريب: طفل لا نعرف فائدته إلا عندما نبني له خيمة.

الحـل: الفخّ. الشرك الذي يوضح لاصطياد الحيوانات.

8 ـ إلياضْ إلانْ تَسَانْلِيسْ جَرْ سيشّيصْ ـ إيسْوَايْج.

التعريب: طفل بطنه بين أسنانه.

الحـل: المشط.

9 ـ آلياضْ وَرَينطّسْ هَارْ آدَاقِلْ دَاغْ جِرْجارِنِّيسْ سد آسِمَّاهِيدْ.

التعريب: طفل لا ينام إلا عندما يدخل في صدره.

الحـل: الموسى عندما تطوى.

10 ـ تَامْ كَنِناشْ ـ إيلُو إيتّرَانْ آدكْلُو دَاوْ تَلاَخْ.

التعريب: أكبر مستحيل.

الحـل: فيل يستظل بالنجم (وهو عشب صغير ينمو على وجه الأرض).

11 ـ آهتّينْ إينِجوَانْ ـ إيلَلْ كُودْ أوكَرْمِيتْ إيرِيْدْوَنْ.

التعريب: قُلَّة تموء. عندما تموء القلة تتهم البقرة.

الحـل: إذا سرق النبيل يتهم الفقير.

12 ـ إيمان نالْ هَنْدْ ـ تازْ تاضغّلْتْ تُوفِيتْ تاشُورِي.

التعريب: بيت من صُلْب.

الحـل: حماة رديئة أحسن منها ضبع.

13 ـ آسِنّان نافَارَاجْ ـ آركَنْهَرَاجْ.

التعريب: شوكة خنزير.

الحـل: الجار الرديء ـ جار السوء.

14 ـ تَمَرْغِيتْ أنْتَمانَافُوتْ ـ إيهَانَانْ وارْهَامَاكْ وَرْتَلَهَا تهايند.

التعريب: فضلات قديمة بجوار البقرة.

الحـل: مخيم بدون حنان.

15 ـ إركِيفَشْ نارا نيدي ـ تِطّاوينْ إنيمَارْهِنِين وِرْهَاسْنِدْ ماديبا آنا مَسَجْرَ.

التعريب: نوم كاذب لكلب صغير.

الحـل: عيون المحبين ترى بعضها حتى بألف حارس.

16 ـ آبِلْبِلْ إنبَاجَن هَارْ إسَا ـ ياغُفْ.

التعريب: برّاد به سبعة ثقوب.

الحـل: الرأس بها (عينان وأذنان وأنف وفم).

17 ـ تِقّيدْ يَهَادْ تِقيّدْ يَهِينْ تَسْوَفْ إينْهَال هانِينْ موريتاني ـ تيفَاوْتْ.

التعريب: كرة تطير هنا وفي نفس الوقت تجفل النعام في موريتانيا.

الحـل: الفجر.

18 ـ إيناكيل نَلَمْ نِيدي ـ تَمِطْتِنْ سِيثْ ورْجَمَرْ أوري.

التعريب: حذاء بجلد كلب.

الحـل: المرأة الشرهة التي لا تستطيع أن تصنع الزبدة.

19 ـ تِغَايْدِذْ اسَّذْوِلْ إيجُووِي ـ تِيلاَجَاصَتْ.

التعريب: معزى تكبر مربوطة.

الحـل: البطيخ (الدلاع).

20 ـ آلْيَاضْ تاسي تَاسُّو تَرَدْ إيسَاغِيرَنْ وازْهينْ إيتِي وَلِيّانْ ـ اسَمّاهِذْ.

التعريب: طفل تبعثه يحتطب فلا يترك في الغابة شجرة واحدة.

الحـل: آلة الحلاقة.

21 ـ آيِتْوَازْ يالله ـ آكِلْكِلْ.

التعريب: الغُبْرة التي كساها الله وتركها مخفية.

الحـل: المخ (الدماغ).

22 ـ تيلِلْتْ ناسْجِنْ ـ آكْلِي.

التعريب: الخشب الأسود.

الحـل: الزنجي.

23 ـ آجيدُودْ إيهانْ إيَانْ ـ تاكْلِيتْ تاطْكارِتْ.

التعريب: قربة جديدة في داخل قربة قديمة.

الحـل: زنجية حبلى.

24 ـ آسِيَازْ أنْتُهُونْتْ ـ آري وَزْتَازَيّيذْ إسَّاوَا ياكِذْ تَاهْولتُ.

التعريب: مفتاح من حجر.

الحـل: هدية تذكارية معطاة من غريب.

25 ـ وَرَمُّوكَنْ إيجَا ـ إيلُو اجَلّطْ أوسِّيتْ.

التعريب: أكبر شيء خارق للعادة لم يُرَ أبداً.

الحـل: فيل تصرعه نملة.

26 ـ تَسْكُو وَلِتْ واغْ تافَارَاوِيتْ كُووَلِتْ ـ تِيلِّيكْ.

التعريب: بقرة سوداء في غابة سوداء.

الحـل: قملة في الشعر.

27 ـ آلْيَاضْ أُوغاينْ إيماسْ ـ آسَغّارِنْ نِيدِيذْ.

التعريب: طفل صغير يخنق أمه

الحـل: رباط القربة (حبل صغير يربط به فم القربة).

28 ـ آدْجَاجِنْ إي دْجَاجِنْ إسَّامَنْ آيْسَامَنْ إسّيوَالْ آكُرْوَاتْ دَاغْ تَاسَّا إنْ ماسْ ـ آشِلْ إيلْ كمِنْ.

التعريب: ما هو اليوم الذي يرعد فيه الرعد ويبرق فيه البرق ويصبح فيه الخروف في بطن أمه؟

الحـل: يوم القيامة.

29 ـ تاهاغِيتْ جَرْخانِتْ ـ تَرْهَا وَرْتَتْ دي تِيرُو أوتَرْ.

التعريب: بقرة متعددة الألوان.

الحـل: الصداقة للمنفعة.

30 ـ ألكين إيسَاكّرِين ـ تَرْها.

التعريب: القدر يخمِّر الحب.

الحـل: الصداقة لا تخلق بالطلب.

31 ـ وانَغْ إيجَفَنْ إنْهايَاغْ إيلُو إيتْشِنْ آزْفَرْ ـ مانّا.

التعريب: اعتلى كثبان الرمل ورأى نملة تسلخ جلد فيل.

الحـل: الأرض الجرداء (الجفاف).

32 ـ إيلاَكِذْ دالِنْ إيلاّن جاز أوللِيٍّ وزْتِيَّنَتْ ـ تيهوساي إن ولَتْ ماكْ ماهَاكْ إيكتَنّد.

التعريب: غصن مورق بين عنزين لا تأكلانه.

الحـل: جمال أختك (إذ إن الأخت لا يحل لأخيها أن يتزوجها).

33 ـ تالْيَاتْ سِيتْنسةْ آتَيْ آذْرِيسْ دَاغْ آكَالْ ـ تَاوَسِيتْ.

التعريب: البنت عندما تنام تترك دائماً أثرها على الأرض.

الحـل: الحصير.

34 ـ آيَرْجاشِنْ فَلْ أرُورِينْ نِيتْ ـ إيفَاكِيلْ.

التعريب: شيء يمشي على ظهره.

الحـل: الحذاء.

35 ـ ألْياضْ سيدي لها آوَيْ آوايْ هَنْ تاساتِّيتْ ـ الْبَارُوض.

التعريب: الطفل عندما يبكي يفرغ كل ما في بطنه.

الحـل: البندقية.

36 ـ إلماغَنْ غَاغْ آمِنْ مِشّانْ وارْبيدّجَنْ ـ إيسَنِنْ.

التعريب: دائماً في الماء ولكنها لا تبتل.

الحـل: الأسنان.

37 ـ إسْوَا دِنْدِيناغْ انْدَرْ يالله انْغَانانا ـ إيتْرانْ.

التعريب: شجرة طويلة ليس لها ظل.

الحـل: رمح.

38 ـ آهِشْكَ شِجَرينْ وارِينْ إيجَاثيلي إيمَسِيسْ ـ ألآغ.

التعريب: الرؤية البعيدة إذا لم تكن من الله تقتل.

الحـل: النجوم.

39 ـ سِمُّوسْ مِيدّن واتْنينْ تِسْ سانو ـ إسُكّاضْ إدْ تِكْرَتّيشْ.

التعريب: خمسة رجال يقودون بقرة إلى حفرة.

الحـل: اليد والأصابع الخمسة أثناء الأكل.

40 ـ تِغْنَاسْ مشّان كَلاَتّوَرْ تَسْوَرْ إيغَافِنّيت ـ تِيسْتَانْتْ.

التعريب: تلبس تانغو لحافاً ولا تضعه أبداً على رأسها.

الحـل: المِفَكْ.

41 ـ أودِيسْ سِي تتْكَالِدْ تالِينْ كوُتَنّيتْ آتِنْهِيدْ آوَايْ هَنَ تاسَانِيت إيهاكِيدْ.

التعريب: ثور عندما يرفع ذيله ترى كل ما في بطنه.

الحـل: حبال الخيمة.

42 ـ آلْيَاضْ إيـلاَنْ كُـوزْ دَارِنْ إدّ تـارْ فـامِشّـانْ وَارْ إيسِـسْ وَارْ إبَرَجَشْ آجَارُوفْ.

التعريب: طفل له أربعة أرجل وبطن ولكنه لا يمشي.

الحـل: عشبة في الصحراء لها جسم وشوكتان من الأمام وشوكتان من الخلف يسميها التوارق (اكْرَامْ ـ اكْرَامْ).

43 ـ آيْتَايَنْ نِسْدَا رِتنّيتْ إيسَاسَا داتّاسْ ـ آمْدَغْ.

التعريب: الحيوان الذي يأكل من الخلف ويشرب من الأمام.

الحـل: الزرافة.

44 ـ تامِطْ وَرَيتْ هَنِّي هارْ آتِسُّوتْ ـ تِيفَانِلْتْ.

التعريب: امرأة لا ترى إلا وهي حامل.

الحـل: المصباح (لا يشتعل إلا بالبطارية).

45 ـ سُومُوْساتْوَانْ ذِزْفَرْ ـ تِنْسَاوِينْ آجُوشْ.

التعريب: خمس بقرات وثور.

الحـل: الأصابع الخمسة والقدم.

46 ـ آلاجُودْ آمُوَرادِينْ ـ إينْسْجَامْ.

التعريب: بعير يزحف.

الحـل: القلق والتفكير الدائم.

47 ـ آمْغَارْ وارِينْ إيسِسِّينْ ماجْرَدْ ـ أناهِيلْ.

التعريب: أكبرهم سنًّا ولا يستطيع الكلام.

الحـل: النعامة (أكبر الطيور ولا تطير).

48 ـ آيْ بِيِيْ واينْ تِيمِيضِّي إنْ تَسْ وَارْ إيوَايْ تسَّيتْ تِنْسَات ـ زابو.

التعريب: الشيء الذي يستطيع حمل 100 مائة بقرة واقفة ولا يحمل بقرة واحدة نائمة.

الحـل: الطريق (الطريق الضيق في الجبل).

49 ـ تَمَـطْ تِيرْوَتْ إسْ سَاشْـرُو تنَيـتْ دَهَـالِيسْ إيتْيـرَونْ إسْ تاسَانِّيتْ تافَاراسْتْ إذْ أنَافَذْ.

التعريب: زوجان. الرجل يلد من ظهره والمرأة تلد من جنبها.

الحـل: عود الثقاب يشتعل من جنبه والحديد من ظهره (ويقصد بالحديد الزناد الذي يقدح به الحجر).

50 ـ آلْيَاضْ إيلاَنْ إيضَارِنْ هَرْكُوكْ آسينا كَرَافِنْ ـ تَمَارْكِدِيدَ.

التعريب: طفل مربّع رجليه دائماً.

الحـل: ألواح على شكل مربع لحمل الأغراض في خيام التوارق.

51 ـ آلاَغْ ايغْتَانْ سيشَلْ ـ إوَادِمْ تِزَّايِدْ سِي والاَكْ دَاغْ سَالاَنْ نِيتْ.

التعريب: رمح مغروس في الأرض.

الحـل: شخص تعرفه جيداً وهو دائم التعريف بنفسه.

52 ـ طُولْمَانْ كراضيتْ سِي هيينْ تَقّيم إيَتْ وارْتَازِجْنِتْ ـ إيسْجَاذْ.

التعريب: له ثلاث نوق إذا نقصت واحدة لا يحصل على اللبن.

الحـل: حجر الصوان والحديد والخرقة وهي الأشياء الثلاثة التي يحصل بها التارقي على النار.

هذه بعض الأحاجي التارقية استعرضناها هنا لإعطاء فكرة على تفكيرهم وطريقة طرحهم للألغاز وتشبيهاتهم ومشبهاتهم وجميعها مأخوذة ـ كما لاحظنا ـ من البيئة الصحراوية.

الغناء والموسيقى عند التوارق

الغناء عند التوارق كالأكل والشرب. لا يستغنون عنه ولا يقلعون عنه. فالتارقي يغني في بيته وفي طريقه لجلب الماء، أو لسقي الحيوانات، وفي صحرائه وهو يمتطي ظهر جمله المهاري يتغنى ليطرد الملل والنعاس في ليالي الصيف الرطبة حيث يحلو له السير بعد يوم من الحر القائظ. وكما الرجل كذلك المرأة. ففي جميع المناسبات تغني المرأة في الأفراح بجميع أنواعها. وهي تضرب على آلة الإيقاع (التينڈّي) وهي أيضاً ترافق صوت (الأمزاد) الجميل.

وغناء التوارق حسب ظرفه، إما غناء بالأمجاد والبطولات، وإما تشبيب بالحبيبة في الطرق الطويلة المملة فوق ظهر المهاري، وإما غناء مناسبات يردد أشعاراً وضعت قديماً في موضوع المناسبة.

وللتوارق مجموعة من الألحان المتعارف عليها يغنيها الأفراد في مناسباتها.

ومجمل الحديث أن التوارق قبائل مغنيّة ككل الصحراويين. والتارقي يتخذ من صحرائه تشبيهاته وأوصافه، ولا يبتعد كثيراً كثيراً عن صحرائه.

الموسيقى: للصحراويين جميعاً مجموعة من الآلات الموسيقية

المصنوعة في الصحراء والتي يعزف عليها الحذّاق منهم (من طبقة الحدادين) في الأعراس والأفراح. ولعلَّ أهم آلة في بلاد التوارق والتي يشيدون بها بما يشبه التقديس هي:

1 ـ الأمزاد: ويسميها العرب الليبيون (القمبري) وهي عبارة عن قدح من الخشب يربط على فمه جلد شاة ويخرج من طرفيه عودان يشد بينهما قضيب من شعر الخيل. كما يثقب الجلد ثقبين أو ثلاثة في الوسط. ويأخذون عوداً على شكل هلال ويربطون طرفيه بقضيب آخر من شعر الخيل (شعر الذيل) ويدعكون الشعر ببعضه فتصدر صوتاً جميلاً يغيرون نبراته بتبديل أصابع اليد اليسرى حيث تكون اليد اليمنى منهمكة بالدعك. وهـذه الآلة أشبه ما تكون بالربابة العربية أو (الكامنجة) الأوروبية.

وفي ليالي سمر شباب التوارق يجتمعون عند فتاة جميلة تجيد العزف على الأمزاد فيتحلقون على كثيب رمل يستمعون في إصغاء يشبه الموت لصوت الآلة وأصابع الفتاة تحرك بها أوتار القلوب وتغني على أنغامها فتزيد الصحراء وسكونها الصوت رهبة وخشوعاً ليس له مثيل في غير الصحراء.

وعند انطلاق التوارق للحرب يجتمعون ليلة هجومهم على العدو، أو خروجهم للغزو جميعاً يستمعون للأمزاد إلى الصباح حيث ينطلق الجميع من ذلك الموقع ركوباً على جمالهم باتجاه العدوّ. والذي يخشى العدوّ أو يتأخر يذكرونه بليلة الأمزاد فيتقدم لأن الجميع سيسمعون ليلة ما بعد العودة أخبار المعركة تغنى على الأمزاد وتذكر الشجعان كما تذكر أيضاً الجبناء.

وإني لأذكر أغنية رواها لي أحد توارق (منغساتن) في معركة وادي الثلث ضد الإيطاليين 1923، علق بذهني تعريبها الذي يقول:

انطلقنا للحرب.

الجهاد ضد الكفار.

ومنا من يذكر أحاديث الجلسات في الخيام.

ومنا من انشغل عقله من هول المعركة المنتظرة.

ومن هؤلاء «ادريس»(1) الذي وضع راحلته مقلوبة.

وذلك لشدة حيرته.

والتارقي يعتبر الأمزاد شيئاً مقدساً. وبعضهم يقسم به وإذا ما فاجأت التارقي وصاح صيحته المعهودة، فإنه كثيراً ما يقول في هذه الصيحة (الأمزاد) ولا تخلو أي مناسبة مفرحة عند التوارق من (الأمزاد).

2 ـ تزّامت: وهي قصبة صغيرة بها أربعة ثقوب يعزف عليها أحد الرجال بالنفخ وهي أشبه (بالناي) غير أن النغمات التي تصدرها هذه الآلة خاصة بالتوارق.

وتعزف هذه الآلة في ليالي السمر عندما يكون الرجال وحدهم في مراعي الإبل في الصحراء.

3 ـ المزمار: وهو المزمار العربي نفسه. ويعزف بالطريقة نفسها.

4 ـ الغيطة: وهي آلة الغيطة المعروفة. قصبة متوسطة الطول في أعلاها قصبة صغيرة تصدر صوتاً عندما ينفخ فيها النافخ وبها ثقوب يحرك عليها أصابعه، وبأسفلها قطعة مستديرة تشبه القمع.

(1) إدريس أحد أفراد المجموعة وضع السرج على جمله مقلوباً لانشغاله بالمعركة.

وهذه الآلة تعزف في أغلب مناطق الشمال الأفريقي وترافقها (الدنقة) أو (الطبل) وهذه الآلة تعزف في سلطنات التوارق المتاخمة للهوسا وفي القرى والمدن ويسمونها (الغيطة).

5 ـ تينديِّ: وهي آلة إيقاع. عبارة عن (هاون) مربوط على فوهته جلد شاة وتضرب عليه النساء في الاحتفالات وهو أشبه (بالدربوكة) في شمال أفريقيا.

6 ـ الدّف: وهو قليل الوجود عند التوارق ولكنه يتواجد في توارق الحضر في المدن (غات، أوباري، تمنغست، آقدز، تينبكتو، طاوة) وغيرها ويضرب على الدف النسوة في الاحتفالات.

7 ـ الساج: قطعتان من النحاس يمسكهما الراقص بيديه ويضربهما على بعضهما بعضاً فيصدران صوتاً يناسب الإيقاع الراقص. ويستخدمهما العبيد في رقصاتهم الخاصة بهم في بلاد التوارق وغيرها لأنها آلة أفريقية.

8 ـ الخلخال: وهي حلقتان من النحاس يلبسهما الراقص في رجليه وكل حلقة معلق عليها مجموعة من الأجراس. ويحرك الراقص رجليه بإيقاع منتظم فتتجاوب الأجراس مع الإيقاع الذي عادة ما يكون على الطبل ومناسباً للرقصة التي يرقصها لابس الخلاخيل وهذه من رقصات الحدادين والعبيد عند التوارق.

هذه جلّ آلات الموسيقى المستخدمة في بلاد التوارق. ونختمها بأكبر هذه الآلات وأشهرها وأجلّها قدراً عندهم وهي الطبل.

9 ـ الطبل: الطبل بالرغم من أنه آلة إيقاع ويستخدم أحياناً في

الأفراح كإيقاع لسباق المهاري. إلا أنه أجلّ قدراً من أن يستخدم في مثل هذه المناسبات. فهو رمز السلطة وعنوان هيبتها، ورمز قوتها، والخيمة التي تحوي الطبل لا يمكن أن تكون غير خيمة السلطان. وإذا ضُرب الطبل يستمع كل التوارق لعدد الضربات ونوعها، لأن في ذلك نوعية النداء والغرض من المهمة.

لهذا، فالطبل لا يعبثون به، ومخصص لضربه شخص موثوق فيه لا يمكن أن يقرعه إلا بإذن السلطان ويكون دائماً من عبيده المطيعين.

هـذه هـي أغلـب آلات الطـرب عنـد التـوارق، وأغلـب آلات الموسيقى في صحرائهم الشاسعة. ولو أننا لم نأت على ذكر بعض الآلات التي ينفرد بها جيرانهم العرب في منتجعاتهم أمثال (التيديناتن) أو غيرها. ولكنهم جميعاً عرباً وتوارق عرب يستخدمون الآلات التي ذكرناها في جميع الصحراء الكبرى من المحيط إلى البحر الأحمر تقريباً.

الرقص

التارقي يعشق الرقص والموسيقى. فهو يرقص إذا فرح ويرقص إذا غضب. ويعالج مرضاه أيضاً بالموسيقى والرقص ولكل مناسبة عند التوارق رقصاتها.

فللمريض يرقصون وللعائد من السفر يرقصون، وللمولود يرقصون، وللعرس يرقصون، وللختان يرقصون، وللحرب يرقصون، وللربيع يرقصون، وللمطر يرقصون، فالتارقي ذواق للموسيقى والفن.

في حفلات الرقص يرقص الجميع. وحتى كبار السن تراهم

يحركون رؤوسهم وأكتافهم في مجالسهم على أنغام الموسيقى وقرع الطبل. ويصرخون صرخاتهم المميزة. وحتى الجمال (المهاري) ترقص إذ تهرول على إيقاع الطبول أو (تيندِّي).

وللتوارق مجموعات من الرقصات بعضها يخص الرجال وبعضها يخص النساء وقليل منها الرقصات المختلطة.

1 ـ رقصة السلاح: في إحدى الساحات الواسعة ينتظم الرجال في صفين متقابلين متواجهين ويتسلحون بعصي يرفعونها بأيدٍ ممدودة وأحياناً فوق الرؤوس ثم يديرونها في شكل مروحة المطحنة. ويقترب الصفان في خطى قصيرة متقطعة حتى مسافة مترين من بعضهما عندها يوجه الرجال عصيّهم إلى الأرض في حين يشتد قرع الطبول. ثم تطلق النار ويعود الطابوران القهقرى وبالخطى نفسها، ويستمر ذلك بعض الوقت. ثم يقوم كل الراقصين بتشكيل حلقة ويدورون بخطى أسرع حول العازفين الذين يشتد حماسهم. كل هذا وسط صياح المتفرجين الحاد.

2 ـ رقصة الرمح: شاهدت في بلدة غدامس الحفلات التي تقام في ساحة السوق. حيث يجلس عازف الغيطة ومن حوله مجموعة من النسوة الغدامسيات يقرعن على دفوف صغيرة ويغنين، ويرقص الغدامسيون رقصاتهم الخاصة بهم وهم على أي حال ليسوا توارق.

ولكن فجأة يندفع أحد التوارق في لباسه الفضفاض وعمامته الكبيرة ولثامه الذي لا يظهر منه إلا عيناه وبيده رمح يمسكه من وسطه. ويشير به إلى الأمام وهو يتقدم بخطوات متقطعة جاعلاً إحدى رجليه

تمشي على أصابعها والأخرى تمشي سوية. ويتقدم وهو يهتز وئيداً حتى يصل العازفين حيث يتراجع بحماس وسرعة فيشتد قرع الطبول ويصدح صوت الغيطة فيدور التارقي حول نفسه مطلقاً صيحة حادة وتنتفخ ملابسه وهو يدور بسرعة ثم ينتظم في الرقص من جديد مرة يقع ومرة يتطاول حتى يتعب فينسحب متراجعاً إلى الخلف وقد ينطلق تارقي آخر. وأحياناً يلتقي اثنان معاً في الحلبة ويصفق الحاضرون مع الإيقاع وهم يقولون (الماخَّا يا تارقي).

3 ـ رقصة التام تام: وهي رقصة يقدمها التوارق للمريض الذي يستعصي علاجه فيعتقدون أن الجن قد ركبه، ولهذا يعزلونه في خيمة نظيفة ومزخرفة وبعيدة عن الحي. ويقوم أحد الرجال العقلاء بخدمته ولا يسأل أحد عنه أو عن نوع مرضه. ويقومون له برقصة (التام تم) على عدة ليالٍ ويعزفون له الموسيقى ويقولون إن كثيراً من هؤلاء المرضى يشفون.

4 ـ المهاري: وللجمال نصيبها من الرقص إذ حيثما تعقد الاحتفالات التارقية، فإن الجمل لا بد وأن يكون موجوداً.

والسباق بين الجمال لا يكون بطريقة السباق المتعارف عليها، وإنما للتوارق طريقة أخرى هي أيضاً راقصة. إذ يجلس الفرسان التوارق على رواحل مهاريهم المزينة بسيور الجلد ونقوش الحدادين على غرائر الجلد المزركشة، وتتدلى من الجمال سيور الجلد التي تنزل بطريقة متجانسة من كلا الجانبين حتى ركب الجمال.

ويصطف التوارق أربعة أربعة، أو خمسة خمسة، ويندفعون

بجمالهم التي تعدو خبباً على أنغام قرع الطبول وغناء النسوة وزغاريدهن حتى يمروا بجانب النسوة القارعات للطبول والجالسات في منبسط من الأرض ويتجاوزوهن بحوالي مائة متر ثم يدورون للوراء بخفة ونظام حيث يواصلون الجري في الاتجاه المعاكس وهكذا.

وتنطلق المجموعات في جريها الراقص تتاليا دون أن يسبق أحد أحداً ودون أن يجتاز الفارس مجموعته، إلى قرب المغرب. إذ عند مغيب الشمس تقترب الجمال من النسوة وتدور حولهن. ويتناول الفارس الذي يتوقع أن جمله هو الأسرع منديل أجمل امرأة بين الجالسات ويهرب به وتنطلق المهاري خلفه والذي يلحق به يكون هو الفائز ويرجع المنديل. أما إذا استطاع أن يوصل المنديل إلى الحي دون أن يلحق به أحد الجمال فيكون أسرع الفرسان وينال بذلك التقدير والإعجاب. وقد شاهدت هذا في قبيلة منغساتن بدرج عندما كنت مدرساً بها 1959 ـ 1961.

وإلى جانب هذا هناك رقصات خاصة بالنساء يرقصنها في الخيام عندما يكنّ وحدهن على قرع (التيندِّي).

كما أن هناك بعض الرقصات المشتركة يرقصها الشباب والشابات في فصل الخريف عندما تجتمع الأحياء حول الآبار المالحة، وهي تشبه قليلاً رقصات (العرضة) في الجزيرة العربية ورقصة الدبكة في بلاد الشام.

ب ـ ألعابهم الشعبية

التوارق ككل المجتمعات الصحراوية وغير الصحراوية لهم ألعابهم التي يتسلون بها في أوقات فراغهم. هذه الألعاب بعضها للكبار، وبعضها للصغار بل أكثر للصغار.

وألعاب التوارق لا تختلف عن الألعاب المجتمع العربي بصفة عامة، فالكبار يلعبون الألعاب الآتية:

1 ـ **الدامّا**: وهي لعبة يتبارى فيها اثنان ويتفرج الباقون. وهي أن يحفرا في الأرض حفراً صغيرة في مربع 7 × 7 ويسدُّون الوسطى بالتراب. وكل شخص يضع 24 قطعة من الحجارة أو من بعر الإبل. ـ لكل فرد نوع ـ ويتقدم أحدهم ويضع حجارته في المربع المتوسط فيتخطاه الآخر بحجارته ويخرج حجارة صاحبه من المربع ويظل هكذا، والذي تبقى حجارته أكثر في الرقعة يكون منتصراً.

وهي لعبة شبيهة بالشطرنج. ولقد رأيت الرجال في الصحراء الكبرى يضيعون أحياناً يوماً كاملاً في مثل هذه المباراة. ويسميها الليبيون (أم تُخُطِّي).

2 ـ **كرة العصا**: (تكْرِيكَرا) يأخذون قطعة من جلد البقر أو الجمل ويثقبونها من أطرافها ويملأونها بالقماش بعد أن يرطبوها بالماء ثم

يخيطوها فتصبح دائرية ويتركوها حتى تجف. وهنا يجتمع شباب كل مخيم (مخيمين دائماً) على حدة ويضعون الكرة في منتصف المسافة بين المخيمين ويتقاذفونها بالعصي. ويحاول كل فريق أن يوصلها لمخيم الفريق الآخر. والذي يتمكن من ذلك يعتبر منتصراً ولا يشترط تساوي العدد في الفريقين فكل مخيم يجتمع رجاله في جانب كثروا أم قلّوا.

ويكون اللعب بعصي معقوفة تصنع خصيصاً لهذه اللعبة وهذه اللعبة يلعبها رجال البدو في ليبيا أيام الربيع وكذلك في تونس والجنوب. الجزائري وفي الجزيرة العربية.

كما يلعب الرجال ألعاباً أخرى كالفروسية والقفز على المهاري ولعب السيف والرمح والقفز الطويل، والقفز العالي والمصارعة والجري وحمل الأثقال كالبراميل الكبيرة وغرائر الأحمال وصرع الإبل الصعبة وغيرها من ألعاب بدو الصحراء.

ألعاب الأطفال

يتجمع أطفال الحي في الصحراء نهاراً أو ليلاً يلعبون ويمرحون يقفزون وراء الحملان وصغار الماعز ويصطادون صغار الطيور والأرانب والجرابيع. يرافقون أمهاتهم لجلب الماء أو جلب الحطب.

كما يجتمع الأتراب المتقاربون في السن ويلعبون في ليالي الخريف أو الربيع المقمرة مجموعة من الألعاب أهمها:

1 ـ لعبة الغميضة، أو التغماية: ويسميها التوارق (ساباكو باكو). وطريقتها أن يتجمع الأطفال مجموعتين ويختارون من بينهم حكماً أو يختار نفسه ويقوم بقيادة اللعبة. إذ يقوم بخط دائرة كبيرة في الأرض

بالعصا. ويعطي الحكم إشارة البدء لإحدى المجموعتين بأن تدخل الدائرة وتغمض أعينها. ثم يعطي الإشارة للمجموعة الثانية بأن تذهب بعيداً وتختفي عن الأنظار. ثم ينطلق الذين أغمضوا أعينهم للبحث عن المجموعة الثانية. ومن رجع إلى الدائرة من المجموعة الثانية دون أن يمسه شخص من المجموعة الأولى. يعد رابحاً ويقوم هو بقيادة اللعبة من جديد.

وهذه اللعبة كنت ألعبها شخصياً مع أترابي في بادية طرابلس عندما كنت صغيراً. إذن هي من ألعاب الأطفال المعروفة في شمال أفريقيا.

2 ـ **الجمر تحت اللبن الخاثر**: (تامَامَتكاتْ دَاوْ أسِيرَيْ): يتجمع الأطفال في مكان، ثم يعين أحدهم على أنه صاحب الماعز، ثم يختار طفل آخر على أنه الذئب. وترسم دائرة على أنها مكان الماعز (الزريبة) ويجلس فيها صاحب الماعز ثم ترسم دائرة بعيدة قليلاً على أنها وكرٌ للذئب. والباقي من الأطفال هم الماعز. ثم يتفرقون للاختفاء وتكون هناك كلمة سر بين صاحب الماعز والماعز لا يعرفها الذئب. وبعد أن يختفي الأطفال (الماعز) يطلق صاحبها كلمة السر وهي تدل على الرجوع للحظيرة. وينطلق الأطفال للعودة. وهنا يقفز الذئب للقبض على إحدى المعزى أو أكثر قبل أن تصل إلى الحظيرة وكل عنز يمسكها الذئب قبل أن تصل إلى الحظيرة يدخلها وكره (سجنه) وتعاد اللعبة عدة مرات حتى ينتهي عدد الأطفال. وآخر طفل يدخل الحظيرة أو يمسك به الذئب في آخر لحظة يعتبر رابحاً.

3 ـ شَغَرْغَمْ شَغَرْغَمْ: (ضوضاء متواصلة ناتجة عن احتكاك جسم صلب بآخر). في هذه اللعبة يتجمع الأطفال مجموعة واحدة ثم يختار واحد منهم لقيادة اللعبة. ثم يبدأ الأطفال في غرس أصابعهم في التراب ويرددون كلمة شَغَرْغَمْ شَغَرْغَمْ. وعندما يقول الذي يقود اللعبة (دَسْ) يغرس كل واحد إصبعه في التراب. وعندما يقول (زُو) يرفع كل واحد إصبعه إلى أعلى. والذي يعمل عكس الكلمة التي نطقها قائد اللعبة يُعاقب وذلك بأن يذكر اسم اثنين من أعمامه أو أقاربه ويقول: (إني أقتل فلاناً) (أحدهما) بسبب (فلان) (الآخر) فيضحك الأطفال. وتبدأ اللعبة من جديد. والرابح هنا هو الذي لا يغلط إطلاقاً أو يغلط أخيراً.

وهذه اللعبة يلعبها أطفال ليبيا بشكل قريب من هذا. وهو أن يضع الجميع أيديهم على الأرض. ويقول قائد اللعبة (خريبشة ـ خريبشة) ثم يقول طار الحمام مثلاً فيرفعون أيديهم. أو يقول طار الجمل. والجمل لا يطير فعليهم أن لا يرفعوا أيديهم.

وهكذا يرفعون أيديهم كلما ذكر اسم طائر يطير. ولا يرفعونها كلما ذكر اسم حيوان أو شيء لا يطير والذي يفعل العكس يضحك منه الجميع ويخرج من اللعبة إلى أن يبقى الأخير وهو الرابح فيحق له قيادة اللعبة من جديد.

4 ـ تِمَامَلْتْ: (شهاب النار): توقد النار ويتجمع الأطفال حولها على شكل دائرة. ويأخذ أحد الأطفال قيادة اللعبة. ثم يؤخذ عود من النار يلتهب ويعطيه الواحد للآخر. والذي ينطفىء عنده العود يسلط عليه العقاب. والعقاب عبارة عن أن يذكر اسم صاحبته الصغيرة.

والذي لا يستطيع ذكر اسم صاحبته ـ كأن لا تكون له صاحبة ـ يخرج من اللعبة ويقصى إلى أن ينتهي الجميع.

5 ـ **أكُورْ ملّنْ إيدْجَشْ أكَالْ**: (الفأر الأبيض يقترب منّا): ينبطح الأطفال على بطونهم وكل واحد يضع رأسه قرب أقدام الآخر ـ العدد حسب الموجود ـ والأول هو دائماً قائد اللعبة. ويبتعد أحد الأطفال قليلاً عن المجموعة وله عصا طويلة وهو الفأر الأبيض.

وعندما يبدأ في الاقتراب من الأطفال ـ وعادة يأتي من الخلف ـ يهمز آخر طفل الطفل الذي يليه قائلاً: «إن الفأر الأبيض يقترب» ويقولها الطفل الثاني للذي يليه حتى تصل للأول وهو قائد اللعبة فيعطي أمراً بالإنطلاق فيهربون. ويحاول الفأر المنطلق في أثرهم أن يمس أكبر عدد منهم بعصاه ـ مسًا لا ضرباً ـ والذي يمسه يقصى عن اللعب وهكذا. والرابح هو الذي لا يمسه الفأر الأبيض بعصاه أو آخر من يمسّه.

6 ـ **إكرور**: هذه اللعبة تبدأ بأن يجلس طفلان قبالة بعضهما ويحفر كل واحد منهما ستّ حفر مقابل حفر الآخر. ويضع كل واحد في كل حفرة من حفره إما ست بعرات من بعر الماعز أو من حب النبق[1] أو التمر.. الخ، ثم يبدأ الأول بأن يأخذ ما في الحفرة الأولى ويلف على يساره ويرمي بالذي في يده واحدة واحدة في الحفر الموالية، ثم يأخذ الثاني ما في الحفرة الثانية يلقيه تباعاً في الحفر الأخرى. وعندما يضع الطفل إحدى الحبات في إحدى الحفر ويكون العدد زوجياً أي أربعة أو ستة أو ثمانية أو اثني عشر يأخذه له ويعتبر

(1) النبق: هو ثمار السدر. وهو شجر له شوك ينمو بالصحراء.

ربحه. والطفل الذي يلقي حبة في حفرة فارغة أو يكون العدد فردياً أو يكون صاحبه كسب أكثر منه، فإنه يعاقب بأن يردم إحدى حفره وهكذا.

فالذي تردم جميع حفره ـ الستْ ـ يكون خاسراً والآخر هو الرابح.

وهذه اللعبة يلعبها أطفال سهل الجفارة بليبيا ويسمونها (أم الناقة).

7 ـ اقتل أرانب أو أوديه: يجتمع الأطفال ويبدأ أحدهم فيقول: اقتل أرانب أو أوديه. فيردد الأطفال بعده الواحد بعد الآخر. وإذا قال أحدهم خطأ اقتل أوديه قبل أن يقول اقتل أرانب يُعد خاسراً وتعاد اللعبة من جديد إذا كان العدد قليلاً، أما إذا كان عدد الأطفال كبيراً، فإنه يخرج من اللعبة إلى أن يتم عدد الأطفال.

وهذه اللعبة يلعبها الأطفال الليبيون بأن يقول أحدهم:

ـ خطمش عليك ثعيلب؟

فيجيبه الثاني:

ـ خطم.

فيقول الأول:

ـ واذويله؟

فيقول الثاني:

خطمش عليك ثعيلب؟

ويجيب الثالث وهكذا.

والذي يقول وراء السائل (وذويله) يعتبر مخطأً ويخرج من اللعبة أو يضربونه (بالنعل) على يده وتستمر اللعبة.

8 ـ إيوان. البقر: (البقر والعصي): يجتمع الأطفال ويلقي

أحدهم عصاه بعيداً وينتظر الآخرون أن تمس الأرض فيلقون نحوها عصيهم فمن يمسها بعصاه يعتبر رابحاً ويلقي عصاه هو الأول وهكذا. والرابح هو الذي لا تمس عصاه بعصى الآخرين.

9 ـ السِّيقْا: وهي لعبة يلعبها الأطفال في معظم مناطق شمال أفريقيا. والسيق في بعض لهجات التوارق معناها (الأبيض) وهي أن تشق جريدة نخل إلى نصفين ثم إلى أربعة وتكون بطول 25 سم تقريباً. وتصبح للطفل أربع عصي صغيرة خضراء الظهر بيضاء البطن. ويجلس مع صاحبه ويحفران 49 حفرة صغيرة في الأرض يضعان في نهايتها عصا، تسمى عندهما (مكة) (الحج).

ويضعان في الحفرة الأولى من المربع 7 × 7 عصوين صغيرين ترمز كل واحدة منهما لأب أحد اللاعبين. وتحت العصوين تردم فحمة تسمى في اللعبة (الغولة).

ويلعب الطفلان بأن يقذفا العصي الأربع في الهواء، فإذا سقطت كلها بيضاء يمشي الولد اللاعب بالعصا التي ترمز لوالده أربع حفر. وإذا جاءت خضراء يمشي ستًّا أما إذا جاءت مناصفة 2 بيضاوين و2 خضراوين فيقولان إنها (سيق) أي يمشي أربعاً ثم يزيد بعدها أربعاً أخرى والذي يصل بالعصا التي ترمز لوالده إلى آخر الحفر يصبح منتصراً وإن والده حج. ويصير يلعب بالفحمة والتي هي الغولة متتبعاً أثر والد الطفل المنافس إلى أن يلحق به ويظل يرجعه إلى الحفرة التي انطلق منها، والولد الآخر يلعب ليبعده عنها.

وإذا ما أرجعه إلى الحفرة الأولى يحق للغولة أن تأكله أي يطلى

بالفحم ويصبح الولد مهزوماً. وتعاد اللعبة. وكثيراً ما تنتهي هذه اللعبة بالمشاجرة، لأن الولد الخاسر كثيراً ما يرفض أن يطلى والده بالفحم. وهكذا.

10 ـ عظيم السّاري: لعبة يلعبها كل أطفال العرب من الجزيرة العربية إلى المحيط. وهي أن يجتمع مجموعة من الأطفال في الليالي المقمرة ويخطوا على الأرض دائرة يسمونها (الحج) ويغمضوا أعينهم. ويقوم أحدهم ـ قائد اللعبة: بقذف عظم شاة أبيض بعيداً. وعندما يسمعون سقوطه على الأرض يتوزعون للبحث عنه والذي يجده يطارده الجميع ليسلبوه منه أما هو، فإنه يندفع نحو الدائرة (الحج) وإذا ما وصلها دون أن يمسكوه يصبح منتصراً ويقود اللعبة من جديد.

هذه مجموعة من الألعاب للكبار وللصغار أخذتها هنا للدلالة وتناولتها من مشاهداتي الخاصة في بلاد التوارق. وفي منتجعاتهم ومن أفواه كبار السن منهم الذين حدثوني بذلك[1].

---

(1) الأستاذ وليلة همة ذكر لي معظم هذه الألعاب الشعبية.



الباب الثامن

دور التوارق في التاريخ الإسلامي

حركة المرابطين "الملثمون"

دور التوارق في التاريخ الإسلامي

ما أن وطئت أقدام العرب الفاتحين الحاملين لرسالة القرآن الكريم أرض الشمال الأفريقي حتى وجدوا إخوتهم الذين سبقوهم في الهجرة إلى هذه الديار ينضمون إليهم ويحملون شعارهم ويقاتلون معهم في يسر وتشرّب للدين الإسلامي الجديد. ولم يمض على بداية الفتح العربي الإسلامي «فترة خمسين سنة حتى كان المغاربة من حدود ليبيا الشرقية وحتى المحيط الأطلسي قد صاروا جميعاً مسلمين وعرباً. يتحدثون العربية ويكتبونها ويخطبون بها بفصاحة تندر حتى بين خطباء الجزيرة العربية أو بين الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق». ويتساءل الأستاذ عثمان السعدي عن هذا السبب فيقول لماذا؟

ثم يستطرد مجيباً عن هذا التلاحم الذي وقع بين العرب وبين سكان شمال أفريقيا والذين هم عرب جاءوا للمنطقة قبل الإسلام.

يقول الأستاذ عثمان:

«قيل: لأن رسالة الإسلام عادلة ذات محتوى روحي محبب لنفوس الشعوب ذات التكوين القبلي. وهذا سبب وجيه ومعقول. لكن جلّ المؤرخين يقرون أن أسباباً أخرى تكمن وراء الاستجابة السريعة

للبربر للفتح الإسلامي العربي بسبب أصلهم السامي ـ أي العربي القديم»[1].

ويستمر الأستاذ عثمان قائلاً:

«وسرعان ما انتشرت لغة الضاد بين البربر حيث وجدت فيهم نفوساً مستعدة لتعلم العربية بسهولة بسبب انتماء البربرية إلى أسر اللغات السامية أي إلى اللغة العربية القديمة، ووجدت الثقافة العربية بصورة عامة أن البيئة الثقافية السائدة بين البربر ليست غريبة عنها بسبب محافظة البربر على ممارسات ثقافية فينيقية بونيقية»[2].

لهذه الأسباب يرى الأستاذ عثمان سعدي تشرب البربر للدين الإسلامي وللّغة العربية، لأنهم من بوتقة واحدة وأبناء عمومة، بل إخوة نزحوا من وطن واحد وثقافة واحدة وأصول واحدة.

ولهذا نجد أيضاً حتى الكاهنة التي وقفت تحارب العرب عندما قدموا إلى بلادها نجدها في قصة تبنيها لخالد بن يزيد العبسي الذي كان أحد أسراها وشرح لها أهداف ومبادىء الإسلام.

نراها توصي أبناءها بالانضمام للمسلمين وهي لا تستطيع ذلك لأنها ملكة، فأبى عليها كبرياؤها أن تستسلم، ولأنها عاهدت القبائل على الحرب.

فما أن قتلت حتى نجد أولادها يقودون اثني عشر ألفاً من البربر تحت راية الإسلام وبرفقة إخوتهم العرب يفتحون المغرب العربي.

---

(1) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان سعدي/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر. ص 83.

(2) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان سعدي/ المصدر السابق. ص 83.

ولا شك أن التوارق بل أجدادهم من لمتونة ومسوفة وصنهاجة كانوا ضمن هذه الجيوش. والتي اندفع أغلبها للشمال تحت قيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد أحد أفراد قبيلة نفزاوة البربرية لفتح الأندلس وممالكها.

ويؤكد الأستاذ عثمان سعدي على عروبة هذه الأرومة ضارباً الأمثلة بالدول التي نشأت في شمال أفريقيا وكلها مسلمة وهي: «الرستميون، والصفريون، والأدارسة، والفاطميون، والزيريون، والمرابطون، والموحدون، والمزينيون، والحفصيون، وبنو عبد الواد. وقد أسست هذه الدول كلها على أساس عربي إسلامي، ولم تشذ واحدة على ذلك»[1].

ومع أن معظم هذه الدول أسسها البربر في شمال أفريقيا، فلم نجد أي زعيم منهم أقام دولته على أساس بربري عرقي.

«بل إن الفضل في نشر العربية وآدابها وتعميم الإسلام بالمغرب العربي يعود إلى هذه الدول العشر»[2].

ويستمر الأستاذ عثمان سعدي في حديثه عن دولة (الزيريين) وهي من الدول البربرية في المغرب العربي يقول ضارباً مثلاً بذلك:

«وحكم بنو زيري - وهي أسرة بربرية - المغرب الأوسط والأدنى وغرناطة والميرية ما يقرب من قرنين. حكموا باسم الفاطميين ثم حكموا مباشرة. وكانت من أهم الدول التي أسست المغرب والأندلس

(1) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان سعدي/ المصدر السابق. ص 84
(2) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان سعدي/ المصدر السابق. ص 84.

بقوة وحكمة وفروسية. ولم يخامر الزيريين في يوم من الأيام شك في أصالتهم العربية بل يعتبرون قبيلتهم صنهاجة البربرية عربية، تعود أصولها إلى الحميريين الذين هاجروا للمغرب قبل الفتح الإسلامي بكثير. فعندما ساءت علاقة أبي الفتح المنصور مع الخلافة الفاطمية في القاهرة، عبر عن طموحه في الاستئثار بحكم المغرب بدون المظلة الفاطمية أمام شيوخ القبائل، الذين حضروا إلى القيروان لتهنئته بالإمارة، عندما قال لهم:

«إن أبي وجدي إخذا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذكم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يُولّى بكتاب ويعزل بكتاب، لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[1].

وحتى عندما وصل بنو هلال وبنو سليم العرب قادمين من الجزيرة العربية بحيواناتهم الكثيرة تأكل الزرع وتفني الشجر «فلم يصدر أي رد فعل منهم ضد العرب كعرب. وإنما فسروا ظاهرة الهلاليين بتفسيرها الصحيح وهو التفسير البدوي»[2].

ويقول الأستاذ عثمان سعدي:

«ولم يمض عدد قليل من العقود حتى ذاب بنو هلال كليًا في المجتمع المغربي الذي استطاع بحيويته وصلابة إيمانه بعروبته وإسلامه إفراز دولتين كبيرتين أسستهما أسرتان بربريتان هما دولة المرابطين ودولة

(1) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان سعدي/ المصدر السابق. ص 86 ـ 87.
(2) ابن عذارى ج 1، ص 343. ابن الأثير ج 1، ص 121.

الموحدين اللتان لعبتا دوراً كبيراً في تطوير الحضارة العربية الإسلامية بالمغرب والأندلس، وفي التصدي للمد الصليبي الأوروبي ضد كيان الدولة العربية الإسلامية وفي تأجيل سقوط الأندلس، وهذا دليل على أن البربر ليسوا جنساً آخر غير العرب وأن اللغة البربرية ما هي إلا إحدى اللهجات العربية القديمة التي لا يزال لها وجود حتى الآن باليمن»(1).

---

(1) عروبة الجزائر عبر التاريخ/ عثمان سعدي/ المصدر السابق. ص 87 ـ 88 ـ 89.

دولة المرابطين «الملثمون»

تكوَّنت في بداية القرن الحادي عشر الميلادي دولة في الصحراء الكبرى أصبح لها شأن كبير في المغرب العربي والأندلس عرفت باسم دولة (المرابطين) نسبة لرباط كانوا مرابطين فيه في بداية أمرهم عند مصب نهب السنغال. كما عرفوا في التاريخ العربي باسم (الملثمين) نسبة للثام الذي كان سمة مميزة لهم، فمن هؤلاء المرابطون الملثمون؟

يقول ابن الأثير:

«كان ابتداء أمر الملثمين وهم عدة قبائل ينسبون لحمير، وأشهرها لمتونة. ومنها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وجدالة، ولمطة. وكان أول مسيرهم من اليمن أيام أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه فسيرهم إلى الشام وانتقلوا إلى مصر ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير وتوجهوا مع طارق إلى طنجة فأحبوا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها»[1]. هذا قول ابن الأثير في تواجد الملثمين في الصحراء جنوب المغرب.

أما ابن عذارى فيقول:

«والذي وجدته أن أصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ وهم

(1) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، المجلد 8، ص 74، دار الفكر.

أصحاب إبل وخيل وشاء، ويسكنون الصحارى الجنوبية وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب. وبيوتهم من الشعر والوبر وأول من جمعهم وحرضهم على القتال وأطمعهم في تملك البلاد عبد الله بن ياسين الفقيه. وقُتل في حرب بورغواطة. وقام مقامه أبو بكر الصنهاجي الصحراوي المتقدم ذكره. ومات في حرب السودان»[1].

أما عن قضية اللثام وتمسكهم به واقتنائهم له، فيستطرد ابن عذارى في هذا الموضوع قائلاً:

«وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ولذلك سموهم بالملثمين وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف. وسبب ذلك على ما قيل إن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد وتفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صارت تفعله عامتهم»[2].

أما كيف كانت بداية ظهور المرابطين كحركة سياسية أنشأت دولة استطاعت أن تحفظ للعرب والمسلمين ماء وجههم في الأندلس لعدة قرون بعد أن كادت تسقط الأندلس قبل سقوطها الفعلي، فيقول ابن عذارى:

«والموجب لخروجهم عن الصحراء إلى وطن المغرب أن أحد بني جدالة ويعرف بيحيى بن إبراهيم من جدالة كان قد توجه لأداء فريضة الحج واجتاز في إيابه على مدينة القيروان وذلك سنة 440 هـ

(1) ابن عذارى/ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 4، ص 128، دار الثقافة ـ بيروت.
(2) ابن عذارى/ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 4، ص 128، دار الثقافة ـ بيروت.

فحضر بها مجلس الفقيه المدرس أبو عمران الفاسي. فسأله عن قبيلته ووطنه فذكر أنه من الصحراء من قبيلة جدالة إحدى قبائل صنهاجة فقال له الفقيه: ما مذهبكم؟ فقال له: ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب لأننا في الصحراء منقطعون لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم[1]... ويشتهرون. وفينا أقوام على تعليم العلوم يحرصون. وعلى التفقه في الدين من الله يرغبون. فعسى يا سيدنا تنظر في من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلّمنا ديننا. فقال له الفقيه: سوف أجتهد لك في ذلك إن شاء الله تعالى. فعرض الفقيه الأمر على الطلبة هناك فلم يجد أحداً يوافقه على ذلك. لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى. فدلّ الفقيه على رجل من فقهاء المغرب الأقصى اسمه واجّاج فأعطاه كتاباً يوصله إليه يؤكد في الاجتهاد في ذلك عليه. فلما وصل يحيى بن إبراهيم إلى أقصى المغرب وجده في موضع يقال له (ملكوس) واجتمع معه فيه. وأعطاه كتاب الفقيه أبي عمران فرحب به وأكرمه. وكلمه يحيى بما أراد أن يكلمه. وأعلمه بوصية الفقيه ابن عمران إليه. وتوكيده عليه، فاختار له شخصاً يقال له عبد الله بن ياسين»[2].

وصل عبد الله بن ياسين إلى قبائل الصحراء وبدأ دعوته الإصلاحية بالوعظ والإرشاد. واشتط عليهم في تقويمهم وانتقد الكثير مما ألفوه في صحرائهم فتضايقوا منه وضايقوه واجتمعت له مجموعات تناظره وتحاوره وتستفزه وتسفه أقواله فعاد إلى الفقيه واجاج الذي دعمه

(1) المصدر السابق.
(2) ابن عذارى/ المصدر السابق، ج 4، ص 7 ـ 8.

واعتبر مخالفته مخالفة للدين. وبذلك عزز موقفه وعاد لوعظه وإرشاده والتجأ مع مجموعة من أتباعه إلى جزيرة صغيرة عند مصب نهر السنغال وكان معه سبعة نفر[1]. وبقي مرابطاً هناك مدة من الزمن قيل إنها سبع سنوات وقيل أكثر وقيل أقل. وكان معه في ذلك الرباط أمير لمتونة يحيى بن عمر. وبدأ أتباعه يكثرون حتى وصل عددهم إلى ألف فقال قولته المشهورة «علينا بالجهاد وإن ألفاً لن تُغلب من قلة».

فخرج من جزيرته وهاجم القبائل المقيمة في الصحراء لإرجاعها إلى الدين الإسلامي الحنيف وإعطاء الزكاة وأداء الصلاة وكان يعتبرهم من المشركين. ويقسم ما يغنم منهم ويمنح الخمس للأمير يحيى بن عمر الذي أسماه (أمير الحق).

وكانت الفتاوى والتشريعات تصدر عن عبد الله بن ياسين باعتباره إماماً للمسلمين.

أما القائد السياسي في الحرب والسلم فهو يحيى بن عمر اللمتوني.

ولكن خلافاً وقع مع قبيلة جدالة إحدى القبائل الكبرى في الصحراء اشتعلت بسببه الحرب بين القبيلتين. لمتونة برئاسة يحيى بن عمر وإمامها عبد الله بن ياسين. وجدالة بقيادة مشايخها المحليين لم يذكر لنا التاريخ أسماءهم. واستَغَلَّ الجداليون زحف اللمتونيين على الشمال درعة وسجلماسة وهاجموا مقر اللمتونيين حيث يقم يحيى بن عمر بمن معه فقتل يحيى في هذه المعركة وتولى أمر المرابطين أخوه

(1) مختار بن حامدون المؤرخ الموريتاني الكبير. حدثني بذلك في أنواقشوط 1978.

أبو بكر بن عمر الذي استولى على سجلماسة وأغمات ودرعة. ونشر الدعوة له عبد الله بن ياسين بين قبائل المصامدة الذين بايعوه قبل أن يلتقوا به.

ولكن عبد الله بن ياسين لم يهدأ في دعوته. فتوجه مرة أخرى إلى برغواطة في محاولة لإصلاح ذات بينهم ولكنهم قتلوه[1]. فقام للثأر له أبو بكر بن عمر واستطاع أن يُخضع برغواطة وأن يستولي على جنوب المغرب ويتخذ من مدينة أغمات مقراً له لنشر دعوته ويتزوج من قبيلة (نفزاوة) امرأة على قدر من العقل والجمال والجاه تدعى زينب النفزاوية التي كانت تقول: «إنها لا تتزوج إلا بمن يملك بلاد المغرب كلها».

ولكن ما أن استقر أبو بكر بن عمر في أغمات حتى جاءه خبر هجوم القبائل المجاورة للمتونة عليها. واستغلت غياب رجال لمتونة في حربهم مع الشمال واستاقت أنعامها.

سمع أبو بكر[2] بذلك. وقيل: إن عجوزاً من لمتونة قالت: «ضيّعنا أبو بكر» عندما استاق الأعداء ناقتها. فهرع ملبياً نداء قومه ومنحدراً نحو الجنوب تاركاً ابن عمه يوسف بن تاشفين نائباً عنه وقائداً للقوات المرابطة في الشمال. ولم يقتصر الأمر على هذا فقط بل طلّق زوجته زينب قائلاً لها: إنك لا تقدرين على مشاق السفر في الصحراء. وطلب من ابن عمه يوسف أن يتزوجها لأنها كما قال له: امرأة ذات عقل وجمال.

---

(1) انظر ابن عذارى. المصدر نفسه. ص 16.

(2) التقيت في موريتانيا عام 1978 بأحد أحفاد أبي بكر هذا وهو الآن ليس تارقياً.

توجه للصحراء، وخاض معارك ضارية ضد القبائل المغيرة واستطاع أن يُخضعها ويرجع مرتداً نحو الشمال وسمع ابن عمه يوسف بن تاشفين بخبر رجوع أبي بكر إلى الشمال فتغير حاله ولاحظت زوجه زينب ذلك، فأشارت عليه أن يلاقي ابن عمه ولا يظهر له ما كان يظهر له من الأدب وأن يسلم عليه راكباً ويلاقيه في قوات كبيرة وهدايا أيضاً كثيرة.

وفعلاً تمَّ ذلك. ولاحظ أبو بكر مسلك ابن عمه وبهرجة الملك التي لقيه فيها وعرف أنه لا يريد التنازل عن الإمارة. فقال له: اجلس أوصيك.

فجلسا على الأرض ـ وكان أبو بكر رجلاً ورعاً تقيًّا ـ وأوصاه. ورجع أبو بكر للجنوب نحو الصحراء مجاهداً في سبيل الله في تخوم السودان. وبقي ابن عمه تاشفين أميراً على دولة المرابطين في الشمال. بعد أن تنازل أبو بكر له عنها. وهكذا انقسمت الدولة المرابطية إلى قسمين:

1 ـ قسم شمالي وهو الذي عني به المؤرخون وأشبعوه بحثاً ودراسة.

2 ـ وقسم جنوبي تناساه المؤرخون عن غير قصد، وذلك لبُعد أخباره وانقطاعها وهو الذي لا تزال آثار فتوحاته في أفريقيا الغربية ماثلة للعيان حتى الآن في انتشار الإسلام في غرب أفريقيا. وحيث لا تزال المآذن والمساجد وزوايا القرآن ماثلة في السنغال ومالي وغينينا والنيجر وفولتا العليا إلى مشارف ساحل العاج.

بل إن دولة المرابطين الجنوبية هي التي قضت على إمبراطورية غانا في غرب أفريقيا.

وقد قتل الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني في إحدى هذه المعارك مع السودان سنة 468 هـ.

أما القسم الشمالي بقيادة يوسف بن تاشفين فاستمر في فتح المناطق الشمالية ينظم إدارتها ويخضع القبائل المبعثرة في المغرب تحت سلطة دولة المرابطين إلى أن تمَّ له إخضاع المغرب الأقصى لسلطانه.

ولما ضاقت المدن بجيشه الجرار الذي أغلبه كان راكباً على الهجائن (المهاري) رأى أن يختط مدينة خارج المدن تخص جيشه فاختط مدينة (مراكش) ومعناها باللغة التارقية (مُرْ ـ وكل) أي إذا مررت تجد ما تأكل، أي أنها بلد الخير، فكلمة (أكش) معناها (كل) بالتارقية.

ولو أن بعض المصادر تشير إلى أن الذي اختطها هو أبو بكر بن عمر قبل عودته للصحراء، ولكن ابن عمه يوسف بن تاشفين بدأ في إنشائها وأتمَّ أسوارها وحصونها.

ولما أتمَّ يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب كله لحكمه اجتمع مشايخ القبائل وقالوا له: إن اسمك أكبر من (أمير) ونرى تسميتك بأمير المؤمنين فرفض هذا الاسم لأنه من أسماء الخلفاء الراشدين ولكنه اختار اسم (أمير المسلمين) وبذلك أصبح ينادى ويوقع به.

واستطاع يوسف بن تاشفين أن يصل بجيوشه إلى طنجة وأن تسبقه شهرته إلى بلاد الأندلس حيث تقيم دويلات الطوائف الذين

أرسلوا إليه يطلبون منه عدم دخوله الأندلس لأنهم مسلمون ومن أنصاره وأنهم يحاربون النصارى فلا داعي لإزعاجهم.

غير أن النصارى تكالبوا على دويلات الطوائف وبدأوا يسقطونها الواحدة تلو الأخرى. والتي لا يسقطونها يفرضون عليها الجزية فقام ابن عباد باستدعاء المرابطين ليجتازوا لهم البحر. وقد قال قولته المشهورة عندما حذّره ابنه من استدعائهم حيث قال: «والله يا ابني لأن أرعى جمال العرب خير لي من أن أرعى خنازير الروم».

واجتاز الجيش المرابطي بقضه وقضيضه وطبوله وراياته وهجائنه إلى بلاد الأندلس. وانضم إليه جيش المعتمد بن عباد واصطدموا مع جيش الإفرنج بقيادة الأذفونش بن فرذلند ملك الإفرنج في موقعة الزلاقة الشهيرة 479 هـ حيث انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً وقد مات الأذفونش متأثراً بجراحه. ورجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن رتّب جيشه وأمّر عليه سير بن أبي بكر أحد قادة المثلمين العسكريين الأفذاذ(1).

واستمر سير بن أبي بكر يدفع العدو حتى حدود الإمارات الإسلامية في الأندلس. وقد سهل له الأمر خاصة بعد خلو الساحة من الأذفونش.

وأرسل سير بن أبي بكر يستشير ابن تاشفين فيما يفعل مع ملوك الطوائف الذين أصبح بعضهم يكاتب الإفرنج ضد المرابطين.

---

(1) انظر ابن خلكان/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر. ج 7، ص 112 إلى 130.

فأرسل إليه ابن تاشفين أن اقبض على ملوك الطوائف وأرسلهم إلى المغرب. وعيّن قادة وولاة من جيشك لهذه الإمارات.

وقد فعل سير بن أبي بكر ذلك تارة بالحرب وتارة بالتفاوض إلى أن بقي ابن عباد وحده. فاستشار ابن تاشفين في أمره فأمره أن يعرض عليه الانتقال للمغرب بأسرته، فإن رضي فبها وإلا فليقاتله.

وقام سير بعرض الأمر على المعتمد بن عباد فلم يجبه بشيء. فحاصره عدة أشهر وقبض عليه وأرسله إلى المغرب حيث اعتقل في أغمات إلى أن وافاه الأجل وله في ذلك قصائد شعرية مؤثرة وموجعة منها عندما زارته بناته في المعتقل يوم العيد وهن عاريات حافيات يغزلن للناس من الفاقة. قال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... واليوم عيدك في أغمات مأسوراً
تمشي بناتك في الأطمار عارية ... يغزلن للناس لا يملكن قطميراً
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً

وهكذا أصبحت جزيرة الأندلس ولاية مرابطية تحت إدارة (مراكش) يديرها سير بن أبي بكر أحد أمراء الجيوش المرابطية تحت إمرة يوسف بن تاشفين أمير المسلمين وقد هزت موقعة الزلاقة مشاعر المسلمين ورفعت معنوياتهم واستردت لهم ملكاً كاد يُنزع من أيديهم وقد خلدها الشعراء والذين من بينهم الشاعر عبد الجليل بن وهبون الذي يمدح فيها يوسف بن تاشفين وينسبه إلى حمير. وكذلك المعتمد بن عباد الذي ينسبه إلى لخم وكيف التحم هذان الجذمان وسببا النصر. يقول ابن وهبون:

فثار إلى الطعان حليف صدق تثور به الحفيظة والذمام
نما في حمير ونمتك لخمٌ وتلك وشائج فيها التحام
فيوسف يوسف إذ أنت منه كيامن لا وهي لكما نظام
نهجت لسيله نهجاً فوافى وفي آذيِّهُ الطامي عرام
فهيل به كثيب الكفر هيلا وكل رفيفة منه ركام
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضاً كأن وهادها منهم أكام
عديدٌ لا يشارفه حسابٌ ولا يحوى جماعته زمام
تألقت الوحوش عليه شتى فما نقص الشراب أو الطعام
فإن ينجو اللعين فلا كحر ولكن مثلما ينجو اللئام
فأين العجب يا اذفونش هلا تجنبت المشيخة يا غلام
تسائلك النشاء ولا رجال فتخبر ما وراءك يا عصام[1]

وفي سنة 500 هـ توفي يوسف بن تاشفين مريضاً وقد رثاه الشعراء وتحسر على موته أنصار الإسلام. وقد خلفه ابنه (علي) الذي استمر على نهج والده. واجتاز البحر للأندلس لتفقد أحوالها مع جيوشه 503 هـ. ولما اطمأن عليها وعلى حصونها ورتب قياداتها عاد إلى المغرب.

وفي عام 511 عاد مرة أخرى للأندلس حيث استبدل بعض قياداتها وأبقى آخرين في أماكنهم وعين قضاة جدداً وعزل آخرين ورجع إلى المغرب.

---

(1) الشنتريني/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الثاني. المجلد الأول. ص 245 ـ 246.

وقد بدأت دعوة المهدي بن تومرت (دعوة الموحدين) في الظهور فانتدب لها ابنه تاشفين لمواجهتها ومحاربتها وتوفي علي عام 537 هـ وخلفه ابنه تاشفين الذي لم يسترح كثيراً حيث قويت دعوة الموحدين في عصره واستمر يقاتلهم في المغرب وكذلك يقاتل النصارى في الأندلس وكانت للجيش المرابطي مواقع مشهورة ضد النصارى مثل موقعة (افراغة) يوليو 1134 م/ 23 رمضان 528 والتي يصفها محمد عبد الله عنان بقوله:

«وقد نشبت بين المرابطين وبين النصارى تحت أسوار افراغة موقعة من أشد ما عُرف في تاريخ المعارك الحاسمة في الثغر الأعلى».

ويقول أيضاً في وصفه للنصر وحالة النصارى:

«وهلكت منهم عدة كبيرة من القادة والأكابر. ومزقت صفوفهم تمزيقاً، وأصيبوا بهزيمة ساحقة، لم يصبهم مثلها منذ موقعتي الزلاقة وافليش»[1].

غير أن هذا النصر الذي حققه المرابطون في الأندلس قابلته مجموعة من الهزائم في المغرب من الدعوة الجديدة للموحدين.

فلم يهنأ تاشفين بن علي بن يوسف في حكمه بل ظل يقارع الموحدين الذين كانت دعوتهم تعززها قبائل المصامدة الكبيرة وغيرها من أشداء المغرب، إلى أن توفي وخلفه ابنه أبو إسحاق إبراهيم، والذي كان دون الخامسة عشرة من عمره في تلك الظروف القاهرة التي أحاطت

(1) محمد عبد الله عنان/ عصر المرابطين والموحدين، ج 1، ص 123 القاهرة/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

بالدولة المرابطية فهاجمته القوات الموحدية في مراكش وقبضت عليه في شوال 541 هـ. وأعدم في مذبحة كبيرة للمرابطين وكان ذلك بعد ثمانين عاماً من تعمير مراكش وقيام الدولة المرابطية.

ومع أن حكم المرابطين في الأندلس استمر لعدة سنوات أخرى إلا أنه بسقوط مراكش اضطربت أحوالهم واعتبر حكمهم في عداد المندثر.

وقد استطاعت أسرة (أبناء غانية) ـ وغانية هذه هي إحدى قريبات تاشفين ـ أن تؤسس أسرة حاكمة امتد حكمها إلى طرابلس الغرب واعتبر امتداداً لحكم المرابطين في المغرب والأندلس.

أما الدولة المرابطية في الجنوب فقد انقسمت إلى عدَّة إمارات يحكمها مشايخها. وكانت تضعف وتقوى حسب قوة الأمير وضعفه. ولا تزال بعض هذه الإمارات التي ولدت عن الدولة المرابطية حتى الآن في مناطق موريتانيا وشمال مالي وشمال النيجر.

وأصبحت لدى التوارق سلطنات تحدثنا عنها في أول البحث. ولو أن كثيراً من قبائل لمتونة وصنهاجة التي كونت الدولة المرابطية تعربت وأصبحت لا تتحدث التارقية مطلقاً خاصة بعد امتزاجها بالهجرات العربية التي اندفعت إلى الشمال الأفريقي والمتمثلة في هجرات بني هلال وبني سليم وعرب المعقل الذين اندفعوا جنوباً إلى الصحراء بحيواناتهم وخيامهم ولا تزال قبائل حسان من عرب المعقل تمثل بانصهارها مع الصنهاجيين واللمتونيين وغيرهم من بقايا الدولة المرابطية أكثر سكان موريتانيا الحالية ومنطقة ازواد شمال مالي والنيجر.

دور الملثمين في حماية الإسلام وانتشاره

بالرغم من أن الجيوش المرابطية الشمالية لم تكن كلها من الملثمين، إلا أن قياداتها كانت منهم وكذلك أمير الدولة وحاشيته، ولكننا نستطيع أن نقول إن عبور الملثمين للأندلس أخّر سقوطها بيد الإسبان لأكثر من قرنين من الزمن، إذ استطاعت هذه المجموعات البدوية المتدينة والتي يلهب حماسها تعاليم الدين التي بثّها فيها الفقيه عبد الله بن ياسين أن تدافع بقوة وشراسة عن تعاليم الدين، وأن تقاتل بضراوة ضد النصارى الذين بدأت تتساقط أمام هجماتهم الحصون الإسلامية في دويلات الطوائف.

واستطاع المرابطون أن يوحدوا فلول المسلمين في الأندلس وأن يمهدوا بهذه الوحدة الطريق إلى الموحدين فيما بعد.

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عن كيفية طريقة المرابطين في القتال «وكان الجيش المرابطي يستعمل البنود والطبول. وقد لعبت طبوله في الزلاقة دوراً كبيراً في إزعاج الجند النصارى وبث الرعب في قلوبهم. .»[1].

«وكان للمتونة في قتالهم شدة وبأس ليست بغيرهم. وكان قتالهم

---

(1) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 419.

على النجب أكثر من الخيل. وكان معظم قتالهم مترجلين، يقفون على أقدامهم صفًّا بعد صف. يكون بأيدي الصف الأول منهم القنا الطوال، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطىء أو يشوي، ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية، فهم يقفون ما وقفت منصته، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً، فكانوا أثبت من الهضاب، ومن فرَّ أمامهم لم يتبعوه، وكانوا يختارون الموت على الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار من زحف..»[1].

وهكذا نقل الملثمون التوارق أساليبهم القتالية من الصحراء إلى المدن بجمالهم وطبولهم وراياتهم وسيوفهم ومزاريقهم، ورماحهم.

هي هي؛ الآلات نفسها التي لا زالوا يستعملونها حتى عهد قريب قبل دخول الاستعمار الفرنسي للمنطقة في أواخر القرن الماضي حيث أدخل للمنطقة استعمال السلاح الناري وتطوراته.

ويرجع الأستاذ محمد عبد الله عنان ضعف الدولة المرابطية في الأندلس إلى ضعف نزعة الجهاد والتي كانت تضطرم لدى المرابطين أول دخولهم إلى الجزيرة. كما يرجع السبب أيضاً إلى انغماس جنود هذه الحركة وقادتها في النعيم المفاجىء الذي وجدوه بالأندلس، فركنوا إلى الدعة واستلذوا الراحة.

ومما يؤخذ على هذا العهد (عهد المرابطين) تحجيره على الفكر

---

(1) أبو عبيد البكري/ (المغرب في تاريخ بلاد أفريقيا والمغرب) المشتق من كتاب المسالك والممالك (طبقة دي سلان). ص 166.

الأمر الذي جعل المرابطين يطاردون فقهاء الأصول ويطاردون كتبهم ويحرقونها مثل كتب الإمام الغزالي.

ويقول محمد عبد الله عنان:

«ومن الواضح أن هذه المطاردة الفكرية لم تكن تقف عند كتب الأصول وكتب الغزالي. ولكنها كانت تشمل سائر المصنفات الكلامية والفلسفية التي تنكرها التعاليم المرابطية وغيرها مما تصفه الرسالة (بكتب البدعة) وكان من ضحايا هذه المطاردة عدة من المفكرين الأندلسيين ومنهم العلامة الصوفي أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف حيث نفاه أمير المسلمين علي بن يوسف من بلده المرية إلى مراكش»[1].

كما أن العبيد والخدم الموجودين بكثرة في الجيش المرابطي أساءوا للناس بتصرفاتهم السيئة كما أساءوا إلى أخلاق الناس.

وكذلك وجود مجموعات من المجندين المسيحيين داخل قواتهم في أواخر أيامهم. واستخدام هؤلاء الناس في جباية الأموال من مسلمي الأندلس حيث استغل هؤلاء المسيحيون وجودهم في هذه المواقع وضغطوا على الناس وأساءوا معاملتهم الأمر الذي أوقع عدة انتفاضات ضد الحكم المرابطي في الأندلس أهمها انتفاضة قرطبة عام 514 هـ.

كما ساهم الموحدون في تشويه الحكم المرابطي بنشر مثالبه على الناس في الدعوة التي قام بها المهدي بن تومرت ضد المرابطين. وقد وصفهم بالخروج عن الدين، وبالكفر أحياناً أخرى.

---

(1) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 432.

غير أننا نجد أنه بالرغم من كل ذلك، فقد قامت نهضة أدبية في الأندلس كانت استمراراً لنهضة الأدب في عصر دول الطوائف. وقد ظهر عدد كبير من الأدباء والشعراء والكتّاب في العهد المرابطي. وقد كان البلاط المرابطي يحوي مجموعات منهم متخصصين في الكتابة. كما صعد إلى سدة الوزارة مجموعة من الوزراء الشعراء الأدباء أمثال: أخيل بن إدريس الرندي، وعلي بن عبد العزيز بن الإمام الأنصاري، ويقول محمد بن عبد الله عنان:

«كان اجتماع هذه الصفوة الممتازة من كتّاب الأندلس في البلاط المرابطي ظاهرة تدل على أن المرابطين لم تفتهم أهمية القيم العلمية والأدبية، وأهمية الأساليب البليغة العالية في عرض مراسيم الدولة وأوامرها والإفصاح عن رغباتها ووجهات نظرها. بيد أنها كانت رعاية محدودة المدى مقصورة على المجال الرسمي ولم تكن تسيّرها تلك النزعة المستنيرة التي تعتبر الحركة العلمية والأدبية من المقوّمات الحيوية لأمة عريقة متمدينة كالأمة الأندلسية»[1].

نظام الحكم عند الملثمين

بالرغم من كون الحكم الوراثي في التوارق، في عهوده القديمة والمتوسطة ظل عن طريق ابن الأخت أو ابن البنت لا عن طريق الولد - جرياً على العادات العربية القديمة - إلا أننا نجدهم عندم أنشأوا دولتهم المرابطية لم يتبعوا هذا التقليد. ربما تأثراً بقبائل المغرب

(1) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 444.

الأخرى والأندلس، أو اتباعاً لقوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾.

ولما كان تأسيس الدولة المرابطية على أساس ديني سَنّهُ مؤسسها عبد الله بن ياسين، فإن الرئاسة كانت في البداية أشبه بالإمامة، والبحث عمن تتوفر فيه مزايا الحكم ابتداء من التدين والعفة والعقل والنزاهة، ولهذا كان يحيى بن عمر وهو من أكبر المؤمنين بدعوة عبد الله بن ياسين ومن بعده أخوه أبو بكر ثم بعده ابن عمه يوسف بن تاشفين. وبوصول يوسف إلى مرتبة الإمارة للمرابطين جعلها وراثية كما فعل معاوية بن أبي سفيان في المشرق. إذ نجد بعد يوسف بن تاشفين تولى ابنه علي، وبعده تولى ابنه تاشفين، وبعد تاشفين تولى ابنه أبو إسحاق إبراهيم الذي انتهت في عهده الدولة المرابطية وقتله الموحدون ضمن من قتلوا، بالرغم من صغر سنه.

ولكننا نجد أن النسب للأم لم تفارق الملثمين تماماً فنجد بين رجالهم المبرزين في الدولة المرابطية من يدعى لأمه أمثال محمد ابن فاطمة، أحد قادتهم الأفذاذ. وابن غانية الذي استطاع مع إخوته تأسيس دولة بقيت تحمل شعار المرابطين لمدة من الزمن عرفت في التاريخ بدولة بني غانية. وغانية هذه هي قريبة يوسف بن تاشفين.

واستطاعت هذه الدولة أن تصمد في وجه الموحدين لعدة عقود من السنين ضمت الجزائر، وطرابلس. ويقول بعض المتشددين ضد المرابطين من المؤرخين: إن من أسباب ضعف الدولة المرابطية تدخل النساء في شؤون الحكم. وقد ردَّد ذلك دوزي الذي اشتهر بتحامله على المرابطين، وكذلك المراكشي المؤرخ الموحدي.

ومن المعلوم أن سكان الصحراء الكبرى عموماً والتوارق بصفة خاصة للمرأة عندهم قدر كبير يجلّونها ويحترمونها. وقد برز من بينهم الكثير من النساء ذوات الرأي والمشورة ويكفي أن ولد البنت له من الأحقية أكثر مما للولد أو ولد الولد ويمكننا أن نختم هذا الفصل بفقرة أوردها محمد عبد الله عنان في كتابه (عصر المرابطين والموحدين) منقولة عن صاحب روض القرطاس عن ابن جنون يقول:

«كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب، ملكوا الأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربي المحيط ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة، إلى جبال الذهب من بلاد السودان، لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكروه معونة ولا خراج في بادية ولا في حاضرة. وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر. وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل. وعافية وأمن. كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم، ولم يكن في بلد من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية. حاشا الزكاة والعشر. وكثرت الخيرات في دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق، ولا من يقوم عليهم، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة»[1].

كما نقل الملثمون من تقاليد صحرائهم نظامهم إلى الشمال. فالأمير (أمير المسلمين) وهو بمثابة سلطان التوارق هو الحاكم العام. وهو الذي يعين ويعزل الأمراء الأقل منه رتبة وكذلك قادة الجيش.

(1) روض القرطاس/ ص 108 والسلاوي في الاستقصاء ج 1، ص 128، ومحمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 425.

ثم من بعده أمراء المناطق الذين يكونون دائماً من أقرباء الأمير (الأمنوكال) ثم قادة الجيش وعادة ما يكونون هم الأمراء أنفسهم كما أن (أمير المسلمين) هو القائد الأعلى للجيوش المرابطية. وقد يخوض المعارك بنفسه كما فعل يوسف بن تاشفين. وكذلك أبو بكر بن عمر، ومن بعدهم علي بن يوسف.

ثم إن منصب الإمام أو الفقيه هو المنصب الروحي الذي يعود له الأمر أولاً وأخيراً في قضايا الدين والجهاد والقتل والسجن وحتى المظالم. يباشر ذلك عن طريق القضاة المنتشرين في كل الإمارات. سواء في المغرب أو في الأندلس ويصدر لنا المراكشي ذلك في قوله عند حديثه عن علي بن يوسف «وكان (أي علي بن يوسف) حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم، كان إلى أن يُعد في الزهاد المتبتلين أقرب منه إلى أن يُعد في الملوك والمتغلبين واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين. وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء. فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبث حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء. فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم. وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته. فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم. فكثرت لذلك أموالهم واتّسعت مكاسبهم»[1].

كما اهتم المرابطون بتكوين الجيش الذي كان يتكون من فرق مختارة كل واحدة لها خصائصها وتنظيمها. فالصحراويون الأولون

---

(1) ابن عذارى المراكشي.

الذين قدموا من الصحراء يركبون النجب، وبدو المغرب والأندلس يركبون الخيل.

وهناك فِرق من العبيد والموالي، وأخرى من النصارى الذين اعتنقوا الدِّين الإسلامي حديثاً، والتي تسميها الرواية العربية (الجند الروم).

وكان ترتيب الجيش في المعركة كما ذكره محمد عبد الله عنان:

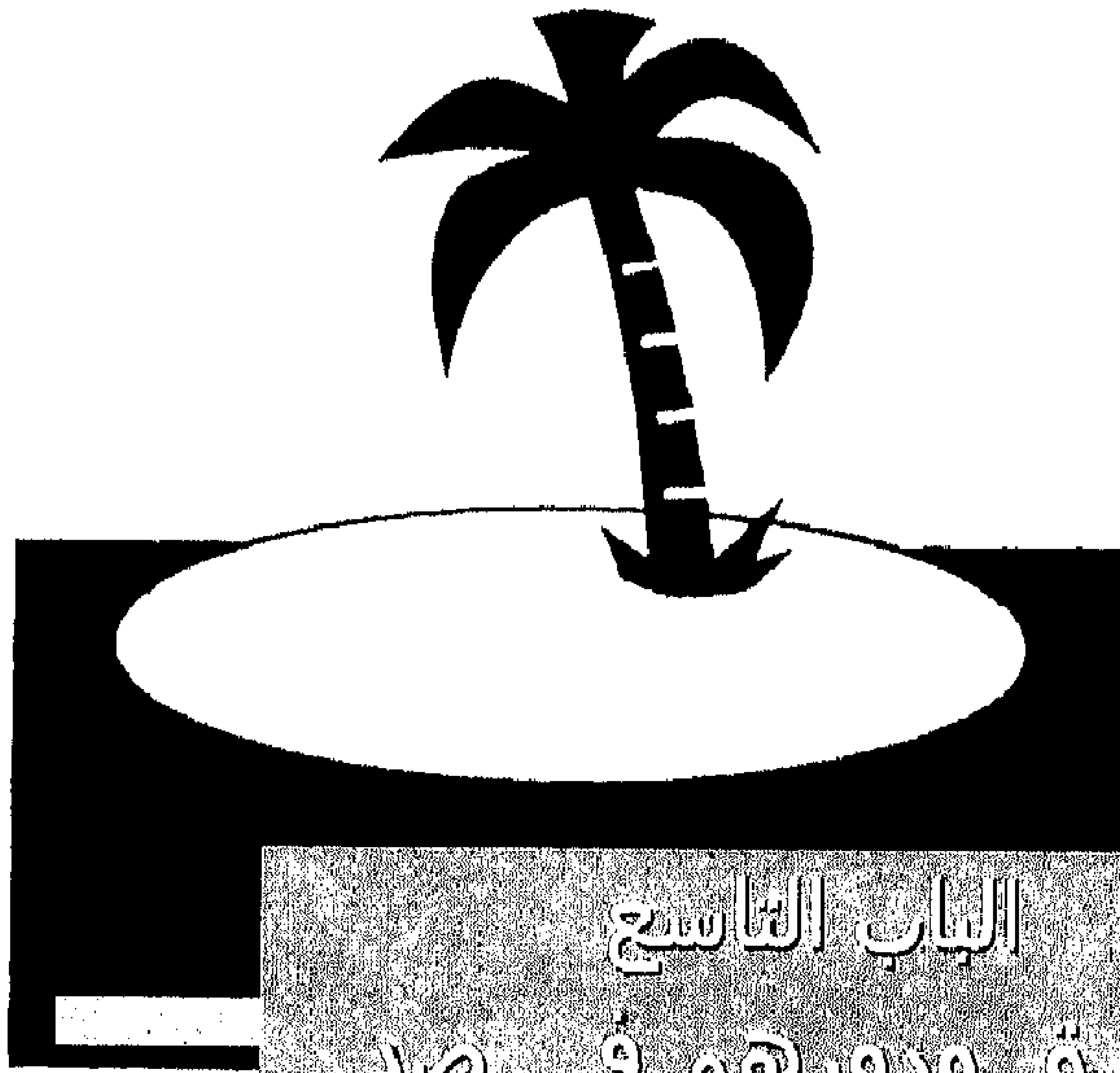
«. . . يقوم على نظام خماسي، فيتقدم الجيش الجند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة، وحملة القسي والرماة. ويرتبون في الجناحين. ويتكوّن القلب من وحدات الفرسان الثقيلة وهي التي كان لها على الأغلب القول الفصل في المعارك. وكانت قوات المؤخرة أو القوات الاحتياطية يقودها أمير المسلمين بنفسه إذا كان مصاحباً للجيش. وتتألف من صفوة الجند وقوى الحرس المختلفة، من العبيد والنصارى والمرتزقة. وكان لكل قسم من القوات المقاتلة قائده الخاص، ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب الذي يعقد قبل المعركة، وترتب فيه خطط الهجوم والدفاع وفقاً لأوامر القائد الأعلى، وكان الجند يحشرون وفقاً لمختلف القبائل والأقاليم. . .»[1].

ولقد برز من المرابطين قادة أفذاذ في فنون الحرب والقتال أمثال محمد بن فاطمة، وسير بن أبي بكر، ومزدلي بن تيولتكان، وأبي عبد الله ابن الحاج، ومحمد بن عائشة، وأبي بكر بن إبراهيم بن تافلوت وغيرهم.

والغريب أنه بانتهاء هؤلاء القادة ضعفت دولتهم واضمحلت وسيطرت عليها دولة الموحدين الفتية في ذلك العصر.

---

(1) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 418 ـ 419.



الباب التاسع

التوارق ودورهم في صد الاستعمار الحديث

انتفاضات التوارق ضد الفرنسيين

التوارق ودورهم في صد الاستعمار الحديث

بدأت أوروبا بالتطلع إلى أفريقيا منذ القرن السابع عشر الميلادي وكانت بداية غزوها لأفريقيا قد ظهرت على شكل بعثات علمية مهمتها استطلاع أفريقيا وسبر مجاهلها واكتشاف طرقها ومواردها.

وكان هاجس الوصول إلى تينبكتو (مصدر الذهب) يشغل بال الأوروبيين. فأعلنت الهيئات العلمية والجامعات عن جوائز مغرية وتمويل الرحلات التي تخترق الصحراء الكبرى وتصل إلى مجاهل أفريقيا. واكتشاف مصب الأنهار (نهر النيل ونهر النيجر) ومدى صلاحيتهما للملاحة.

وكانت سفن الهولنديين والبرتغاليين والإسبانيين والبريطانيين والفرنسيين ترسو على شواطىء أفريقيا الغربية والشرقية وتقتحم على الأفارقة سكونهم وهناءهم وتختطف الرجال والنساء والذهب لبيع ذلك كله في أسواق العالم.

وقد نشطت تجارة الرقيق بصورة أكبر بعد اكتشاف أمريكا وحاجة البريطانيين والفرنسيين والإسبان لليد العاملة المجانية في العالم الجديد وتمهيد الأرض البكر.

ولا تزال في شاطىء السنغال قرب داكار جزيرة هناك تشهد على

وحشية الأوروبيين ضد السود. ومواقع تجميع هؤلاء البائسين السود في كهوف مظلمة انتظاراً لشحنهم كالأغنام إلى أوروبا وبيعهم هناك.

ويقول جيمس ويللارد:

«يوم كانت تجارة الرقيق مزدهرة، كان يؤتى بالأفريقيين من قلب أفريقيا بنسبة مائة ألف على الأقل كل سنة. ولدينا في بعض الأحوال إحصاءات بالغة الدقة. فالسجلات مثلاً تفيد بأن المستعمرات البريطانية استوردت 300 000 ثلاثمائة ألف عبد بين عام 1680 وعام 1700. وأن (جامايكا) استوردت 610 ستمائة وعشرة آلاف عبد بين عامي 1700 و1786 ويبلغ مجموع الأفريقيين الذين أرسلوا إلى ما وراء البحار كأرقاء منذ عام 1510 (أي منذ أن شحنت أول إرسالية من العبيد إلى مناجم الذهب الإسبانية في إسبانيولا) حتى عام 1865 عندما ألغت الولايات المتحدة الرق بتعديل الدستور (وهي آخر البلدان المسيحية التي فعلت ذلك) يبلغ المجموع على الأقل 12 مليوناً. وإذا وافقنا الدكتور (ليفنجستون) على تقديره بأن كل عبد وصل الشاطىء يقابله على الأقل عشرة عبيد فقدوا حياتهم، فإن عدد الرقيق يبلغ عندئذٍ رقماً يفوق التصور...»[1].

ولم تكن نظرة الأوروبيين لأفريقيا جديدة بل كانت قديمة قدم التاريخ. فها نحن نجد الرومان عندما حطموا (قرطاجنة) واندفعوا إلى الشمال الأفريقي يقول جيمس ويللارد:

«وهكذا انتهى عهد الملوك الأفريقيين عام 40 بعد الميلاد، عندما

(1) جيمس ويللارد/ الصحراء الكبرى/ المصدر السابق. ص 160.

قرر الرومان أن أفريقيا هي ولاية من الغنى بحيث لا يجوز إشراك الملوك المحليين في حكمها. وها هم الآن بعد 200 مائتي سنة من تدمير قرطاجة يريدون أن لا ينازعهم منازع في ملك أفريقيا كلها إلى حدود بلاد الأقزام. بما فيها موريتانيا ونوميديا وطرابلس ومصر وما وراءها من الصحراء..»[1].

وسار الأوروبيون المحدثون على طريق أجدادهم الرومان. فأرسلوا البعثات لاكتشاف أفريقيا والصحراء.

ويستطرد ويللارد:

«وكان المصدر الوحيد لمعلوماتنا هو النصوص العربية وخصوصاً رحلات الحسن بن محمد الملقب بـ(ليو أفريقيانوس) أو (الأسد الأفريقي)..»[2].

ويستمر قائلاً:

«ومع ذلك فعلى رواية «ليو» المسلية لرحلاته في البلاد السوداء اعتمد الجغرافيون والمؤرخون وغيرهم مدة ثلاثة قرون مقبلة، لأن أحداً من الأوروبيين لم يصل إلى المدينة الرومانية (سيداموس) (غدامس) فضلاً عن تينبكتو حتى العقد الثاني من القرن التاسع عشر..»[3].

هذا بالنسبة لأفريقيا عموماً. أما بالنسبة للصحراء حيث الحر والعطش، والمسافات الشاسعة، وحيث العرب الملثمون يغيبون في

---

(1) جيمس ويللارد/ المصدر السابق. ص 93.
(2) جيمس ويللارد/ الصحراء الكبرى/ المصدر السابق. ص 164.
(3) جيمس ويللارد/ المصدر السابق. ص 164.

الأفق فوق جمالهم السريعة، وحيث يقدسون الحرب التي جاء الإسلام وعززها. فاتبع الأوروبيون لهم غطاء آخر من الاكتشاف. إذ اعتمدوا على الرحالة والمغامرين الذين تجهزوا بآلاتهم وأوراقهم، وأموالهم، يقدمون الرشاوى والهدايا لشيوخ القبائل وسلاطين المجموعات ويدعى الإسلام كثير منهم متخذين من التوارق في أغلب الأحيان أدلاء يدلّونهم على الطريق لاكتشاف مواطنهم البعيدة. وتدوين عاداتهم وتقاليدهم ونقاط ضعفهم حتى يسهل على الرجل الأوروبي المتعطش للتملك أن يقتحم الصحراء ويستولي عليها بأقل الوسائل والخسائر وبأسهل الأساليب.

ولكن التوارق لم يكونوا جميعاً بالسهولة التي يتوقعها الأوروبيون. فلقد وقفوا ضد تغلغل هذه المجموعات (الجواسيس) وكانوا يقضون عليهم الواحد تلو الآخر.

ويقول جيمس ويللارد:

«ويجدر بنا إلقاء نظرة على العشيرة الخاصة التي حكمت الصحراء منذ أيام القرطاجينيين على وجه الاحتمال. أعني عشيرة (التوارق) أو (الرجال الملثمين). ومن المحتمل أن يكون أبناء هذه العشيرة هم الأحفاد المباشرين لأولئك الغارامنتيين الذين سادوا الصحراء الكبرى في أيام اليونان والرومان. وسواء كان هذا هو الواقع أو لم يكن فقد كان «التوارق» حتى عهد قريب وبمعنى من المعاني، شعباً بقيت ثقافته ولغته نسبياً دون أي تغيير منذ العصور الكلاسيكية القديمة..»[1].

(1) المصدر نفسه. ص 169.

ويقول عبد القادر جامي:

«إن أول من عرَّف التوارق للأوروبيين هو الرحالة (دويرير Duveirier) الذي مرَّ في غات سنة 1861 وشق أراضي قبيلة أوراغن تحت حماية رئيس أوراغن حينذاك الشيخ أخنوخن..»[1].

وقبل وصول هذا الرحالة إلى غات مات عدة رجال من المغامرين الأوروبيين إما بالمرض أو بالقتل قبل أن يصلوا إلى غدامس أو غات ناهيك عن تينبكتو التي وصلها أول الأوروبيين في عسكر أحمد الذهبي السلطان المراكشي الذي جهز حملة وغزا بها تينبكتو عام 1560 وضم هذه الحملة الكثير من الأوروبيين المرتزقة بما فيهم قائد الحملة الإسباني (جودر).

ويقول جيمس ويللارد:

«وقد أرسل المغاربة في الواقع جيشاً من 7 آلاف رجل و8 آلاف جمل وألف حصان إلى نهر النيجر في عهد الملكة إليزابيت الأولى. وكان معظم الاختصاصيين بين هؤلاء المقاتلين في هذه الحملة أوروبيين بمن فيهم رجال المدفعية الإنجليز..»[2]. ولكنه سرعان ما تكوَّنت الجمعيات العلمية والجغرافية في أوروبا وبدأت ترسل الرجال المغامرين لاكتشاف الصحراء. وانطلق العشرات منهم لقطع الصحراء من الشمال إلى الجنوب (السيد توماس) أو من الشرق إلى الغرب (السيد لديارد). ولم تنجح هذه الرحلات الأولى. ولكن (الماجور هاتون) استطاع أن

(1) عبد القادر جامي/ من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى/ المصدر السابق. ص 188.

(2) جيمس ويللارد/ المصدر السابق. ص 183.

يتوغل قليلاً من الغرب إلى الشرق ثم (مانغو بارك) و(هورنمان). وقد فشل أكثر هؤلاء وأغلبهم قضى نحبه بالمرض أو غيره.

وأخيراً وصلت بعثة (أودتي دونهام كلابرتون) إلى بحيرة تشاد التي لم يصلها أي أوروبي قبل ذلك 1824 وفي ذلك الوقت كانت بعثة أخرى مرسلة من الحكومة البريطانية تصل أخيراً إلى تينبكتو 1826 ذلك أن الماجور (غوردون لينج) وصل إلى تينبكتو ولكنه قُتل هناك باعتباره مسيحياً كافراً جاء يدنس أراضي الإسلام. ولم يكن التوارق - في الواقع - هم الذين قتلوه، ولكن شيخ قبيلة البرابيش العربية هو الذي فعل ذلك إذ يقول بول مارتي:

«وبعد وفاة عبيدة سنة 1820 تولى السلطة بعده ابنه أحمد. وأحمد هذا هو الذي يخلده التاريخ بخسيسة (!) اغتيال الرحالة الإنكليزي الماجور (غوردون لينج) وكان (ريني كيي) و(بارت) من الذين نقلوا إلينا شهادتهم على ذلك وقد سماه (ريني كي) حمد (أو أحمد) ولد حبيب ولا شك أن حبيب هو تحريف منه لعبيد أو عبيدة...»[1].

ومن الغريب أن حفيد هذا الشيخ المدعو سيدي محمد هو الذي تصدى للفرنسيين أثناء غزوهم لتينبكتو متبعين طريق الرحالة السابقين. ولكن في هذه المرة بالأسلحة والمعدات لغزو البلاد واستعمارها.

(1) بول مارتي/ البرابيش بنو حسان/ تعريب محمد محمود ولد ودادي. مطبعة زيد بن ثابت. ص 35.

التوارق والاستعمار الفرنسي

لم يكن التوارق منفصلين عن أمتهم العربية وخاصة في الشمال الأفريقي، كما أنهم لم يكونوا جزءاً منفصلاً عن إخوانهم وجيرانهم العرب في ليبيا والجزائر وموريتانيا، تلك المناطق التي يطلّون عليها من صحرائهم، بل وتنتمي إليها جلّ قبائلهم.

وبقدر ما هم مرتبطون بالشمال الأفريقي نجد أيضاً نقاط تماسهم مع الجنوب يتأثّرون بها سواء في نيجيريا وتشاد أو في بوركينا فاسو والنيجر ومالي.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيون يتوغلون داخل أفريقيا الغربية متخذين من بعض الأفارقة عوناً لهم خاصة من بلدان الساحل المطلة على المحيط الأطلسي كالسنغال وغينيا وساحل العاج وغيرها مصعدين شمالاً وشرقاً نحو الصحراء. كما أنهم - أي الفرنسيين - انحدروا من الجزائر جنوباً باتجاه الصحراء بعد تحطيم المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري.

وما أن وصل الفرنسيون في زحوفهم إلى أرض الصحراء الكبرى حيث يقيم التوارق حتى هبوا مدافعين عن صحرائهم وعن دينهم وخاضوا معارك مشرّفة ضد المستعمرين بسلاحهم البدائي ولم يكونوا وحدهم في هذا الشرف بل كان معهم الكثيرون من القبائل العربية في

المنطقة وغير العربية كالهوسا والفلان وبمبارة وجرما والتبو والقرعان والشواة. وكانت هذه المجموعات يجمعها الدين المشترك والدفاع عنه.

وكما أن هناك شخصيات لامعة خاضت الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي من هذه القبائل أو المجموعات الدينية المسلمة المستوطنة في الصحراء أو في تخومها، فإننا نجد أن هناك شخصيات لامعة انضمت للعدو وكانت سنداً له أغراها بالمادة أو الجاه وخاضت إلى جانبه المعارك ضد أبناء وطنها ودينها وقوميتها. ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء هؤلاء وأولئك.

وإن نسي التاريخ فلن ينسى الثائر الحاج عمر تال سيدو أحد مواليد مدينة (بودور) السنغالية عام 1797. فلقد حج هذا الرجل إلى بيت الله الحرام ومرَّ أثناء عودته بالأزهر الشريف حيث درس أربع سنوات، ثم عاد للسنغال مارًّا ببلاد برنو وتشاد. ثم زار الهوسا وعاد إلى بلاده بعد غيبة دامت ثماني عشرة سنة قضاها في التحصيل العلمي الديني والتدريس.

وعندما عاد كان الصراع بين الطرق الصوفية على أشده في منطقة غرب أفريقيا حيث اعتنق الحاج عمر (التيجانية) بعد أن كان (قادرياً) وعاد ليكوّن جيشاً ينتمي إلى جماعة (توردو) ومعناها (حماة الدين) الذين كان والده أحد مؤسسيها، وكان الحاج عمر يساعده صديقه وأحد كبار مريديه ويدعى محمد شيخو.

وصارت هذه المجموعة تقاتل الوثنيين في أفريقيا (غرب أفريقيا) وكل الذين لا ينتمون إلى الطريقة التيجانية. وكان مقر المساعد للحاج

عمر هو مدينة (كانكا) الواقعة على الضفة اليسرى من النهر كما ساعده أيضاً مجموعات من مسلمي الغابون. وهاجم البمبارا كما ساعده العرب في موريتانيا وكذلك بعض التوارق.

ولكنه سرعان ما وقع الخلاف بينه وبين العرب والتوارق عندما هاجم أهل (ولاتة) الموريتانية محاولاً إرغامهم على دخول الطريقة التيجانية وساق نساءهم وأولادهم أسرى كما استولى الحاج عمر على مدينة كوناكري عاصمة غينيا الحالية[1] واستمر الحاج عمر في فتوحاته إلى أن اصطدم بالفرنسيين في مدينة (ساكو) عندما هاجمها وكادت تسقط في يده عام 1857 وكانت القوات الفرنسية بقيادة (الفارس بو الهول) من مدينة (القديس لويس) وكان على رأس مجموعة من الأفارقة متطوعين لخدمة الفرنسيين. واستطاع الحاج عمر محاصرة المدينة وكادت تسقط في يده، ولكن الجنرال الفرنسي (قيد هارباً) استطاع أن ينقذ المدينة وينصر المحاصَرين ويتفوّق على الحاج عمر بسلاحه الحديث.

ولقد وصل الفرنسيون إلى السنغال منذ عام 1659 حيث أسسوا مدينة (سان لويس) (اندر) وهي أول مدينة استولوا عليها.

وما أن شعر الحاج عمر بضعفه أمام القوات الفرنسية المتفوقة عليه بالسلاح الناري أمام سلاحه المكوّن من السيف والرمح والنشاب حتى اندفع شمالاً يحارب الخارجين على الطريقة التيجانية من (الوولف) والمور (العرب والتوارق) وكان قائد قبائل (الوالو) (جيم

(1) انظر جان كوريه/ كتاب تاريخ السودان والتيجانية في أفريقيا الغربية.

بيسوب) من قبيلة (الوولف) وقائد المور (العرب والتوارق) محمد الحبيب الزناقي.

واستطاع الفرنسيون أن يستميلوا بعض مشايخ الطرق الصوفية وعلى رأسهم الشيخ سيديا الكبير أمير قبيلة أولاد بييري ببلدة (بوتيلميت) بموريتانيا الجنوبية والذي دعم الوجود الفرنسي بفتاويه ورسائله إلى رؤساء القبائل طالباً منهم عدم محاربة الفرنسيين لأنهم مرسلون من قبل الله ولا داعي لمحاربتهم.

كما أن أول من وقَّع مع الفرنسيين معاهدة التسليم هو الشيخ سيديا الصغير حفيد الشيخ المذكور ويلقب بـ(بابا) وهو من قبيلة (انتشايت) فرع من قبيلة أولاد أبييري والتي ينتمي إليها مختار ولد داده الرئيس الموريتاني الأسبق.

ولكن الجنرال (قيد هارباً) قُتل على يد أحد أنصار الحاج عمر عندما كان يمر بمدينة (ياكل).

وقد بقي الحاج عمر يقارع الفرنسيين إلى أن تمكن هؤلاء من التفرقة بينه وبين العرب والتوارق مستغلين مهاجمته للطرق الصوفية غير التيجانية.

وبما أن الكثير من العرب والتوارق كانوا (قادريين) لهذا تألبوا ضده ووقع بينهم الصدام المسلح خاصة وأن الفرنسيين شنوا ضده دعايات مغرضة ووصفوه بأنه سفاح ورجل دموي ويحارب الإسلام والمسلمين وقد هاجم فعلاً الحاج عمر قبائل الماسينا والبولار (القادريين) عام 1861 الذين استعانوا بالعرب والتوارق الذين التفوا

حول الشيخ سيدي البكاي شيخ قبيلة كنته وذلك بعد أن هاجم الحاج عمر مدينة (سيكو) 1862 وارتكب فيها جنده مذابح كبيرة الأمر الذي جعل البرابيش وكنته في (اروان) و(تينبكتو) يشعرون بالخطر فتجمعوا مع توارق المنطقة يقودهم الشيخ سيدي البكاي شيخ كنته ورئيس الطريقة (القادرية) وفي عام 1864 وقيل عام 1865 التقى الجمعان في معركة رهيبة خسر فيها الحاج عمر معظم رجاله واستمرت يومين من القتال. وسقط هو نفسه قتيلاً بالعطش بعد أن حاصره خصومه. وقيل إنه أحرق نفسه خوفاً من سقوطه في يد أعدائه القادريين الذين كان يحرقهم بالنار[1].

ويقول جان كوريه في كتابه (الإسلام والتيجانية):

«إن أفريقيا الغربية كادت تكون كلها إسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطة التيجانية بقيادة الحاج عمر تال، كما أن أوروبا كادت تكون كلها إسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب في معركة (بواتيه)»[2].

وهكذا ساهم العرب والتوارق دون أن يشعروا بمساعدة فرنسا على احتلال غرب أفريقيا بعد أن ضلّلتهم الدعاية الفرنسية وسمّمت الجو بينهم وبين الحاج عمر الذي ساهم مساهمة كبيرة في نشر الإسلام، وصد الغزو الفرنسي على مناطق غرب أفريقيا.

ولكن ما أن اندفع الفرنسيون إلى الشمال حتى تكاتفت جهود المصلحين في بلاد الصحراء لحرب النصارى الغزاة ورفع راية الجهاد

(1) أحمد بابا دمه/ لمحة من ماضي أفريقيا التاريخ/ مخطوط مكتبة المؤلف/ ص 11.
(2) أحمد بابا دمه/ المصدر السابق. ص 11.

الشيخ محمد فاضل ماء العينين الذي ترك بلاده في منطقة الحوض (شرق موريتانيا) واتخذ من مدينة السمارة بالساقية الحمراء مركزاً لقيادة الجهاد واستمر يقارع الفرنسيين شمالاً وجنوباً تسانده قبائل الصحراء شمال موريتانيا، وشمال مالي، ومنطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب حتى استطاع أن يزحف على مراكش عندما علم بتواطؤ السلطان المغربي مع الفرنسيين.

واستطاع بأنصاره الاستيلاء عليها، وأن ينصب ابنه أحمد الهيبة سلطاناً على المغرب عرف في تاريخ المغرب باسم (السلطان الأخضر) وبقي لمدة أسبوع سلطاناً على المغرب ولكنه تقهقر أمام زحف الفرنسيين والإسبان وابتعد نحو الجنوب.

واستمرَّت المقاومة ضد فرنسا قرابة ست وثلاثين سنة في منطقة الصحراء حتى بعد وفاة الشيخ (ماء العينين) ودفنه بمدينة السمارة حيث مسجده المقام ولا يزال ضريحه والمسجد حتى الآن[1].

كما اندفع الفرنسيون إلى الصحراء من الشمال عبر الجزائر دون مقاومة تذكر. واحتلوا سلطنة الهقار. وفي عام 1908 احتلوا جانت مركز سلطان الأزقر السلطان أمود الذي انسحب إلى غات تحت الحماية العثمانية.

وبالرغم من أن هذه القرية تقع ضمن الأراضي الليبية التي كانت عثمانية آنذاك إلا أن الفرنسيين ضموها لأملاكهم فهاجمها السلطان آمود بمجموعات من المجاهدين الليبيين وخلّصها في عام 1916 وأسر فيها

(1) أحمد سيدي/ ظاهرة الدولة/ مخطوطة مكتبة المؤلف. ص 75.

440 جندياً سنغالياً مجنَّداً مع الفرنسيين وقتل الضابط الفرنسي آمر الحامية.

واحتل الفرنسيون نهر النيجر عن طريق قواتهم المتواجدة عند مصبه. وصادفوا مقاومة شديدة من قبائل (تنكريكيف) بزعامة (بوكاروان زيدي) والأمير (شبُّون) وذلك في عهد السلطان (ماديدو).

كما تحركت القوات الفرنسية نحو بحيرة تشاد وقوات خاصة أُرسلت من منطقة النهر (نيامي) وزحفت إلى الشمال حيث خاضت معارك شديدة مع المجاهدين بقيادة قيادات من الليبيين منهم غيث سيف النصر. والبراني الساعدي. وعبد الله الطوير. ومحمد السني. والمهدي السني. وعبد السلام قريمش وغيرهم يساندهم التوارق وعرب تشاد والنيجر. وكانت معركة بئر العلالي 1902 من أكبر المعارك الشهيرة حيث استشهد فيها الكثير من المجاهدين الليبيين والتوارق[1]. ثم معركة قرو وقد استمرت الحرب بين الفرنسيين والليبيين يساندهم التوارق وعرب المنطقة منذ عام 1900 إلى 1914 عندما انسحب الليبيون إلى الشمال لمقارعة الإيطاليين في هجومهم على ليبيا، وكان أحمد الشريف من قيادات الجهاد في الصحراء الكبرى الشرقية.

كما استطاع الفرنسيون الاستيلاء على سلطنة الآيير عندما هاجموها من الشمال وكذلك سلطنة (كل اقرس) التي هاجموها من جهة نيامي والداهومي.

أما سلطنة (تكريكريت) فقد استطاع الفرنسيون أن يوقعوا معها

(1) انظر محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 78.

اتفاقية تسليم يصبح بموجبها للفرنسيين الحق في إدارة المنطقة والتجول لدورياتهم بها دون عائق ودون أي استشارة للسلطنة. وأن يبقى السلطان التارقي صورة اسمية على قبائله، ولكن السلطان محمد الكميتي قال: «إنه لا يريد أن يرى وجوه الكفار ولم يلتق بهم». وأرسل نائباً عنه وقع الاتفاقية.

وتوفي محمد الكميتي بعدها بقليل حيث نشب الخلاف بين ورثته: ابن عمه (إسماغيل) وابن أخته (أخزى) ونشبت حروب بينهما استغل الفرنسيون ذلك وعرضوا وساطتهم بين المتحاربين حيث اقترح حاكم (طاوة) الفرنسي ـ بعد أن جمع المتحاربين ـ أن يكون (الطبل) من نصيب (أخزى) وأن يأخذ إسماغيل الأموال والممتلكات المادية. فوافق إسماغيل، ولكن أخزى رفض هذا الاقتراح وأعلن الحرب على إسماغيل والفرنسيين معاً الذين وقفوا يساندون إسماغيل إلى أن تمَّ لهم القبض عليه وقتلوه.

انتفاضات التوارق ضد الفرنسيين

كانت ليبيا دائماً وعلى مدى التاريخ هي المحرك الأساسي للصحراء في انتفاضاتها ضد الأجانب. ولم تكن هناك حدود بين ليبيا ومناطق الصحراء. وكانت ممالك كانم، وبرنو، وكَوّار، وزندر، ووادي، تتبع الحكم التركي في طرابلس. وأحياناً كانت تينبكتو تتبع طرابلس الغرب أيضاً. وكان الولاة يعينون لها من قبل الوالي العثماني في طرابلس الغرب.

لهذا كان السكان ينتشرون في هذه المناطق دون أن يمنعهم مانع، فلا تزال حتى الآن قبائل أولاد سليمان التي مركزها منطقة (هراوة) على خليج سرت منتشرة في غرب بحيرة تشاد، وفي منطقة البرابيش بصحراء (تاودني) شمال (تينبكتو).

ولا يزال قبائل ورفلة ـ التي مركزها منطقة بني وليد جنوب شرق طرابلس 280 كم ـ موجودة بمنطقة كانم شمال نيجيريا.

ولا تزال قبائل المحاميد التي مركزها منطقة صرمان غربي طرابلس موجودة بمنطقة أبشة شرق تشاد. أما قبائل المغاربة وزوية والمجابرة فيعتبرون من سكان منطقة فايا وما جاورها بشمال تشاد، بالرغم من أن مراكزهم في اجدابية وتازربو، والقفرة[1] (جالو وأوجله).

(1) القفرة: مأخوذة من القفار حرفت أخيراً إلى الكفرة.

أما قبائل الحطمان والزوائد والجعافرة والمقارحة والقذاذفة فلهم مجموعات في النيجر وتشاد مع أن مراكز تواجدهم في ليبيا.

لهذا لم يكن هناك فاصل بين الشعب في منطقة الصحراء الكبرى، وكان الناس ينتقلون حسب أهوائهم وحسب معيشة حيواناتهم يطلبون الماء والمرعى دون فواصل.

ولهذا من الإجحاف أن نفصل جهاد شعب من شعوب هذه المنطقة عن جهاد الشعب الآخر بل من المستحيل أن نفصله.

وكان جميع سكان المنطقة يهرعون للجهاد أينما وُجدوا يقاتلون دفاعاً عن الدين الإسلامي في الشمال أو في الجنوب.

ولهذا عندما بدأ الفرنسيون في تغلغلهم في الصحراء الكبرى اصطدموا بهذه المجموعات من الليبيين عرباً وتوارق ومن التشاديين والنيجيريين والماليين وخاصة مجموعات الشمال.

وكانت قيادات الجهاد ضد الفرنسيين في الصحراء الكبرى أغلبها من الليبيين وبعض التوارق الذين تربطهم بالليبيين صلات وثيقة.

ثورة فهرون بن الأنصار 1916

بدأ الليبيون يرسلون الرسل إلى بلاد الصحراء ويحرضون شعبها على الثورة متخذين من شخصيات صحراوية مفاتيح وصولهم للصحراء.

ولما كان محمد كاوصن أحد هؤلاء الرجال المبرزين من توارق الصحراء وهو على علاقة وطيدة مع الحركة السنوسية بل هو أحد أتباعها إذ خاض معارك (بئر العلالي) و(قَرَو) مع الليبيين وانسحب معهم إلى ليبيا. بدأ هذا الرجل يرسل الرسائل إلى شيوخ وسلاطين الصحراء يعلمهم بأن السلطان العثماني (وهو رمز المسلمين) أعلن الجهاد المقدس ضد الكفار وعليهم أن يثوروا ضدهم في كل مكان.

وقد وصلت بعض هذه الرسائل إلى فهرون بن الأنصار سلطان (والليمدن كل اطرام).

وعلم الفرنسيون عن طريق جواسيسهم بما يدبره فهرون فقبضوا عليه ووضعوه تحت الحراسة في (قاو) ثم نقلوه إلى (داكار) ثم أُعيد إلى (مَنَكَا) قرب مخيمه.

وحاولت فرنسا أن تلجأ مع هذا الرجل للحيلة والسياسة فأصدرت مرسوماً يقضي بتعيين (فهرون) ملكاً على التوارق وأعطته من الامتيازات ما يكفل بقاءه موالياً لفرنسا.

ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف:

«ولم يكن فهرون يعرف شيئاً عن هذه الإجراءات، ولكنه كان يخطط في ذلك الوقت للهروب من إقامته الجبرية في (مَنَكا) للاتصال برجاله وإعلان الحرب ضد الفرنسيين. ولما نفذ خطته هاجم المواقع العسكرية الفرنسية في منطقة (مَنَكا) و(فلنكي) في النيجر واستولى على ما فيها من السلاح والذخيرة. ومع ذلك فإن الإدارة الفرنسية أرادت تدارك الأمر فأسرعت إليه بنسخة من قرار تعيينه ملكاً على بلاد التوارق وذلك بواسطة اثنين من الحراس (قومي) ولكنه أكّد تصميمه على مواصلة الجهاد ضد الفرنسيين وأعلن رفضه القاطع لأي قرار يصدر عنهم...»[1].

وهنا تحركت القوات الفرنسية من (قاو، ونيامي، وزندر، وتمنغست) لتطويق ثورة فهرون وإخمادها. فأحاطت به هذه القوات في قرية (آضر بوكار) وجرت معركة عنيفة استشهد فيها الكثير من أنصاره أعقبتها مذبحة رهيبة في الأطفال والنساء في مخيم فهرون. ولكن فهرون انسحب إلى الشمال.

ولسوء حظ الثورة اصطدم أثناء انسحابه بمجموعة من توارق الهقار ـ الأعداء التقليديين لسلطنة (والليمدن كيل اطرام) ـ كانوا مجندين مع الفرنسيين فاشتبك معهم في معركة قُتل أثناءها وهم لا يعرفونه ولكن بعد المعركة وبين الشهداء تعرف عليه من يعرفه وأسرع بإخبار الفرنسيين. وهنا تفرغ الفرنسيون كعادتهم للبطش بالسكان ومزقوا سلطنة

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 82.

(والليمدن كيل اطرام) وقسّموها إلى شيوخ تابعين للسلطة الفرنسية مباشرة في [قاو، وتينبكتو (من مالي) وتلاييري (من النيجر) ودوري (في بوركينا فاسو)].

وهكذا أُخمدت ثورة فهرون بن الأنصار إلى حين، في الوقت الذي بدأ فيه محمد كاوصن يزحف بقوات المجاهدين من الشمال في اتجاه اقدز تسبقه رسائله للسلاطين مبشّراً إياهم بالنصر المؤكد على النصارى وبوعود الألمان الذين سيلاقونه في نيجريا[1].

---

(1) ساليفو. المصدر السابق.

الليبيون وإعلان الجهاد المقدس في بلاد التوارق

ثورة كاوصن

نظراً لارتباط الشعب في الصحراء الكبرى بعضه ببعض انتشر الكثير من الفقهاء الليبيين يؤسسون الزوايا لتعليم وتحفيظ القرآن وأصول الدين بين سكان الصحراء الكبرى من التوارق وغيرهم.

وما أن وصل الغزو الفرنسي إلى مشارف بلاد العرب والتوارق حتى هبّ هؤلاء الفقهاء يحرضون الشعب على الجهاد المقدس وحرب الكفار وعدم الخضوع لهم.

وكان على رأس هؤلاء الفقهاء الشيخ محمد المهدي زعيم الطريقة السنوسية التي انتشرت في شمال أفريقيا وخاصة مناطق برقة قبل ذلك في منتصف القرن التاسع عشر على يد مؤسسها الشيخ محمد بن علي السنوسي[1].

---

(1) ولد بمستغانم بالجزائر. وانتقل إلى مكة حيث أسس زاوية هناك على جبل أبي قبيس ثم أسس زاوية البيضاء ببرقة وانتقل للجغبوب. وخلفه ابنه المهدي الذي انتشرت الدعوة في عهده إلى شمال تشاد ثم من بعده أحمد الشريف الذي قاد الجهاد ضد فرنسا في تشاد وإيطاليا في برقة. انتهت الدعوة السنوسية بقبول إدريس السنوسي التسليم للطليان في معاهدة الرجمة 1917 في محاولة لإنهاء الجهاد في ليبيا والذي نصبه الإنكليز فيما بعد ملكاً على ليبيا تحميه القواعد الإنكليزية والأمريكية حتى=

وكان موسى سلطان زندر يساعده الكثير من أتباع الطريقة السنوسية من الليبيين يرفضون الانصياع للكفار ويحاولون صدهم.

ويقول أندرو ساليفو:

«أما موسى الذي رفض أن يقتسم سلطته مع البيض الأوروبيين فعزم على أن يظل هو السيد الوحيد على هذه البلاد، فإنه صمَّم على نهب قوافل (كيل أواي) حلفاء الفرنسيين وإظهار غطرسته في علاقته بالكفار. وكان من الطبيعي أن لا يقوم السنوسيون الذين يتمتعون بنفوذ قوي بين رعاياه بأي شيء من أجل تهدئته..»[1].

وبدأ موسى بالتحرش بالفرنسيين محتمياً بقبيلة (أمزوراك) ومهاجماً (كل أواي) كلَّما سنحت الفرصة لذلك. الأمر الذي جعل هذه القبيلة تتوجه بالوفد تلو الوفد للفرنسيين عارضة خدماتها وجمالها في مقابل تدخل الفرنسيين لقتال موسى.

وبعد المعركة التي خاضها الفرنسيون ضد المجاهد رباح في بحيرة تشاد وسقوطه شهيداً في 10 يوليو 1900 م. قرر الفرنسيون التخلص من موسى فتوجه العريف (بوتهيل) في مائة بندقية بتعليمات محددة تقول: «يجب أن تتوجه إلى (سان أماري) حيث يسكن موسى لإلقاء القبض عليه، إذا لم يهاجمك هو في الأول وإحضاره إلى زندر،

= قامت ثورة الفاتح من سبتمبر فأنهت الحكم الملكي العميل وطردت القواعد الأجنبية وكان ذلك بقيادة العقيد معمر القذافي.

(1) ساليفو/ المصدر السابق. ص 20 ويقول في الهامش: «وقد تأكد لنا وجود عناصر سنوسية بين الأوساط القريبة من موسى عن طريق عدد كبير من رواة الأخبار الذين سألناهم في منطقته نفسها (دمرقو).

وإذا هاجم فيجب قتله والرد عليه وبالعمق، واعمل ما في وسعك لمنعه من الهروب، وفي حالة مطاردته فسيكون (كيل أواي) معك لمساعدتك».

وفي يوم 19 يوليو 1900 نشبت معركة غير متكافئة، الأسلحة النارية مع الفرنسيين تقابلها السيوف والحراب لدى التوارق.

ويقول العريف بوتهيل:

«.. فاندلع قتال شديد كان عبارة عن معركة مجابهة بالأيدي حيث فقدت بنادقنا تفوقها الذي تكتسبه من مداها البعيد، لأن أي تارقي يُقتل يأتي آخر في مكانه، وبالرغم من القيمة القتالية لدى رجالنا، فإن بوتهيل رأى أنه لا يستطيع أن يقتحم ذلك المكان حيث يضحي موسى بروحه ولا يعبأ بطلقات بنادقنا..»[1].

وهكذا استشهد موسى ومجموعات كبيرة من قبيلة (أمزوراك) بعد أن قاتلوا بشجاعة فائقة كما شهد بذلك العدوّ.

وظن الفرنسيون أن موت موسى سينهي المشكلة، ولكنهم فتحوا باباً جديداً لم ينته إلا بعد عدة سنوات وسقوط المئات من القتلى بين الطرفين.

وهكذا اندفعت قبيلة (كيل أواي) تعبر عن مظاهر الغبطة والامتنان للفرنسيين وأبدت استعدادها لتقديم ما يطلبه الفرنسيون منها. ولكن الحقد أصبح أكثر عمقاً لدى قبائل (أمزوراك) ضد الفرنسيين وضد قبائل (كيل أواي).

---

(1) ساليفو/ المصدر السابق. ص 29.

ويقول سالفيو:

«إلا أن الوحشية التي نُهبت بها قرية (تان أماري) ساهمت في تعميق العداوة في نفوس قبيلة (أمزوراك) ضد الفرنسيين. وقد قُتل موسى، ولكن الرغبة في الانتقام ازدادت بين أتباعه الباقين على قيد الحياة أمثال (خنجر بن طلحة) ابن الأخ الأكبر لموسى، يساعده عمه (دندا)..»[1].

وقد هاجم هؤلاء الرجال قافلة (كيل أواي) قرب (قيديقي) في منطقة (فركا) شمالي (تانوت) في ليلة 16 ـ 17 يوليو 1901 وانتصروا على (كيل أواي) وغنموا القافلة وفرَّ أفرادها إلى زندر للاحتماء بالفرنسيين. وهبّ الفرنسيون بقواتهم لإخضاع خنجر ودندا ومن معهما. وشعر هؤلاء بالتحرك الفرنسي فاتجهوا بقبائلهم جميعاً إلى الشرق حيث وصلوا إلى قبائل أولاد سليمان العرب والتحموا معهم متفقين مع الليبيين المتواجدين في تشاد للقتال ضد الفرنسيين ونصرة الدين الإسلامي ضد الكفرة. واتخذوا من كانم شمال نيجيريا مقرًّا لهم وقد نصب الفرنسيون سلاطين جدداً لكل من والليمدن واقدز. قاموا بمساعدتهم في معاركهم التي يخوضونها ضد المجاهدين من العرب والتوارق المنتشرين في مناطق جبال (الآيير شمال النيجر وفي شرقه). ونتيجة للضغط من المهاجمين وعدم استتباب الأمن أخلى الفرنسيون بلدة اقدز من القوات الفرنسية وتركت بدون إدارة.

---

(1) ساليفو/ المصدر السابق. ص 31.

وكانت القوافل التي تتجه للشمال لجلب الملح تُنهب من قبل المجاهدين. وكذلك بعض القوافل التي تأتي من الجنوب تحمل البضائع من كانم[1].

ولم يستطع الفرنسيون احتلال اقدز مرة ثانية، إلا في عام 1906 في 7 يوليو من نفس السنة. وقد تمرد بعض أفراد قبيلة (كيل افداي) الذين أقسم سلطانهم الجديد (تمبري الويداس) على الإخلاص للفرنسيين دون أن يأخذ الموافقة من قبيلته.

كما اعتقل الفرنسيون سلطان (ايكزكزن) الحاج موسى في (ايلاليت). كما عزلوا السلطان عثمان سلطان اقدز وعيّنوا بدله السلطان إبراهيم الدسوقي ثم عزلوه وعيّنوا بدله السلطان تاقاما الذي انضم لثورة كاوصن فيما بعد.

وقد اتحدت قبائل العرب والتوارق والتبو لمهاجمة الفرنسيين. كما هاجموا تجمعات قبيلة (كيل أواي) وانتصروا عليها، وكان المجاهدون بقيادة (اللافي) وهو تباوى أعرج[2].

ويقول ساليفو:

«وفي 31 يوليو 1909 خسر النقيب (بريفوت) آمر مركز بلما مساعده الملازم (درومارو) في أثناء معركة ضد غزوة قام بها عرب البلاد الطرابلسية والتبو»[3].

---

(1) انظر ساليفو/ المصدر السابق. ص 40.
(2) انظر ساليفو/ المصدر السابق. ص 45.
(3) انظر ساليفو/ المصدر السابق. ص 345.

ويقول المصدر نفسه:

«وبعد ذلك بثلاثة أشهر استطاع الفرنسيون تفريق تجمع من السنوسيين[1] وفي (إيمي مدما). وفي 1910 و1911 جاءت غزوات عديدة من بلاد فزان أيضاً. حتى قام رئيس العرفاء (دوز) بالتدخل فدمر غزوة من التبو في شمال (إفروان) وذلك في 4 سبتمبر 1911.

وبعد ذلك بأربعة أشهر جاء السنوسيون فنهبوا قرى (دمرقو) قرب جاجيدونا. وبهذا وجد الفرنسيون أنفسهم مطلوبين في جميع الجهات..»[2].

أما عن منطقة شرق تشاد وشمال نيجيريا حيث التجأت قبائل (أمزوراك) وحلفاؤهم بقيادة (خنجر) و(دندا) وقبائل أولاد سليمان والليبيون. فيقول أندرو ساليفو:

«إن الأوضاع وخاصة في ناحية الشرق في بلاد كانم وتيبستي وبركو، ما زالت سيئة. وبما أن هذه المناطق كانت خارج متناول أيدي الفرنسيين، فإنها أصبحت قبل كل شيء فريسة سهلة للسنوسية..»[3].

أما عن الصدام المسلح وجهاً لوجه بين الليبيين والفرنسيين في تشاد فيقول أندرو ساليفو:

«فقد أقام السنوسيون زاويتهم في بئر العلالي في شمال بلاد كانم فحولوها إلى قلعة حصينة، حيث اصطدموا هناك عام 1901 مع الرائد

(1) السنوسيون: يعني بهم المؤلف الليبيين، إذ يتوقع أن كل الليبيين هم أتباع الطريقة السنوسية.

(2) ساليفو/ المصدر السابق. ص 47.

(3) ساليفو/ المصدر السابق. ص 48.

الفرنسي (تيتارت) الذي واجه (البراني) قائد الحصن بمقاومة عنيفة. . »[1].

ويستمر متحدثاً في المصدر نفسه: «إلا أن الوحدات الفرنسية تمكنت من الانتصار على السنوسيين. ففي يوم 18 فبراير 1902 سقط حصن بئر العلالي على يد الرائد (تيتارت) وبعد تلك الهزيمة التجأ السنوسيون إلى جهة الشرق فانتشروا في (واداي) و(دارفور) ووصلوا حتى (كوردفان) واندفع بعض العناصر منهم حتى وصل مكة وفي هذه الأيام يوجد أحفاد هؤلاء المهاجرين في منطقة أبشّة خاصة. وقد رجع إلى بلاده الأصلية. . »[2]. ويستمر (ساليفو أندرو) يروي قصة سقوط بئر العلالي ومحاولة الليبيين استرجاعه من القوات الفرنسية. (وقد حاول السنوسيون عبثاً استرجاع حصن (بئر العلالي) وكانت القوات الأساسية للسنوسيين في منطقة شمال بحيرة تشاد تتكون في الواقع من التوارق المنشقين في إقليم (دمرقو) بقيادة (خنجر) ابن عم موسى.

وقد كان هؤلاء التوارق قد أخذوا بسرعة بقبضة إدارة العمليات ضد المستعمرين مبعدين بذلك عرب أولاد سليمان إلى الصف الثاني. ولكنهم لم يوافقوهم على ذلك. فقد تنازع التوارق والعرب فيما بينهم مما أدّى إلى قبول إحدى عشائر أولاد سليمان الخضوع للوصاية الفرنسية وكان ذلك مفاجئاً لخنجر. وقد اتفقت التوارق على تجمع لقبيلة (ماي عيس) التي خضعت للفرنسيين وهبَّ الفرنسيون إلى نجدة

(1) أندرو ساليفو/ كاوصن والثورة السنوسية. نشر المركز النيجري للبحوث في العلوم الإنسانية. نيامي 1973. ترجمة محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. مخطوط مكتبة المؤلف. ص 13.

(2) اندرو ساليفو/ المصدر السابق. ص 13.

محمييهم فهزموا التوارق وقطعوهم إرباً إرباً وذلك في 11 أغسطس 1902»[1].

وهنا اتجه معظم المجاهدين للشمال ووصل بعضهم (واداي) و(دارفور) و(أبشة) وبقيت مناوشات صغيرة تقوم بين الحين والآخر مع الفرنسيين وأتباعهم. وكان ضمن هؤلاء المتجهين للشمال (كاوصن) الذي جرح في رجله في معركة بئر العلالي[2]. حيث اتجه إلى الشرق فوصل إلى غرب السودان (دارفور) ثم إلى الشمال فوصل إلى القفرة (زاوية القفرة) وانضم إلى زملائه في الجهاد. وكما أورد محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف تلقى مزيداً من التوجيه والتدريب ثم اشترك في معارك الجهاد الليبي ضد الطليان في مناطق جنوب ليبيا (فزان) فشارك في معارك مرزق. وأوباري 1914 ثم عينه عابد السنوسي ممثلاً له في الجفرة (هون، سوكنة، ودان) فبقي هناك قرابة ثلاثة أشهر في عام 1915[3]. وفي بداية عام 1916 انطلقت حملتان عسكريتان من الجنوب الليبي نحو مناطق النفوذ الفرنسي.

الأولى: بقيادة السلطان آمود سلطان آزقر الذي سبق للفرنسيين أن طردوه من جانت واحتلوها عام 1908 وقد تمكنت هذه الحملة ـ وجميع رجالها من الليبيين عرباً وتوارق ـ من أن تستولي على جانت وتأسر 440 جندياً سنغالياً مع الفرنسيين وتقتل آمر الحامية وكذلك المبشر الفرنسي (شارل دي فوكو) «الذي عمل على إحياء التراث الثقافي

(1) اندرو ساليفو/ المصدر السابق. ص 13.
(2) انظر محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 83.
(3) انظر محمد سعيد القشاط/ معارك الدفاع عن الجبل الغربي.

التارقي مستهدفاً بذلك القضاء على الإسلام ونشر المسيحية وتنصير التوارق بدله . . »[1].

والثانية: ـ وهي محل حديثنا ـ فلقد انطلقت من جنوب ليبيا من بلدة (واو) بقيادة محمد كاوصن. وجلّ رجالها من الليبيين العرب والتوارق متجهة إلى النيجر.

ويقول أندرو ساليفو عن هذه الحملة:

«فقد أجبر الغضب السنوسي[2] الإيطاليين على إخلاء فزان وسحب حامياتهم من كل من غات وغدامس. فأصبح الوضع خطيراً مما جعل فرنسا تبعث جزءاً من وحداتها الصحراوية إلى الحدود الليبية في شهر ديسمبر 1914 لضمان سلامة وأمن الأراضي التابعة لها، وذلك لأن السنوسيين لم يكونوا يتساهلون مع الفرنسيين أكثر من الإيطاليين. فسيعملون على تحريض الهجانة من الشعامبا الذين يشتغلون في الوحدات الفرنسية على الهروب من الجيش. وعلى تحريض قبائل التوارق على التمرد ضد سلطة الكفار وحكمهم. ففي عام 1916 أجبر السنوسيون الفرنسيين على الانسحاب من بلدة (جانت) التي كانوا قد احتلوها منذ سنتين. وفي نهاية هذه السنة قتل السنوسيون الراهب (دي فوكو) في تمنغست 2 ديسمبر 1916 ونهبوا المباني الثقافية في الكدية. وباختصار ومنذ عام 1914 فإن الغضب السنوسي[3]

(1) انظر محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ المصدر السابق. ص 84.
(2) يتحدث هنا عن ثورة الليبيين عام 1915 وطرد الطليان من فزان ظانًا أن ذلك من فعل السنوسيين فقط.
(3) إعلان الجهاد في ليبيا لم يكن جميعه بأمر السنوسيين ولا بإدارتهم ولو أن بعض مشايخ الزوايا ساهموا في التحريض على الجهاد في مناطق برقة والقفرة.

قد انفجر بشكل حقيقي في المناطق الصحراوية . . »[1].

انطلقت الحملة الثانية بقيادة محمد كاوصن نحو النيجر ينضوي تحت لوائها مئات من رجال القبائل في جنوب ليبيا. توارق، مغاربة، زوية، أولاد سليمان، حساونة وغيرهم من قبائل الجنوب الليبي متجهة نحو اقدز.

ولما وصل كاوصن بحملته قرب المدينة (اقدز) قُفلت أبوابها في وجهه وتحصنت بداخل حصنها الحامية الفرنسية المتواجدة بالمدينة.

وهنا نصب مدافعه باتجاه أسوارها وحاصرها وانتشرت قواته في الصحراء تطارد وتبطش بالفرنسيين وأعوانهم من سكان المنطقة وتنهب قوافل التوارق السائرة في حماية الفرنسيين.

وخرج السلطان عبد الرحمٰن تاقاما سلطان (اقدز) وانضم للمجاهدين، كما انضم إليهم الشيخ الخورير شيخ والليمدن (طاوة) بكثير من رعاياه.

وقد استطاع كاوصن أن يستحوذ على قافلة لتوارق الهقار تحمل الحبوب لبلاد الهوسا، واتخذ منها كاوصن وسيلة للضغط على سلطان الهقار (موسى آق أما سطان) لينضم إلى الثورة ضد الفرنسيين. بالرغم من أن موسى هذا قطع أشواطاً في التأييد للفرنسيين كبيرة.

وفعلاً اضطر موسى للاتصال بكاوصن ووعده أنه سيقطع علاقته بالفرنسيين فأفرج كاوصن عن القافلة وأبقى (موسى إق أما سطان) معه

(1) ساليفو/ المصدر السابق. ص 14.

في بلاد الايير ومنعه من العودة إلى بلاد الهقار[1] ولكن هذا هرب والتحق ببلاده.

حصار أقدز 13 ديسمبر 1916 ـ 3 مارس 1917

يتحدث أندرو ساليفو عن حصار اقدز والكيفية التي تمَّ بها متخذاً من المصادر الفرنسية دليلاً له. ومن أقوال شهود العيان الذين عايشوا هذه الثورة والتقى بهم ساليفو أثناء تجواله لتأليف هذا الكتاب.

يقول ساليفو:

«كان السنوسيون قد قسموا قواتهم إلى قسمين. أحدهما يقوده (أغالي) فتوجه به أولاً إلى أقدز والآخر كان قد وضع مباشرة تحت أوامر كاوصن نفسه وقد وصل المتمردون إلى أقدز في سرية مطلقة. فلم يلاحظ الملازم (فونس) الذي كان يقوم بدورية في شمال المركز مرور أية حركة.

وكان السنوسيون قد دخلوا أقدز ليلة 12 ـ 13 ديسمبر 1916 فبدأوا بالعمل فوراً دون إضاعة الوقت وكان من بين من وقعوا ضحية لبداية هجومهم الحاج محمد علان والفلاتي سامبو مترجم المركز الفرنسي..»[2]. ويقول النقيب (ساباتي) آمر الفرقة الفرنسية في أقدز:

«وفي 13 ديسمبر 1916 في حوالي الساعة السادسة وصل النبأ الأليم إلى المركز عن طريق زوجة المترجم (سامبا) التي جاءت من

---

(1) انظر محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. المصدر السابق.

(2) أندرو ساليفو/ المصدر السابق. ص 77.

المدينة شبه عارية في حالة رعب وفزع شديد فأخبرتنا عن مقتل زوجها. فقالت: إن رجال كاوصن قد فرضوا سيطرتهم على المدينة منذ الساعة الثانية صباحاً. وبعد ذلك بدقائق انهال إطلاق نار مكثف كان قد بدأ في مجرى واد صغير يفصل المدينة عن المركز. فقد تمَّ بتراشق منظم نفذه أناس مدربون بشكل جيد. فأمرت على الفور بإدخال كل الناس الرماة وزوجاتهم داخل الموقع المحروس. وأعطيت الأوامر برفع كل النقود والأسلحة والذخيرة الموجودة خارج الحصن ونقلها إلى الموقع المحروس. وقمت بتغطية هذه العمليات بإطلاق نيران المدافع الرشاشة على المهاجمين. واستطعت بذلك أن أمنعهم من التقدم. وبالتفصيل كان عندي مدفعان رشاشان ولكن ليس لدي عناصر مدربة على تشغيلهما»[1].

ويقولساليفو في كتابه المذكور: إن كاوصن لما وصل إلى (أقدز) سكن في قصرٍ بني خصيصاً من أجله. أي أنه كان مسيطراً على المدينة ومطمئناً لدرجة أنه كلف العمال ببناء قصر له واستطاع أن يتمه في مدة قصيرة.

ولم يكتف كاوصن بأقدز وإنما بدأ في إرسال الدوريات لملاقاة الدوريات الفرنسية والاصطدام بها وسحقها إذ نجده قد أرسل يوم 26 ديسمبر مجموعة من المجاهدين التقوا بدورية فرنسية يقودها الملازم (سودان) فسحقوها بما فيها الملازم الذي قتل في المعركة.

كما نصبت قوات كاوصن كميناً لقافلة محروسة بالفرنسيين في

(1) ساليفو/ المصدر السابق. ص 89 _ 90.

(شين تبوراق) في 28 ديسمبر حيث قتلت ستين (60) قتيلاً من بينهم الملازم (ديفو) والطبيب العسكري (راينود) والعريف (موريل) والعريف (قازلان)[1]. وسقط في أيدي المجاهدين ستة أسرى من الوطنيين أعدموا بعد المعركة.

كما ضيق كاوصن الحصار حول قلعة أقدز حيث يحتمي الفرنسيون، وكان يمطرها بوابل من النيران كل يوم من مدافعه وبنادقه.

وتحرك التوارق من كل السلطنات وخاصة شمال النيجر يؤيّدون كاوصن بصفته الرجل المنتصر للإسلام.

وقام الفرنسيون بإرسال نجدات لفك الحصار عن (أقدز) واصطدمت مقدمة هذه النجدات بقوات كاوصن في (آضر بيسَّنْتْ) في 21 فبراير 1917 حيث دامت المعركة يومين خسر فيها الفرنسيون الكثير من رجالهم.

ولما شعر المجاهدون بتقدم القوات الفرنسية والمتعاونين معها من توارق الهقار بقيادة العقيد (موران) رفعوا الحصار وانسحبوا خارج المدينة. وقد تحركت القوات الفرنسية من السنغال وتشاد وطاوة، والهقار ترافقهم جموع توارق الهقار بقيادة سلطانهم (موسى إق أما سلطان) الذي تحايل على كاوصن وفرَّ منه وانضم للعدوّ.

وفي محاولة من الفرنسيين لدرء الخطر من مثل هذه الثورة صدر قرار من وزير المستعمرات ووزير الحرب الفرنسيين (يقضي بإنشاء منطقة صحراوية تتبع من وجهة النظر العسكرية قيادة عليا للأقاليم

---

(1) ساليفو/ المصدر السابق. ص 85.

الصحراوية) وذلك في 12 يناير 1917 لتعطي أقاليم الواحات في الجنوب الجزائري والجنوب التونسي بالإضافة إلى تخوم الصحراء في مناطق تينبكتو وطاوة وأقدز وبلما وزوار[1]. حكماً عسكرياً مباشراً.

ودخل الفرنسيون أقدز ليرتكبوا مذابح كبيرة ضد الوطنيين المسالمين وكان أكثر ما يقزز النفس اقتحام مسجد المدينة وإخراج الفقهاء من داخله وقطع رؤوسهم بالسيوف والفؤوس.

ولندع أحد شهود العيان الذي شاهد (بطولة الفرنسيين!!) على السكان الآمنين في منطقة (إنقال) يتحدث: «كان ذلك الشخص هو (اكتليك بن طابية) من قبيلة (إكمين) قال:

«كان عمري يتراوح بين 20 إلى 21 سنة عند قيام ثورة كاوصن. وكانت بلاد آيير كلها تقريباً قد ردت بالإيجاب على دعوة الزعيم المتمرد. ولكن كان جيش كاوصن قد أُبيد بمجرد الهجوم المضاد الذي شنّه عليه الفرنسيون. وقد فهم أهل آيير أن الأوروبيين ما زالوا متفوقين. ولذلك قرروا الانحياز إليهم وإلى جانبهم. وكانت قبيلتي قد تشردت أمام زحف الوحدات الفرنسية فتاه أهلها في البلاد من شرقها إلى غربها مثل الحيوانات الشاردة. وقد ذهبت (أمّي) (هومّا) إلى جهة الغرب وقد التقطتني قبيلة (اكميان) فاتهموني بالمشاركة في الثورة وحكم علينا أوروبي يدعى (بورجيس) بالإعدام في إنقال وجمعنا على مسافة عشرين قدماً من مكان المركز الإداري الحالي فطلب أحد التوارق (كيل افداي) يدعى (بشا) من (بورجيس) أن يعفو عن الشبان الصغار في مثل سنّي ثم

---

(1)ساليفو/ المصدر السابق. ص 107.

أعطى في حضوري الأمر لجنوده بالبدء في إعدام الناس بالحراب والفؤوس (كوب. كوب) فسقط أخوالي وأعمامي أمام عينيّ بواسطة حربة تخترق أجسادهم وتبقى الرؤوس معلّقة على الجثث بخيط رفيع من اللحم أو الجلد لأنه لم يتم قطعه. ولم تعد أمي من جهة الغرب إلا في عام 1919 فقد حصل لي معها المشهد نفسه الذي شاهدته مع أعمامي وأخوالي، لأنها عندما رأتني أخذتها المفاجأة والدهشة وظلت تبكي وتنتحب حتى سقطت جثة هامدة..»[1].

ولكن هذا المشهد وأمثاله لم ينه مشكلة الثورة في الصحراء. فلا تزال طلائع كاوصن وأعوانه من الليبيين يجوبون الصحراء الشمالية ويوقعون بالفرنسيين وأعوانهم الخسائر.

وانسحب كاوصن وعبد الرحمٰن تاقامة والخورير إلى الشمال مع مؤيّديهم من توارق المنطقة وعرب ليبيا واندفعت القوات الفرنسية تطاردهم بعد أن نقص زادهم وذخيرتهم، لأن الظروف في ليبيا التي كانت تدعمهم تغيرت وانسحبت تركيا مرة أخرى مهزومة من ليبيا في نهاية الحرب العالمية الأولى.

وفي يوم 31 مارس 1917 التقت القوات الفرنسية باثنين من العرب من أنصار كاوصن فقتلت أحدهما ووجدت في جيبه مجموعة من الأوسمة والنياشين لضباط فرنسيين قتلى. وكان القتيل يدعى محمد سلطان بن صلاح شاب طرابلسي غني جدًّا[2].

---

(1) أندرو ساليفو/ المصدر السابق. ص 110 ـ 111.

(2) انظر أندرو ساليفو.

كما بدأ الفرنسيون يستاقون كل ما يجدونه من الحيوانات من القبائل التي يمرون بها في طريقهم في محاولة لتجويع سكان المنطقة وإبادتهم.

وفي يوم 13 أبريل 1917 نشبت معركة بين الفرنسيين ومجموعة صغيرة بقيادة السلطان عبد الرحمٰن تاقامة في منطقة (بقزن). وحسب رواية الرواة أن السلطان تاقامة كان وحده مع مجموعة صغيرة في ذلك الممر الضيق.

وبدأت القوات الفرنسية بالتجمع من مختلف المناطق لتطويق المجموعة الصغيرة. واستمرت المعركة حامية الوطيس طوال اليوم وانسحب المجاهدون دون خسائر كبيرة 10 قتلى حسب الرواية الفرنسية وسقط من الفرنسيين 7 قتلى و10 جرحى كما نشط (موسى إق أما سطان) سلطان الهقار بمهاجمة قبائل (ايكزكزن) قبائل كاوصن. ولكن كاوصن اصطدم معهم وقتل منهم عدة أشخاص وأسر مجموعة أخرى.

وتفرقت مجموعات كاوصن في الصحراء وبدأت تشن الغارات على الفرنسيين. «ففي ليلة 11 ـ 12 يونيو 1917 هاجم الثوار قافلة قادمة للفرنسيين من طاوة فقتلوا ضمن القتلى الملازم (بروارد) آمر الفصيل.

كما أن السلطان آمود اتخذ من جانت نقطة انطلاق لقواته وبدأ يهاجم القوافل الفرنسية ما بين (ورقلة) و(عين صالح).

وبدأت الأخبار تصل للفرنسيين عن نقص ذخائر كاوصن وأن قبائل (ايكزكزن، إفوغاس، إزغران، كل اغاروس، إكدالن، العرب،

كل افداي، قليل من الهقار، وقليل من والليمدن) ظلّت مخلصة لكاوصن.

وفي يوم 13 يوليو 1917 وقعت معركة كبيرة بين الثوار والفرنسيين الذين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة واستمرت طوال اليوم في موقع (ميسِّين) ولم يستطع الفرنسيون تطويق المجاهدين وإبادتهم. وتقول المصادر الفرنسية وهي معهودة بمبالغاتها: إن المجاهدين تركوا على أرض المعركة 70 قتيلاً ومجموعة من الأسلحة. وانسحب كاوصن إلى جبال الآيير الوعرة متَّخذاً من حرب العصابات استراتيجية جديدة. واستطاع أن يجمع مجموعات من التوارق الذين ظلّوا مخلصين له.

وبدأ نقص الغذاء واضحاً لدى مجموعات كاوصن ولم تصله الإمدادات المنتظرة من ليبيا لتغير الأحوال السياسية فيها عقب الحرب الأولى.

وفي ليلة 28 ـ 29 أغسطس 1917 أنزل كاوصن هزيمة ساحقة بالفرنسيين قرب (قولوسكي) 40 كم شرق (تانوت). وفي الليلة نفسها هاجمت مجموعة أخرى من مجاهدي كاوصن القوات الفرنسية في قريتي (دوما ماري) و(تقارت) فاستولت على كميات من الذخائر.

وفي 29 أغسطس في وضح النهار هاجمت هذه الغزوة مفرزة فرنسية يقودها الملازم (باللي) والأوجدان (ألبيرت) فأنزلت بها هزيمة ساحقة ولم ينج من رجالها إلا ثلاثة من الرماة والأوجدان ألبيرت الذي فرَّ من المعركة من ضمن ستين جندياً منهم 32 من الهجانة»[1].

---

(1) انظر ساليفو/ المصدر السابق. ص 132.

وفي شهر سبتمبر 1917 سيطر كاوصن على الأدغال الواقعة بين (دمرقو) و(الأكواس). وكثّف الفرنسيون إرسال فرقهم لتمشيط المناطق والقبض على الوطنيين لإخبارهم عن مواقع كاوصن الذي قسَّم مجموعته إلى ثلاثة أقسام:

(أ) قسم يقوده هو شخصياً.

(ب) قسم يقوده السلطان عبد الرحمٰن تاقامة.

(جـ) قسم يقوده المختار كودوكو أحد مشايخ ايكزكزن.

وكانت الصدامات دائمة ومستمرة بين قوات كاوصن المنسحبة إلى الشمال والقوات الفرنسية وأتباعها من الخونة التي تطارد المجاهدين للقضاء عليهم مستغلة نقص ذخائرهم وتموينهم. وكان كاوصن يعرقل تقدم الفرنسيين بهجمات صغيرة وموفقة كلَّما سنحت الفرصة له.

وكان (موسى إق أما سطان) سلطان الهقار يقود مجموعاته تحت إمرة الفرنسيين يطارد معهم كاوصن. ويصفّي حساباته القديمة ويثأر لمقتل شقيقه من قبل جماعة سلطنة (والليمدن كل اطرام) الذين قتلوه في إحدى الغارات بين الهقار ووالليمدن. وصار بمجموعاته الموزعة في الصحراء يتجسس للفرنسيين وينقل لهم تحركات كاوصن. وصار يصطدم مع قوات كاوصن بمجموعاته المسلحة بالأسلحة الفرنسية، ونهب للمجاهدين قافلة تموين كانوا ينتظرونها لتحل لهم مشكلة نقص التموين.

وفي 25 من مارس 1918 استطاع كاوصن الخروج بصعوبة من معسكره عندما هاجمه (موسى إق أما سطان) والفرنسيون بإمرة الملازم (نيدليلك).

وأمام المطاردة المضنية ونقص التموين والذخائر قرر الزعماء الافتراق في مكان يدعى (تقّارت) في واحة (فاش) فتوجه مختار كودوكو إلى واحة (سيكيدن) و(يات) في الشمال الشرقي. أما سلطان التوارق والليمدن في (طاوة) فتوجه إلى (غات). أما عبد الرحمٰن تاقامة وكاوصن فاتجها إلى تيبستي ومعهما شيخ الزاوية السنوسية (عبد السلام قريميش) واستقروا في تيبستي مع التبو وبدأوا يرسلون الغارات إلى (كوار) و(جادوا) و(سيكدين).

وفي نهاية شهر يوليو 1918 غادر كاوصن وتاقامة ومعهما كل التوارق الثائرين (زوار) إلى (برداي) ومنها دخلا إلى ليبيا ليجدا الأمور قد تغيرت وأصبح خليفة الزاوي متصرفاً لمرزق وكان على خلاف مع السنوسيين حيث نشبت معارك بينه وبين عابد السنوسي من أجل الصراع على السلطة في فزان. وقُتل في هذه المعارك (علي الأشهب) خال عابد السنوسي.

وهنا هاجمهما خليفة الزاوي في واحة «تجرهى» بالقرب من القطرون ووصل كاوصن بصعوبة إلى (واو) حيث يقيم عابد السنوسي الذي بدأ هو الآخر يلطف الجو بينه وبين الفرنسيين إثر هزائمه في فزان على يد خليفة الزاوي.

ومن واو رجع كاوصن بشيء من الدعم والسلاح والذخيرة ولكن في واحة (أم العظام) هاجمه أحمد العياط وبعض أولاد بوسيف والمشاشية وقتله بعد أن قبض عليه أسيراً بسبب المعاملة السيئة التي تلقاها أفراد من أولاد بوسيف عام 1915 على يد كاوصن الذي قام

بقطع آذانهم لأنهم ـ على حد رأيه ـ لا يسمعون لكلام السيد (السنوسي الكبير).

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الثائر المجاهد بسبب عدم التنسيق، والمعارك الجانبية والثارات الشخصية التي قضت على الكثير من رجالات الوطن وأذكى المستعمرون نارها في كل من الصحراء الكبرى وليبيا[1].

ولكن عبد الرحمٰن تاقامة وصديقه الخورير بعد هذه الكارثة غادرا ليبيا عائدين إلى النيجر حيث توفي الخورير في الطريق بسبب مطاردة خليفة الزاوي لهما والقبض عليه ملقى في الصحراء من جراء العطش الذي قضى على الكثير من رجاله[2].

أما عبد الرحمٰن فقد واصل رحلته إلى الداخل. وسمع الفرنسيون بدخوله للنيجر فجهزوا حملة لتتبعه والقبض عليه أو قتله هو ومن معه. وسدّوا أمامه المنافذ والطرق مستعينين بخبراء الطرق من سكان المنطقة الذين انقلبوا لتأييد المنتصر كعادة معظم البشر.

وكانت مجموعة عبد الرحمٰن في حالة بائسة من التعب وقلة التموين وقلة الذخيرة، ونقص الجمال للركوب، إذ إن معظم الجمال احتاجوا لذبحها وأكلها.

وفي (ادريمونا) شرقي (داوتمي) في يوم 7 مايو 1919 نشبت معركة بين الفريقين غير متكافئة سقط فيها عبد الرحمٰن تاقامة أسيراً في

(1) انظر معارك الدفاع عن الجبل الغربي للمؤلف.
(2) محمد سعيد القشاط/ معارك الدفاع عن الجبل الغربي.

يد الفرنسيين بعد أن نفذت ذخيرته وقتل كل رجاله وأثناء استجوابه رد السلطان تاقامة قائلاً:

«إن رجالي عشرة رجال لم يبق منهم إلا واحد فقط هو رجل من الشعانبا كان قد خرج للصيد قبل وصولكم ومن (كيل أواي) بقي (فونا) واثنان من رجاله ورجل واحد من إيكزكزن وهذا كل ما بقي..»[1].

وهكذا تبين أن القوات الفرنسية بقضها وقضيضها وجواسيسها وخونتها كانت تطارد عشرة رجال من الثائرين وهم كل من بقي من ثورة كاوصن في الصحراء الكبرى يحملون السلاح تحت قيادة تاقامة.

ووصل في يوم 24 أغسطس 1919 السلطان عبد الرحمٰن تاقامة إلى (زندر) مقيداً بالسلاسل حيث أودع السجن في انتظار محاكمته.

لكن النقيب الفرنسي (فيدالي) آمر المعسكر تسلل ليلاً إلى سجن عبد الرحمٰن تاقامة وخنقه حتى مات وأعلن أنه انتحر. وكان ذلك في ليلة 29 ـ 30 أبريل 1920.

وقد جاء في تقرير الطبيب العسكري الفرنسي الذي شرح الجثة (سوشارو) أن تاقامة مات مخنوقاً وليس منتحراً[2].

ولم يبق من الفرسان الثلاثة في الصحراء الكبرى إلا (مختار كودوكو) الذي التجأ إلى شيخ (التبو) (كيتي) والذي كان جشعاً يطالبه بثمن الضيافة وبأسعار غالية. فقرر مختار مع حوالي عشرة من أصحابه

---

(1) أندرو ساليفو/ المصدر السابق. ص 164.
(2) أندرو ساليفو/ المصدر السابق وبه تفاصيل القتل. انظر التقرير عن مقتل تاقامة (ليفيبفر) 9 أغسطس 1920 ص 109، الملف 11، ج 19 داكار.

التوجه إلى (القفرة) بليبيا. ولكن الفرنسيين فاجأوهم بالهجوم وأعلنوا أنهم سيعطون للتبو مكافأة كبيرة إذا سلموا لهم المختار وكان ذلك الهجوم يوم 2 مارس 1920.

ولكن شيخ التبو (ماي شفّامى) قرر الغدر بالمجاهدين ليتلقى مكافأة الفرنسيين فحرض مجموعة من جماعته برئاسة أحدهم ويدعى (شوكي) الذي سار مع المجاهدين حتى وصل بهم إلى مكان صعب وهنا غدروا بهم وقتلوهم (المختار كودوكو وسبعة من رجاله) في مكان يدعى (سعد) وتمكن ثلاثة من أصحاب، المختار من الوصول إلى (القفرة) برفقة (فونا).

وتقدم (شفّامي) مغتبطاً للفرنسيين وقدم لهم ثلاثة أسرى من التوارق كانوا جيرانه وفي حمايته وبندقية المختار كودوكو وختمه. وأرسل بهذه الأشياء جميعاً (نجله).

وهكذا سقط آخر قادة الجهاد في الصحراء الكبرى ـ مع الأسف ـ على يد المسلمين الذين ثاروا من أجل حماية دينهم وتحرير أرضهم. كما استسلم (الغمارت) أحد قادة الجهاد في منطقة التوارق وباستسلامه انتهى آخر زعماء الثورة التارقية الليبية في بلاد الصحراء.

وقد استمرت هذه الثورة العارمة التي اشتعلت فيها كل الصحراء الكبرى قرابة الخمس سنوات وتركت بصماتها على الصحراء إلى وقتنا هذا.

فلقد قام الفرنسيون بعد إخمادها بمذابح شنيعة ضد الوطنيين وخاصة التوارق. وتشريد العائلات ونفيها من أماكن سكناها إلى مناطق

أخرى. ولقد التقيت بالكثير من الذين شردوا من أماكنهم وسيقوا مع عائلاتهم من قبل الفرنسيين وبعضهم يعيش الآن في ليبيا يروي ذكريات ذلك التشريد والقتل والنفي والمذابح الجماعية التي ارتكبها الفرنسيون في حق الشعب الصحراوي[1]. وقام الفرنسيون بتمزيق السلطنات التارقية وإعطاء المشايخ الذين عينوهم من مؤيديهم اختصاصات السلاطين، على أن يكونوا مسؤولين أمام السلطات الفرنسية.

ولقد قسمت ـ على سبيل المثال ـ سلطنة (تكريكريت) (طاوة) إلى ثماني مجموعات وزيدت لها أخيراً مجموعة تاسعة. وذلك في محاولة للحيلولة بين القيادات التقليدية والولاء الشعبي لها حتى لا تقوم ثورات أخرى ضد الاستعمار الفرنسي في المنطقة.

وكان حكم الفرنسيين للصحراء عامة، وللتوارق والعرب خاصة حكماً قمعياً لا وجود فيه للثقة بين الفرنسيين والتوارق. وعامل الفرنسيون مستعمَريهم الجدد بكثير من العسف والاضطهاد. وضغطوا عليهم كثيراً لإجبارهم على التنصر ودفعوا بموجات من الرهبان والمبشرين إلى أرض التوارق لتنصيرهم وردهم عن دينهم. وشوّهوا حقيقتهم وكتبوا عنهم بكثير من الحقد والازدراء والتشويه والطعن في أصولهم العربية ليحولوا بينهم وبين أمتهم العربية في الشمال. وليقتطعوهم منها، وخلقوا لهم تاريخاً مزيفاً ملئت سطوره بالشك والبغض بين التوارق وإخوانهم العرب في محاولة من الفرنسيين لتمزيق الأمة العربية، وإخوة الدين الإسلامي.

---

(1) يتواجد بعض الشيوخ في منطقة فزان وكذلك بني غازي. والتقيت بعجوز تدعى فاطمة التاقاطية كانت مع أسرتها صغيرة حين ساقها الفرنسيون منفية إلى نيامي.

وقد قابلهم التوارق برفض عنيد. فقاطعوا مدارسهم وأفتى علماؤهم أن من يضع ابنه في مدرسة للنصارى فهو كافر كما قاطعوا مدنهم. وانفردوا بعيداً في صحرائهم في إباء وشمم متمسكين أكثر من أي وقت مضى بدينهم وانتمائهم الصنهاجي العربي. وأنك لتجد شيوخ التوارق يحملون في جيوبهم شجرة نسبهم العربي يروونها لأولادهم وينسخونها لأحفادهم. وقد وجدت الكثير من هذه الأوراق تحتفظ بها الأسر التارقية عند تجوالي في بلاد التوارق (الصحراء الكبرى).



الباب العاشر
مشاهير الطوارق في التاريخ

مشاهير التوارق في التاريخ

رأيت أن أتناول في هذا الباب عرضاً موجزاً لمشاهير التوارق في التاريخ (وأقصد به التاريخ الإسلامي)، لأننا لم يصل إلى أيدينا تاريخ البارزين منهم وأسماؤهم قبل الإسلام.

ورأيت أن أرتب الأسماء حسب العهود وليس حسب الأبجدية كما هو معروف في ترتيب مثل هذه التعاريف.

ولقد وضعت لكل شخصية نبذة من التعريف حسب ما ورد إلينا وما وجدنا في كتب الأولين. وحاولت جاهداً أن أرجع كل حديث إلى مصدره. إذ الغرض من مثل هذه المحاولة هو التعريف بهذا الجمع العربي الإسلامي الذي أهمله العرب والمسلمون في زحمة مشاغلهم واهتماماتهم بالشمال حيث المدن والراحة، وحيث يكون البحث ميسراً وهيناً، وحيث تتوفر المصادر والوثائق.

أما الصحراء حيث الزعازع والأنواء، وحيث الفجاج الشاسعة فإنها أُهملت لفترة طويلة من التاريخ ولم يصل إلينا من تاريخها غير نتف صغيرة لا تروي غليل الباحث المدقّق النهم.

لقد وضعت هذه المحاولة للتعريف برجالات التوارق على مدى التاريخ وبالرغم من قلّة المعلومات التي قد أكون جمعتها حول معظم

الشخصيات، فإنني أرى أن ضوءاً ولو بسيطاً سلطته على جزء من أمتنا العربية الإسلامية هو جدير بالتتبع والإحياء. وزيادة البحث والتدقيق حتى لا نترك فرصة لغامز ولا موقع قدم لمشكك ـ وما أكثرهم في هذا العالم ـ.

لقد شوّه الفرنسيون تاريخ الصحراء بسردهم للحقائق من جانب نظرتهم الاستعمارية.

وبهذه المحاولة قد أكون وضعت بعض الأمور في نصابها وخططت للباحثين الجادين طريقاً للتوسع في مثل هذه الدراسات.

أمراء دولة الملثمين

1 ـ تيزا بن وانشق: ملك الصحراء الكبرى، وأخضع ملوك السودان وأدخلهم في طاعته وأخذ منهم الضرائب.

2 ـ ثبو لوثان: هو أول ملك صحراوي انتشر صيته وذاعت شهرته في بلاد المغرب. حكم الصحراء الكبرى، وخضع له ملوك السودان. وكان له جيش قوي، وكان غنياً ذا ثروة هائلة من الحيوانات وخاصة الإبل وتوفي ثبو لوثان في عام 222 هـ.

3 ـ يلتان: قام بتولي أمور دولة الملثمين في الصحراء الكبرى إلى أن توفي عام 287 هـ (ويظهر أن الإسلام قد انتشر في عهده كما يظهر من تسمية ابنه تميم).

٤ ـ تميم بن يلتان: تولى شؤون بلاد الصحراء الكبرى بعد وفاة أبيه إلى أن قُتل في عام ٣٠٦ هـ في حروب مع القبائل الصنهاجية فتفككت دولة الملثمين بعده ودخلت في فترة انحطاط دام مائة وعشرين سنة.

5 ـ يروبيان بن واستولي بن يزار: سيطر على زمام الأمور في الصحراء الكبرى في عهد الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمٰن الناصر في القرن الرابع الهجري. وكان له جيش قوي. أخضع ملوك السودان وأخذ منهم المغارم.

6 ـ أبو عبيد الله تاشرت بن تيفوت اللمتوني: قام تاشرت بتوحيد بلاد الصحراء الكبرى واجتمعت عليه القبائل الصنهاجية. وكان يتمتع بشعبية واسعة وكان من أهل الدين والصلاح. وقد أدَّى فريضة الحج وتوفي في إحدى حروبه بعد ثلاثة أعوام من توليه.

7 ـ يحيى بن إبراهيم الكدالي: تولى يحيى الكدالي ملك الصحراء الكبرى بعد وفاة (تاشرت) فقام بتوثيق الروابط والتحالف بين قبيلته (كدالة) وقبيلة صهره (لمتونة) فتعاونا على تقوية دولتهما. وكان يحيى قد قام بأداء فريضة الحج عام 440 هـ على رأس عدد من شيوخ القبائل الصنهاجية.

وأثناء عودته زار الفقيه (باعمران الفاسي) ببلاد القيروان. وطلب منه ـ كما ذكرنا في السابق ـ إرسال فقيه يعلمهم فرائض دينهم. فخاطب هذا الفقيه (واجاج بن زلوي) فأرسل معه هذا الأخير الفقيه عبد الله بن ياسين الذي يعتبر واضع الحجر الأساسي لدولة (المرابطين) ومساعدة يحيى بن إبراهيم على تكوين هذه الدولة الفتية.

8 ـ عبد الله بن ياسين بن بك الجزولي: تلقى عبد الله تعليمه في بلاد الأندلس وعاش فترة من الزمن في بلاد (تامسنا) عند أمراء برغواطة، وحاول أن يصلح قبائل مصمودة في جبال الأطلس ولكنه لم يفلح فتركها وتوجه إلى قبيلة جزولة (قبيلته) ليقوم على تعليم أولادها القرآن الكريم. ويقوم بالنصح والإرشاد عند أمير الملثمين (يحيى إبراهيم الكدالي).

وما أن تكاثر عدد مريديه من قبيلة (كدالة) حتى عرض عليهم دعوة إخوتهم من قبيلة (لمتونة).

واندمجت هاتان القبيلتان الكبيرتان في الصحراء الكبرى وراحتا تنشران دعوة الإسلام ومحاربة البدع والخرافات إلى أن توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي فتحول إلى خلفه يحيى بن عمر اللمتوني واستمر يدعو الناس ويحرضهم على الجهاد. وانتقل إلى قبائل (برغواطة) ليدعوهم للانضمام لدعوة (المرابطين) ولكنه قتل في معركة وقعت مع خصومه من برغواطة عام 451 هـ. وتولى الإمامة من بعده الفقيه سليمان بن كِرُّو.

9 ـ يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني: كان يحيى بن عمر على رأس قبائل لمتونة في عهد سلفه يحيى الكدالي. وقد تحول إليه الفقيه عبد الله بن ياسين بعد وفاة يحيى بن إبراهيم. وتوترت العلاقات بينه وبين الفقهاء الذين رفضوا أحكامه فعزلوه وطردوه وقطعوا عنه الدعم والمساعدة فاستقبله الأمير يحيى بن عمر أمير قبائل لمتونة.

ولكن أمراً صدر لهذه القبائل من الفقيه (واجاج بن زلوي) الذي أرسل إليهم عبد الله بأن يحسنوا وفادته ويطيعوا أمره. فعادوا واعتذروا لعبد الله وبدأ بتنظيمهم تحت قيادة يحيى بن عمر.

وبدأ الأمير يحيى بإخضاع قبائل (اضغاغ) وإدخالها في الإسلام بعد حروب ضارية ثم تقدم إلى بلاد سجلماسة ودرعة واحتلها وأرغم أميرها (مسعود بن وادونين المغراوي) على الفرار.

وانشغل الأمير يحيى في نزاع بين كدالة ولمتونة اللَّتين كادت تقع بينهما حرب، فأصلح الأمير بينهما. وفي هذه الأثناء استرجعت مغراوة سجلماسة وقتلوا من فيها من اللمتونيين. وانفجرت الحرب بين لمتونة

وكدالة من جديد فقتل الأمير يحيى بن عمر فيها سنة 448 هـ. وقيل إنه قتل في أثناء جهاده في نشر الإسلام ببلاد السودان.

10 - أبو بكر بن عمر اللمتوني: قدمه الإمام عبد الله بن ياسين لرئاسة حركة المرابطين بعد وفاة أخيه يحيى بن عمر. وكان أبو بكر في ذلك الوقت يقوم بقيادة جيش المرابطين في درعة وسجلماسة حيث وصل إلى بلاد أغمات عاصمة جبال أطلس 450 هـ وقبائل المصامدة الذين بايعوه بمجهود عبد الله بن ياسين. وفي عام 460 هـ تزوج أبو بكر زينب النفزاوية التي كانت قد قالت: «إنه لا يتزوجها إلا من يحكم بلاد المغرب كلها» وكانت امرأة ذات عقل وجمال.

واشتكى أهل أغمات من كثرة الجيش المرابطي فطلب منهم الأمير أبو بكر تعيين مكان له لينشىء فيه عاصمة جديدة. ووقع الاختيار على مكان يقع بين قبيلة هيلانة وقبيلة هزميرة.

حيث أسس مدينة (مراكش) ومعناها بلغة التوارق (مُرْ - كل) أي أنها (مدينة الخير تجد فيها إذا مررت ما تأكل) عام 462 هـ.

وفي أثناء بداية تشييد البناء وصل إلى أسماع الأمير أبي بكر خبر يفيد اندلاع القتال بين كدالة ولمتونة من جديد. فقرر العودة إلى الصحراء وعين ابن عمه يوسف بن تاشفين نائباً عنه في بلاد المغرب وكان ذلك عام 463 هـ.

وفي عام 465 هـ رجع أبو بكر من الصحراء فوجد أن يوسف بن تاشفين فرض سيطرته على المغرب وقابله بهيئة الملوك. فشق عليه أن يطلب منه التنازل عن الإمارة، وربما خشي أنه إذا طلب منه ذلك لا يفعله.

فالتقى يوسف مع أبي بكر في مكان خارج المدينة وقدم له الهدايا والخيول والملابس الفاخرة، وكذلك لكل من كان معه من الأمراء.

فجلس أبو بكر مع يوسف وأوصاه باتباع طريق الحق. وعدم الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال له: إنني وجدت أنه لا يصلح لهذا الأمر غيرك وأنا لا أستطيع الابتعاد عن الصحراء، لأن شعبها في حاجة إليَّ.

ثم أعلن تنازله عن الإمارة له أمام الفقهاء والشيوخ الذين جاءوا على رأس قبائلهم.

ورجع أبو بكر إلى الصحراء، واستمر في مواصلة الكفاح والجهاد ضد الوثنيين من بلاد السودان يقود دولة المرابطين الصحراوية إلى أن استشهد في إحدى المعارك عام 468 هـ.

11 ـ يوسف بن تاشفين: هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن توركيت اللمتوني الصنهاجي. عيّنه الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني قائداً لجيش المرابطين في بلاد المغرب عام 461 هـ من أجل إخضاع قبائل زناتة. كما استخلفه على ولاية الدولة عام 463 هـ عندما أراد أبو بكر بن عمر العودة للصحراء.

فاهتم بإتمام مدينة (مراكش) وسير شؤون البلاد على غاية من الحسن والإتقان. وجنَّد أعداداً كبيرة من القبائل المغربية في جيوشه.

وفي عام 464 هـ أصدر عملة بإسمه خاصة بدولة المرابطين وبدأ في إرسال الجيوش لإخضاع كل بلاد المغرب لحكمه حيث تمَّ له ذلك في عام 466 هـ بعد تسوية أمر الولاية مع ابن عمه أبي بكر بن عمر.

واقترح عليه كبار دولته ورؤساء القبائل أن يلقب نفسه بلقب (الخليفة) أو (أمير المؤمنين)، ولكنه رفض وأعلن أنه تابع للخلافة الإسلامية في بغداد التي يعترف بها ويحكم باسمها في بلاد المغرب، ولكن شيوخ القبائل ألحوا عليه في أن يختار لنفسه لقباً يمتاز به بين الأمراء، فاقترح عليه أن يلقب نفسه بـ(أمير المسلمين). فأمر ولاته وأمناء سره أن يخاطبوه بهذا اللقب.

وفي عام 469 هـ أرسل يوسف جيشاً لفتح مدينة فاس بقيادة يحيى بن واسينو اللمتوني فدخلها بعد معارك دامت أسبوعاً.

كما أرسل قبلها في عام 468 هـ جيشاً لفتح مدينة تلمسان بقيادة مزدلي اللمتوني فدخلها بدون مقاومة.

وفي عام 469 هـ قدم إلى بلاد المغرب إبراهيم بن أبي بكر بنية استرجاع ملك أبيه فأرسل إليه يوسف بن تاشفين الأمير مزدلي للتباحث معه ومعرفة حقيقة أمره. ثم أقنعه مزدلي بعدم جدوى مشروعه واستبعاد فكرة المطالبة بالملك، ونصحه بأن يطلب من يوسف أن يمده بالمال والهدايا ليرجع بها إلى بلاده وكلم الأمير مزدلي يوسف بن تاشفين في هذا الموضوع فأبدى موافقته عليه وأمر بتقديم الأموال لهذا الشاب فشكره على ذلك وانصرف إلى بلاده دون أن يستقبله يوسف بن تاشفين.

ولقد استطاع يوسف أن يبني قوة عسكرية قوية جعلت ملوك الطوائف في الأندلس يخشون عبورها إليهم واستيلاءها على بلادهم فأرسلوا إلى يوسف بن تاشفين رسالة يقولون فيها:

«أما بعد، فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز. وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهم. وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا. فاختر لنفسك أكرم نسبتيك. فإنك في المحل الذي لا يجب أن تُسبق فيه إلى مكرمة. وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوته، والسلام..».

فترجمت له الرسالة إلى اللغة التارقية وأمر بالرد عليها بعدم تدخله في شؤونهم الداخلية. وأنه لا يعبر لهم إلا إذا استنجدوا به لحرب النصارى، ففرحوا بذلك وأمنوا جانبه، وتحالفوا معه في حالة تعرضهم لتهديد من ملك الإفرنج.

ويدأت مضايقات الإفرنج للمسلمين تزداد. فاجتمع رأي معظم ملوك الطوائف على الاستنجاد بالمرابطين قائلاً زعيمهم المعتمد بن عباد قولته الشهيرة: «لأن يرعى أبناؤنا جمال الملثمين أهون علينا من أن يرعوا خنازير الروم».

فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بجيشه العظيم. وانضم إليه ابن عباد بجيشه حتى التقى مع جيش الإفرنج في موقعة (الزلاقة) الشهيرة عام 481 هـ التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً وارتفع فيها نجم (الملثمين).

وقد مدح الشعراء يوسف بن تاشفين بطل هذه المعركة الشهيرة ومنهم الشاعر عبد الجليل بن وَهبون الذي يمدح يوسف ويفخر بنسبه الحميري. وكذلك ابن عباد ويفخر بنسبه إلى قبيلة (لخم) حيث يلتقي البطلان في أرومتهما العربية. وقد سبق نشرها في هذا الكتاب.

رجع يوسف إلى المغرب وترك جزءاً من جيشه في الأندلس تحت إمرة سير بن أبي بكر. فقام سير بن أبي بكر بالاستيلاء على دويلات الطوائف وعين أمراء عليها من كبار قادة جيشه، وهكذا بدأ المرابطون رحلة جديدة من السيطرة على بلاد الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين ودفع الإفرنج للوراء زهاء نصف قرن كان المرابطون حماتها وحصون ثغورها.

وفي يوم الإثنين أول محرم سنة 500 هـ/ 2 سبتمبر 1106 م. توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مريضاً بعد أن أوصى بولاية عهده لابنه علي.

وقد رثاه الشعراء وتحسر عليه العلماء والفقهاء الذين كان يؤثرهم ويقربهم ويستشيرهم. وممن رثاه من الشعراء محمد بن سوار الأشيوني في قصيدة طويلة نورد منها:

ملك الملوك وما تركت لعامل ... عملاً من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف ... والكل يعقوب بما تطويه
اسمع أمير المسلمين وناصر الـ ... ـدين الذي بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً من رعيتك التي ... لم ترض فيها غير ما يرضيه
أما مساعيك الكرام فإنها ... خرجت عن التحديد والتشبيه
في كل عام غزوة مبرورة ... تردى عديد الروم أو تفنيه
تصل الجهاد إلى الجهاد موفقاً ... حتم القضاء بكل ما تقضيه
ونجّي ما دبّرته كنَجيّه ... فكأن كل مغيّب تدريه
متواضعاً لله مضهر دينه ... في كل ما تُمضيه أو تبديه
ولقد ملكت بحقك الدنيا وتم ... ملك الملوك الأجر بالتمويه

لو رامت الأيام أن تحصي الذي فعلت سيوفك لم تكن تحصيه
إنا لمفجوعون منك بواحد جمعت خصال الخلق أجمع فيه
وإذا سمعت حمامة في أيكة تبكي الهديل فإنها ترثيه
ومضى قد استرعى رعيته ابنه فأقام فيهم حق مسترعيه
وإذا هزبر الغاب ضرى شبله في الغاب كان الشبل مثل أبيه
وإذا «علي» كان وارث ملكه فالسهم ملقى في يدي باريه[1]

وهكذا انتهت حياة يوسف بن تاشفين المؤسس الفعلي لدولة المرابطين. وكان ورعاً تقيًا يخشى الله. وينهي عماله عن الظلم، وكان محبًا للعلماء والفقهاء والشعراء. ضم ديوانه خيرة الكتَّاب وعلى رأسهم الأديب الأندلسي عبد الرحمٰن بن أسباط الذي كان يتقن العربية والتارقية مما سهّل على ابن تاشفين مخاطبة ولاته وأمرائه برسائل غاية في البلاغة. ثم تولى الكتابة محمد بن سليمان بن القصيرة المعروف بأبي بكر بن القصيرة الذي يصفه ابن الصيرفي بقوله: «الوزير الكاتب الناثر القائم بعمود الكتابة والحامل للواء البلاغة، الذي لا يشق غباره، ولا تخمد أنواره، اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم»[2].

وهكذا استطاع هذا الرجل أن يحقق وحدة المغرب والأندلس معاً، وأن يحافظ على الأندلس من الانهيار وأن يؤسس دولة مرابطية كبرى من تخوم السودان إلى جبال البرانس.

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني. ص 831 ـ 832. الدار العربية للكتاب ـ تونس ـ ليبيا.
(2) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوطة الأسكوريال). انظر عصر المرابطين والموحدين/ محمد عبد الله عنان. ج 1، ص 53.

12 ـ **علي بن يوسف بن تاشفين**: تولى علي بن يوسف إمارة دولة المرابطين بعد وفاة والده يوسف، وكان كما يقول ابن عذارى:

«فاقتفى أثر أبيه، وسلك سبيله في عضد الحق وإنصاف المظلوم، وأمن الخائف، وقمع المظالم، وسد الثغور ونكاية العدوّ، فلم يعدم التوفيق في أعماله، والتسديد في حسن أفعاله».

ويقول محمد عبد الرحمٰن عبد اللّطيف:

«فاتبع نهجه (أي نهج والده) في سياسة البلاد ومواصلة الجهاد من أجل المحافظة على الإسلام ومواجهة التهديدات الصليبية في بلاد الأندلس. فقام بعبور البحر لقتال الإفرنج. وازدادت في عهده هجمات الصليبيين على السواحل المغربية. فأغار فرسان «جنوة» على إقليم (برقة) عام 509 هـ ثم تمكن من صد غاراتهم وإبعاد خطرهم. .»[(1)]. وحاول في بداية عهده ابن أخيه يحيـى بن أبي بكر بن يوسف والي فاس الثورة على عمه ولكنه فشل.

وفي عهده وقعت موقعة أقليش الشهيرة التي انتصر فيها المرابطون ضد الإسبان (الإفرنج) في 16 شوال سنة 501 هـ الموافق 29 مايو 1108 م. يوم الجمعة.

ويقول عنها محمد عبد الله عنان:

«وكانت موقعة أقليش، بعد الزلاقة (479) واستيلاء المرابطين على بلنسية (495) أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات قشتالة. وهو نصر كان من أثره توطيد سلطان المرابطين في المناطق الوسطى

---

(1) ابن عذارى. البيان المغرب/ نقله عن عبد الله عنان/ المصدر السابق ج 1، ص 58.

والشرقية في شبه الجزيرة وفي إعلاء سمعتهم العسكرية والدفاعية»[1].

كما عـيّن علي بن يوسف ولاة بارزين على الولايات المرابطية كما عيّن على جزر البحر المتوسط القائد ابن غانية محمد بن علي المسوفي.

وفي عهده ظهر أمر الموحدين وبدأت دعوة زعيمهم المهدي بن تورمت وخليفته عبد المؤمن بن علي الكومي. وبدأ انشغال المرابطين بالحروب ضد هذه الدعوة الفتية.

وفي عام 537 هـ توفي الأمير علي بن يوسف تاركاً ولاية العهد من بعهد لابنه تاشفين.

13 ـ تاشفين بن علي بن يوسف: كان معيناً من قبل والده على الأندلس فحقق انتصارات باهرة ضد الإفرنج. ولما توفي والده أوصى له بولاية العهد ولكن هذا الشاب لم ينعم بالملك فلقد بدأت دعوة الموحدين في الاتساع فما أن تولى إمارة المرابطين حتى شرع في خوض المعارك ضد الموحدين.

وفي إحدى المعارك مع الموحدين سقط قتيلاً إثر هزيمة «حبذة» قرب وهران عام 539 هـ.

14 ـ إبراهيم بن تاشفين بن علي: عيّنه أبوه ولياً للعهد فبويع بالإمارة بعد مقتل والده. وكان صبياً فقام عمه بانقلاب عليه فاستولى على قصر مراكش وعزله. ويبدو أنه وضعه تحت الإقامة الجبرية حتى

---

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ أمراء دولة الملثمين. مخطوط مكتبة المؤلف. ص 15.

احتل الموحدون مدينة مراكش فأسروا قادة المرابطين وقتلوهم جميعاً عام 541 هـ.

15 ـ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين: قام بالاستيلاء على الإمارة في مراكش بانقلاب عزل فيه ابن أخيه إبراهيم مما سبّب تصدعاً كبيراً في صفوف المرابطين في وقت هم أشد فيه احتياجاً لجمع الشمل ومحاربة الموحدين الذين بدأت دعوتهم في النهوض.

وكان إسحاق قد استعمل الفرقة الرومية من حرس المرابطين فكلفها بحراسة قصره لعدم ثقته في العناصر الوطنية من المرابطين الذين كان جلّهم يؤيد ابن أخيه إبراهيم.

فقام الموحدون بحصار مراكش إلى أن استسلمت فأسروا أمراء المرابطين بمن فيهم إسحاق وابن أخيه وأعدموهم جميعاً. وبذلك انتهت هذه الدولة المرابطية في عام 541 هـ. ولم يبق منها إلا فرع (بني غانية) في جزائر البحر المتوسط الذين قاوموا الموحدين واستولوا على تونس وطرابلس والواحات الصحراوية وانتهى بهم المطاف في إقليم الزاب ببسكرة[1].

أشهر القادة العسكريين في دولة المرابطين

سنذكر في هذه العجالة أسماء مجموعة من القادة العسكريين (المرابطين) الذين وصلت إلينا أسماؤهم وأعمالهم العسكرية التي

(1) انظر أمراء دولة الملثمين/ محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. المصدر السابق. ص 16.

ساهمت في إرساء دولة المرابطين واشتهارها في منطقة المغرب العربي والأندلس. والذين كانوا سبباً في الانتصارات الباهرة على الإفرنج في الأندلس.

1 ـ سير بن أبي بكر: أحد القادة المشهورين الذين اعتمدت عليهم الدعوة المرابطية في بداية نشوئها. نجده يعبر مع يوسف بن تاشفين إلى بلاد الأندلس وعندما عاد يوسف إلى المغرب بعد أن خاص معركة (الزلاقة) الشهيرة والتي كان سير أحد رجالها، يترك سير بن أبي بكر نائباً عنه على الأندلس وأميراً على الجيوش المرابطية فيها.

وعندما أراد يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وعزل ملوك الطوائف كلف سير بن أبي بكر بهذه المهمة الخطيرة فقام بها على أحسن وجه.

ويقول عنه محمد عبد الله عنان:

«وأما سير بن أبي بكر فقد كان أيضاً من أعظم زعماء لمتونة وقادتها، وقد ظهر بنوع خاص بشجاعته وبراعته العسكرية الفائقة في موقعة الزلاية (479) هـ. ولما جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جوازه الثالث إلى شبه الجزيرة في سنة 483 هـ وبدأ افتتاح دول الطوائف بالاستيلاء على غرناطة فوض عند عودته إلى المغرب شؤون الأندلس إلى الأمير سير، وعهد إليه بافتتاح ممالك الغرب الأندلسية، فافتتح سير مملكة إشبيلية من أيدي بني عباد (484) هـ ثم افتتح مملكة (بطليوس) من أيدي بني الأفطس (488) هـ في الظروف والمناظر العنيفة المروعة التي فصلناها في كتابنا «دول الطوائف» وكانت آخر

الغزوات العظيمة التي قام بها سير هي افتتاحه لقواعد الغرب من يابرة حتى أشبونة 504 هـ 1111 م»[1]، وفي عام 507 هـ 1114 م. توفي الأمير سير بن أبي بكر وهو وال على إشبيلية.

2 ـ **مزدلي بن تيولتكان بن الحسن بن محمد بن ترقوت**: هو من أقارب يوسف بن تاشفين ويلتقي معه في (ترقوت) ويصفه ابن الخطيب بقوله: «بطلاً ثبتاً. بهمة من البهم. بعيد الصيت. عظيم الجلد أصيل الرأي. مستحكم الحنكة. طال عمره. وحمدت مواقفه وبعدت غاراته. وعظمت في العدو وقائعه..»[2]. ونجد مزدلي من أكبر أعوان يوسف بن تاشفين الذين يكلفهم بالمهمات الكبيرة.

فحتى عندما وصل إبراهيم بن أبي بكر بن عمر قادماً من الصحراء مطالباً بملك والده. أرسل إليه يوسف مزدلي ليفاوضه وفعلاً نجحت المفاوضة وعاد إبراهيم إلى الصحراء.

ويقول محمد عبد الله عنان:

«وقد كان من أعظم أعمال مزدلي استرجاعه لمدينة بلنسية من أيدي جنود السيد «الكمبيادور» بعد وفاته وجنود قشتالة وذلك في سنة 495 هـ 1102 م. وكان قد وُلِّي بلنسية ثم قرطبة وغرناطة أيام يوسف. ثم ولي قرطبة قبيل وفاته ببضعة أعوام من قبل علي بن يوسف.

وفي شوال سنة 508 هـ 1115 م توفي الأمير مزدلي.

3 ـ **محمد بن الحاج**: هو أبو عبد الله محمد بن الحاج أحد القادة

---

(1) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 73.

(2) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 72. وانظر البيان المغرب، لابن عذارى.

العسكريين للدولة المرابطية. عبر مع يوسف بن تاشفين ضمن الجيش المرابطي إلى الأندلس. وعين أميراً على ولاية غرناطة 509 هـ 1115 م. وهو الذي استولى على سرقسطة من أيدي بني هود أواخر عام 503 هـ 1110 م. ولبث ابن الحاج والياً على سرقسطة بضعة أعوام. ويقول محمد عبد الله عنان:

«ولبث ابن الحاج والياً على سرقسطة بضعة أعوام، وهو يحوطها بحمايته ويرد عنها أطماع النصارى المحيطين بها من الشرق والغرب والشمال. ويقوم بغزو أراضيهم والعبث فيها من آن لآخر. .»[1].

ويستمر محمد عبد الله عنان:

«وكان أبو عبد الله محمد بن الحاج من أكابر زعماء لمتونة وقوادها وكان يتصل بصلة القرابة المتينة ليوسف بن تاشفين إذ يرجع نسبه إلى (ترقوت) أو (ترجوت) جد العاهل المرابطي وعرف بابن الحاج. إذ قام أبوه بأداء فريضة الحج. وقد ظهر منذ البداية، مذ عبر إلى شبه الجزيرة مع يوسف بن تاشفين في سنة 484 هـ بقدرته وأعماله العسكرية البارزة، أولاً حين افتتاحه لقرطبة من يد ابن عباد ثم في محاربته للقشتاليين في غير موقعة. ولما تولّى علي بن يوسف عيّنه أولاً والياً للمغرب. ولكنه لم يمكث في هذا المنصب سوى أشهر قلائل. ثم ندبه لولاية بلنسية وشرق الأندلس، في سنة 501 هـ ومن بلنسية سار ابن الحاج إلى سرقسطة استجابة لدعوة أهلها. وانتزعها من أيدي بني هود واستقر والياً لها كما تقدم. .»[2].

(1) عصر المرابطين والموحدين/ المصدر السابق، ص 74.

(2) المصدر السابق. ص 75 ـ 76.

وفي معركة بين المرابطين والقشتاليين بالقرب من قرطبة سقط محمد بن الحاج شهيداً مع مجموعة من قادة المرابطين وذلك في مستهل صفر سنة 509 هـ 27 يونيه 1115 م.

4 ـ **محمد بن فاطمة**: يكنّى أبا عبد الله وينسب إلى أمه على عادة التوارق. هو أحد قادة المرابطين العسكريين. عبر الأندلس وعيّن والياً على بلنسية. شارك في كثير من الوقائع ضد الإفرنج. وكان عندما حاول الأمير ابن الطاهر تميم أن ينكص على عقبيه خشية ملاقاة النصارى في موقعة (اقليش) الشهيرة 16 شوال 501 هـ 29 مايو 1108 هو أحد القادة الذين شجعوه على القتال. وتم الانتصار بتفكيرهم وخطتهم. وبعد وفاة سير بن أبي بكر عيّن محمد بن فاطمة مكانه على ولاية إشبيلية فلبث على ولايتها إلى أن توفي 515 هـ 1121 م»[1].

5 ـ **محمد بن عائشة**: هو ابن عبد الله محمد بن عائشة. وعائشة هذه أمه نسب إليها على عادة التوارق في نسب الولد لأمه عندما تكون امرأة مشهورة.

نجده في الأندلس عابراً ضمن من عبر مع الأمير يوسف بن تاشفين ومتولياً قيادة أحد فروع الجيش المرابطي ثم عين والياً على مرسية. وفي معركة أقليش كان أحد قائدين شهيرين قاداها إلى النصر. هو ومحمد بن فاطمة.

يقول ابن الطاهر تميم قائد المعركة عند مقدم القشتاليين أنه

(1) انظر التفاصيل في كتاب عصر المرابطين والموحدين/ المصدر السابق. ص 71 ـ 72.

استدنى إليه «القائدين المجربين، ذوي النصيحة والآراء الصحيحة أبا عبد الله محمد بن عائشة وأبا عبد الله محمد بن فاطمة وأنهم بعد المشاورة اجتمعوا على كلمة الله متعاقدين، وخضعوا إلى حكمه مستسلمين»[1].

وعن موقعة أقليش يقول محمد عبد الله عنان معرضاً بأبي الطاهر تميم قائد المعركة: «وتميم لم يكن من أكابر القادة المرابطين، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية. ولم يكن انتصاره في موقعة (أقليش) راجعاً إلى مقدرته وصفاته الخاصة، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى شجاعة قائديه المجربين محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة. ولولاهما لما اشتبك في المعركة ولآثر الارتداد..»[2].

6 ـ **محمد بن مزدلي**: تولى ولاية قرطبة بعد وفاة والده (508) هـ 1115 م. ولم يمكث في هذه الولاية سوى شهور قلائل حتى قاد جنده لرد القشتاليين الذين اقتربوا من قرطبة ونشب بين الفريقين قتال عنيف سقط فيه محمد بن مزدلي شهيداً في مستهل صفر 509 هـ 27 يونيه 1115 م.

وسقط معه مجموعة من قادة المرابطين وزعماء لمتونة منهم الأمير أبو إسحاق ابن دانية والأمير أبو بكر بن واسينو وغيرهما.

7 ـ **عبد الله بن مزدلي**: هو ابن القائد الشهير مزدلي. تولى إمارة غرناطة وشارك في عدة معارك وهجمات ضد الإفرنج ثم ولّي سرقسطة وتوفي بها عام 1118 م. وهي محاصرة من قبل الإفرنج.

---

(1) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 63.

(2) المصدر السابق. ص 99.

8 ـ أبو بكر بن إبراهيم بن تافلوت: هو ابن عمر أمير المسلمين علي بن يوسف وزوج أخته. كما أنه أيضاً زوج أخت محمد بن عائشة. عيّن والياً على طرطوشة وبلنسية. اشترك في عدة معارك ضد الإفرنج، وكان من القادة المعدودين في الجيش المرابطي. توفي عام 510 هـ وقيل 511 هـ.

9 ـ أبو محمد أبو بكر بن سير اللمتوني: هو ابن القائد الشهير سير بن أبي بكر، وابن أخت علي بن يوسف أمير المسلمين المسماة (قنونة) وبها عرف فيقال ابن قنونة. قاد الجيش المرابطي في عدة معارك ضد الإفرنج ببلاد الأندلس، كما كان قائد معركة (القلعة) أو (القليعة) 523 هـ 1129 التي انكسر فيها المرابطون.

10 ـ عمر بن سير اللمتوني: هو أيضاً ابن القائد الشهير سير بن أبي بكر تولى ولاية إشبيلية، وقاد جيشه لحرب الإفرنج فقتل في معركة في قشتالة 523 هـ 1129 م.

11 ـ محمد بن تينغمر اللمتوني: عيّن والياً على غرناطة. وسار ضمن الحملة التي قادها إبراهيم بن يوسف أخو أمير المسلمين لمحاربة ملك أراجون (ابن رذمير). ولكن المعركة كانت في غير صالح المسلمين وانكسروا فيها انكساراً كبيراً.

12 ـ أبو الطاهر تميم بن يوسف: هو أخو علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين عيّنه والياً على الأندلس ولكنه لم يكن على قدر من المهارة العسكرية ولا الشجاعة كما يصفه المؤرخون. وكان يتجنب ملاقاة العدو، وبالرغم من أنه كان أمير الجيش في معركة (اقليش) إلا

أن النصر كان بسبب القائدين الشجاعين محمد بن فاطمة ومحمد بن عائشة اللذين رافقاه في الجيش وأشارا عليه بالهجوم وعدم النكوص. وكان تميم يتخذ من غرناطة قاعدة لشؤون ولايته على الأندلس. وبقي والياً على غرناطة إلى أن توفي في 520 هـ 1126 م.

13 - ابن تفرتاش: أمير البحر المرابطي. أسرع لنجدة الجزائر الشرقية عندما حوصرت على رأس 300 ثلاثمائة سفينة مرابطية واستطاع أن يفك الحصار ويأسر ثلاث سفن ويغرق أخرى. وتقول الروايات أن السفن الإفرنجية انسحبت قبل مجيئه عندما علمت بقدومه.

والقصة أن جمهورية بيزا وجنوة وإمارة برشلونة في أوائل عام 508 هـ 1114 م. خرجت بأسطول قوامه 300 ثلاثمائة سفينة مع وحدات بحرية من برشلونة وفرنسا وفرضوا الحصار على مدينة ميورقة عاصمة الجزائر. واستمر الحصار حوالي السنة واستطاع البحّار الجريء عبد الله بن ميمون أن يخترق الحصار بسفينته ولم يستطع النصارى اللحاق به. وأن يصل إلى الأمير يوسف بن تاشفين ويستنجد به.

فجهز هذا أمير البحر أبا السداد ابن تفرتاش فسار في أسطوله إلى أن وصل الجزيرة في أواخر عام 509 هـ 1116 م. وأسر من سفن الأعداء ثلاثاً وعين يوسف بن تاشفين أحد قادته المسمى وأنور بن أبي بكر اللمتوني والياً على الجزائر الشرقية.

14 - وأنور بن أبي بكر اللمتوني: هو أحد قادة المرابطين بالأندلس. عيّنه يوسف بن تاشفين والياً على الجزائر الشرقية بعد أن أنقذها من غزو الإفرنج، ولبث فيها زهاء عشرة أعوام ويقول محمد

عبد الله عنان: «وكان ظلوماً صارماً فعصف بأهل الجزائر واشتد في إرهاقهم. وكان من أسباب سخطهم عليه أنه أراد أن يرغمهم على ترك ثغر ميورقة وإنشاء مدينة أخرى داخل الجزيرة تكون بعيدة عن البحر. وأخيراً اضطرمت الجزيرة بالثورة وغلب الثوار على وانور، وقبضوا عليه ووضعوه في الأصفاد، وبعثوا إلى أمير المسلمين يشرحون أحوالهم وظلاماتهم. فاستجاب علي إلى صراخهم، وعين والياً جديداً للجزائر هو محمد بن علي بن غانية المسوفي فقدم إلى الجزائر سنة 520 هـ 1126 م»[1].

وقد استطاعت أسرة بني غانية تأسيس أسرة مرابطية لحكم الجزائر الشرقية بقيت تحمل أهداف ومبادىء المرابطين لسنوات أخرى بعد سقوط دولة المرابطين على يد الموحدين. وبقيت هذه الدولة الجديدة تقارعهم لعدة سنوات أخرى.

هذا كما عين على الجيوش المرابطية بالأندلس مجموعات من القادة وجلّهم لم يكونوا من القوة بحيث يحققون انتصارات باهرة يحفظها لهم التاريخ باستثناء تاشفين بن علي الذي ذكرناه في أمراء دولة المرابطين. فلقد حقق انتصارات باهرة. ومدحه الشعراء وأثبت شجاعة فائقة في ملاقاة الأعداء في عدة مواقع.

---

(1) محمد عبد الله عنان/ المصدر السابق. ص 153.



أمراء دولة بني غانية
الفرع الثاني لدولة المرابطين

دولة بني غانية

كانت دولة بني غانية امتداداً لدولة المرابطين. وينتمي زعماؤها إلى قبائل مسوفة إحدى فروع صنهاجة التي تكوَّنت منها هذه الدولة.

ورفع زعماء دولة بني غانية راية الكفاح ضد الموحدين الذين قضوا على الدولة المرابطية. وكان جد هذه الأسرة ويدعى علي بن يحيى المسوفي أحد قادة جيش المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين.

وكان أن حدثت واقعة بأن قتل علي بن يحيى هذا أحد رجال لمتونة وفرّ واعتصم بالصحراء. ووقعت جفوة بسببه بين قبائل لمتونة ومسوفة. ولكن يوسف بن تاشفين تدخل في الأمر وأعطى لأهل القتيل ديته. وطلب من علي بن يحيى العودة إلى عمله. وفعلاً عاد وتزوج إحدى قريبات يوسف بن تاشفين وتدعى (غانية) ورزق منها بولدين هما محمد ويحيى فتربيا في كنف يوسف بن تاشفين وتحت رعايته كما قرّبهما علي بن يوسف من بعد والده فعيّن يحيى والياً على غرب الأندلس من قرطبة كما عيّن محمداً والياً على جزر حوض البحر الأبيض المتوسط (ميورقة، مينوقة، يابسة) فبقيا في أعمالهما إلى أن قامت دولة الموحدين، فرفضا الانصياع إليها واستقلا بالجزر محتفظين ببقية دولة المرابطين داعين للدولة العباسية في بغداد.

وسنحاول التعرض لذكر أمراء هذه الدولة:

1 ـ علي بن يحيى المسوفي: هو جد أسرة بني غانية، وكان أحد قادة جيش المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، وكان زعيماً لقبائل مسوفة. حدث أن قتل أحد رجال قبيلة لمتونة مما أدّى إلى قتال بين المجموعتين وهرب علي إلى الصحراء. وتدخل يوسف بن تاشفين ودفع دية القتيل لأهله. وطلب من علي أن يرجع ليتولى عمله، كما عرض عليه أن يتزوج امرأة من لمتونة تدعى (غانية) ويبدو أنها قريبة ليوسف بن تاشفين فرزق منها بولدين هما محمد ويحيى.

2 ـ محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية: تربّى محمد في رعاية يوسف بن تاشفين في كفالة أخواله لمتونة (كما هي عادة التوارق) وعيّنه علي بن يوسف والياً على جزر غرب حوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك في عام 520 هـ وبقي والياً على هذه الجزر إلى أن توفي رافضاً الدخول في طاعة الموحدين سنة 554 هـ.

3 ـ يحيى بن علي بن يحيى المسوفي (ابن غانية): تربّى مثل أخيه في كنف أخواله لمتونة عند يوسف بن تاشفين وعيّنه علي بن يوسف والياً على غرب الأندلس في قرطبة وقتل أثناء الحروب بين المرابطين والموحدين في الأندلس عام 543 هـ. وكان بطل معركة (أفراغة) وقائدها حيث قُتل فيها (الفونسو المحارب). وقد مدح الشعراء يحيى على بطولته فيها 528 هـ 1134 م.

4 ـ عبد الله بن محمد بن علي بن يحيى: تولّى إمارة ولاية الجزر الشرقية بعد وفاة والده فثار عليه أخوه إسحاق فقتله أثناء اقتحام قصوره كما قتل من كان معه من حاشيته وأفراد عائلته في عام 546 هـ.

5 ـ إسحاق بن محمد بن علي بن يحيى: قام بانقلاب على أخيه عبد الله فاستولى على الحكم في الجزر واستبد بالحكم رافضاً الدخول في طاعة الموحدين وكان حكمه سيئاً فتضايق الناس منه، وهرب عدد كبير منهم وانضم للموحدين. وقد اهتم بالبناء والتعمير والزراعة وتوفي عام 580 هـ. وترك عدة أولاد بلغوا 12 ولداً.

6 ـ محمد بن إسحاق بن محمد: تولى ولاية الجزر بعد وفاة والده وحاول الدخول في علاقات مع يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين فأرسل إليه يوسف قائد الفرقة الرومية في مراكش المعروف باسم «الروبيرتير» للتفاوض معه ومعرفة مدى إخلاصه وجديته في نية الدخول في طاعة الموحدين. إلا أن إخوانه قاموا بانقلاب ضده فاعتقلوه وعزلوه عن ولاية الإمارة في الوقت الذي بلغهم نبأ وفاة يوسف ابن عبد المؤمن. وقاموا باعتراض (الروبيرتير) مبعوث السلطان إلى بني غانية واستولوا على أسطوله وعززوا به أسطولهم لشن الغارات على السواحل المغربية. فاحتلوا بجاية في بداية هجومهم لتبدأ بذلك ملحمة حروب بني غانية مع الموحدين في الجزء الشرقي من بلاد المغرب.

7 ـ علي بن محمد بن علي بن يحيى (ابن غانية): تولى زعامة بني غانية بعد الانقلاب على ابن أخيه محمد بن إسحاق فقاد العمليات ضد الموحدين، واتخذ من مدينة بجاية مركز انطلاق لعملياته وقاعدة لجيشه. واعتقل واليها الموحدي أبا موسى بن عبد المؤمن، ثم استولى على الجزائر وحاول احتلال قسطنطينة ولكنها استعصت عليه، ولكن المنصور سلطان الموحدين تمكن من استرجاع بجاية من أيدي بني غانية وأفرج عن واليها أبا موسى بن عبد المؤمن وهنا انسحب علي بن

محمد بن غانية إلى قفصة فاحتلها ثم إلى طرابلس التي كانت تحت سيطرة قراقوش الأرمني المطغري الموالي للأيوبيين في مصر. وتحالف معه ضد الموحدين. فجمع ابن غانية كافة القبائل العربية في إقليم طرابلس ولحق به جمع من قومه إلى لمتونة ومسوفة واستولى على بلاد الجريد بتونس وأعلن طاعته للخلافة العباسية في بغداد.

وقد أرسل علي بن محمد وفداً برئاسة كاتبه ابنه عبد المؤمن إلى الخليفة العباسي في بغداد الناصر بن المستضيء حاملاً بيعته وولاءه باسم بقايا دولة المرابطين ويطلب المدد والمساعدة ضد الموحدين. فكتب إليه الخليفة العباسي رسالة تضمنت الاعتراف به، وأصدر ديوان الخليفة مرسوماً بذلك إلى حاكم مصر صلاح الدين الأيوبي يطلب منه التحالف مع ابن غانية. وقد كتب صلاح الدين إلى قراقوش نائبه في بلاد المغرب للنظر في موضوع التعاون مع ابن غانية.

ولكن الموحدين جهزوا جيشاً لمهاجمة ابن غانية في الوقت الذي دبّ فيه الخلاف بينه وبين والي الأيوبيين غير أن بني غانية استبسلوا في الدفاع عن دولتهم الصغيرة فألحقوا هزيمة نكراء بالموحدين. ولكن الموحدين جمعوا جيوشهم من جديد وأعادوا الكرة على بني غانية مرة أخرى فاحتلوا قاعدتهم توزر. واستطاعوا تشتيت تجمعاتهم وقُتل علي بن محمد زعيم بني غانية في حرب نشبت بينه وبين قبيلة نفزاوة عام 584. فدفن في المكان نفسه ثم حملت رفاته لتدفن في (ميورقة) حيث مقبرة آبائه هناك.

8 ـ يحيى بن إسحاق بن محمد بن علي: تولى زعامة إمارة بني

غانية بعد مقتل عمه علي بن محمد واستمر في التحالف مع قراقوش ولكن هذا انحاز لجانب الموحدين فاندلعت الحرب بينه وبين يحيى بن إسحاق واستطاع بنو غانية أن يستولوا على طرابلس ويفر قراقوش إلى ودان فحاصروه هناك وقبضوا عليه وأعدموه.

ثم تقدَّم جيش بني غانية لمهاجمة المغرب الأوسط فاسترد قفصة وتوزر من الموحدين واحتل قسطنطينة وبسكرة. ثم زحف على تونس فاستولى عليها وأسر والي الموحدين على أفريقيا أبا يزيد بن حفص عمر بن عبد المؤمن في سنة 600 هـ.

وأرسل سلطان الموحدين الناصر جيشاً قوياً لردع بني غانية. واستطاع أن يزحزحهم إلى القيروان وقفصة. وجرت معارك بين الجيشين في جبال قرب قابس عام 602 انسحب على أثرها جيش بني غانية إلى طرابلس.

وعاود بنو غانية الكرة وزحفوا بجيشهم فاستولوا على مناطق تونس واستمروا حتى وصلوا إلى سجلماسة ثم توجهوا إلى تلمسان ونشبت معركة كبيرة في (تيهرت) قتل فيها أبو عمران والي تلمسان.

ونهب بنو غانية بلاد المغرب الأوسط وجمعوا غنائمهم وعادوا إلى طرابلس. وفي أثناء عودتهم نصب لهم والي أفريقيا من قبل الموحدين كميناً وألحق بهم هزيمة واستولى على ما معهم من السلب والغنائم. وطاردهم إلى طرابلس. وحاول يحيى ومن معه إعادة الكرة على الموحدين ولكن والي تونس استطاع أن يصدهم في جبال نفوسه فانسحب بنو غانية إلى غدامس ثم إلى ودان حيث حاصرهم الموحدون هناك.

وتمكن يحيى من فك الحصار وتوجه إلى بلاد الزاب حيث وصل إلى بسكرة، وبدأ يشن الغارات على الموحدين. ولكن الموحدين ضايقوه فانسحب إلى الصحراء الكبرى بمجموعاته حيث استقر هناك.

وكان يحيى بن إسحاق بن غانية يستخدم في حروبه الجنود المتطوعين. فإذا سئموا الخدمة معه تركهم ليبحث عن آخرين جدد. وفي عام 633 توفي يحيى بن إسحاق بعد أن بقي أميراً على دولة بني غانية خمسين سنة وذلك في عهد سلطان الموحدين عبد الواحد بن المأمون الملقب بالرشيد.

وبوفاة يحيى بن إسحاق انتهت دولة المرابطين في المغرب. وعاد الملثمون إلى صحرائهم، مجموعات قبلية تتنقل في الصحراء الكبرى ضمن مشيخات محلية وسلطنات لتجمعاتهم الكبيرة.

سلاطينهم ومشائخهم المشهورون في العصر الحديث

سنذكر هنا نبذاً مختصرة عن سلاطينهم المشهورين في التاريخ الحديث، ومشايخهم الذين أدُّوا دوراً بارزاً في حياة قبائلهم سلباً أو إيجاباً.

سنذكر منهم الثوار الذين وقفوا حاجزاً بين المستعمر والصحراء الكبرى.

ونذكر منهم أولئك الذين كانوا مطية للمستعمر وساعدوه على احتلال البلاد وتشتيت العباد.

نذكر هؤلاء وهؤلاء حتى نضع القارىء أمام لوحة متكاملة لقبائل الصحراء الكبرى (التوارق) بإيجابياتهم وسلبياتهم، ببطولاتهم التي سخروها لخدمة الوطن والدين والأخرى التي سخروها لخدمة المستعمر.

وفي كلا الحالين يجب ألا ننسى أننا كعرب نتحدث عن جزء من أهلنا بما لهم وما عليهم.

وأرجعنا المجموعات إلى سلطناتهم حتى يسهل البحث.

1 ـ سلطنة (آزقر)

هذه السلطنة كما ذكرنا عاصمتها (غات) وأهم شخصياتها التاريخية:

1 ـ **السلطان أخنوخن**: هو سلطان (آزقر)، في القرن التاسع عشر وصل الإنكليز والفرنسيون إلى السلطنة عن طريقه وعقد معهم اتفاقيات. وقد ذكره بعض الرحالة الذين وصلوا إلى غات تحت حمايته. ومن المعلوم أن اسم (أخنوخن) هو اسم نبي الله إدريس كما جاء في الموسوعة الإسلامية.

2 ـ **الشيخ عثمان**: وهو بمثابة وزير خارجيته وقد مثله في مهمات متعددة خارج السلطنة على مستوى الصحراء الكبرى ويقال إنه سافر إلى باريس وبقي عدة سنوات في مهمة تهم السلطنة. وسعى لوصول فرنسا إلى غات وغدامس وعقد مع الفرنسيين معاهدة غدامس 1862.

3 ـ **انقدازن**: هو سلطان الأزقر، كان يعتمد على ابن أخته عثمان واعتبره وزيراً لخارجيته. اتصل به الفرنسيون فأجابهم أنه لا يتفاوض إلا مع نابليون بونابرت. وأرسل لهذه الغاية عثمان لفرنسا لمفاوضة بونابرت.

بعد وفاته اختلف ورثته فيمن يحكم السلطنة وكان الفرنسيون قد أحكموا قبضتهم على الجزائر، وطردوا السلطان آمود من جانت واستولوا عليها 1908.

4 ـ السلطان أحمد آمود: كان يقيم في جانت عندما استولى عليها الفرنسيون عام 1908 وأنزلوا العلم التركي من على ساريتها فلجأ إلى غات.

وفي عام 1916 هاجم جانت مع قوة من المجاهدين واستولوا عليها وأسروا 440 جندياً سنغالياً مجندين مع فرنسا حيث أرسلوهم إلى حكومة مصراتة.

كما استمر آمود يقود المعارك ضد الإيطاليين في ليبيا وكانت آخر هذه المعارك في سيناون ووادي الثلث 1923. وعند زحف الإيطاليين على فزان توفي في أوباري حوالي عام 1926 قبل وصول الطليان إليها.

5 ـ إبراهيم بكَّدا: هو قريب السلطان انقدازن وطمح للسلطة على السلطنة ولكن أبو بكر لقوى نافسه عليها فلجأ إلى الفرنسيين فاعتمدوه سلطاناً على الآزقر.

اشترك في بعض معارك الجهاد ضد الطليان، ثم أقام بجنوب الجزائر. وهو أحد مشايخ توارق الآزقر الذين وقعوا وثيقة الاستسلام للفرنسيين وسمحوا لهم بدخول الصحراء. وهناك رواية شفوية تقول إنه ختم الوثيقة بذراعه بدلاً من إصبعه للدلالة على أنهم استولوا عليها بالقوة. وإبراهيم بكَّدا من أم تباوية غنمها التوارق في إحدى غزواتهم على التبو.

6 ـ أبو بكر لقوى: يقولون إن والده من بلدة (قراقرة) من الوادي بفزان. ولكن أمه من أقارب السلطان أنقدازن. ونافس إبراهيم بكدا على السلطة واتصل بالإيطاليين مبكراً وساعدوه بالأسلحة عن طريق غدامس[1]. وهاجم المجاهدين المهاجرين إلى منطقة الوادي بفزان. واستاق إبلهم في غزو يقوده ابنه (قولليّ)، ولكن المجاهدين انتصروا عليه، وقبضوا على ابنه وحملوه أسيراً إلى غات حيث استرجعوا ممتلكاتهم من قبل والده الذي فرَّ من غات راكباً على حمار. ولما وصل الإيطاليون إلى غات عيّنوا أبا بكر سلطاناً (حاكماً) على منطقة آزقر وقلّدوه البرنس الأسود وهو شعار مجنديهم. ودفعوا له دية ابنه الذي قتله الإيطاليون خطأً في الحمادة الحمراء. فقام أبو بكر لقوى وأهدى (ناقة) ابنه الشهيد لقراسياني (وهي من نوع المهاري). وقد استغل أبو بكر نفوذه واستولى على الكثير من أراضي أهالي غات غصباً.

وبعد وفاة أبي بكر خلفه ابنه الحسيني الذي بقي حاكماً لغات إلى عهد الاستقلال المزيف في ليبيا حيث بقي متصرفاً على غات.

ولقد زرت الحسيني في بيته (بالبركت) عام 1982 ووجدته قد تجاوز التسعين من عمره.

وسمعت أنه قد توفي أخيراً في بداية عام 1987.

وقد كان أبو بكر لقوى على خلاف مع إبراهيم بكدا إذ كان لقوى يحتقر إبراهيم ويعيره بأمه (الخادم) فقبض إبراهيم على أبي بكر وسجنه

---

(1) انظر كتاب قرسياني نحو فزان.

في جانت لمدة سنة وكشف رأسه في السوق حيث جرده من عمامته (وهذا عار كبير عند التوارق).

7 ـ الفقي انقدازن: هو ابن سلطان آزقر (انقدازن) ونظراً لصغر سنه لم يورث السلطنة. ولما كان الفقي من أم من قبيلة (منغساتن) والتوارق يتبعون أمهاتهم لهذا عاش مع قبيلة أخواله وجاهد معهم ضد الطليان وقاتل ضد قبيلة أوراغن (قبيلة أعمامه) وجرح في إحدى هذه المعارك وهو الذي أنقذ (لقوى) من القتل إذ تعرف عليه وحفظه من القتل.

2 ـ سلطنة الهقار

عاصمة هذه السلطنة مدينة (تمنغست) بجنوب الجزائر. وأهم شخصياتها:

1 ـ أهيت آغل: سلطان الهقار في النصف الأول من القرن التاسع عشر خاض حروباً طويلة ضد سلطنة آزقر ليضم أراضيها إلى سلطنته.

2 ـ سيدي اق كرجي: اشترك في النزاع على السلطة بعد وفاة السلطان (لاوي) الذي لم يدم طويلاً في السلطنة. شارك في المقاومة لرفض الاستعمار الفرنسي وقتل بعض المستكشفين الذين توغلوا في بلاده.

3 ـ موسى اق اما سطان: تولى سلطنة الهقار عند احتلال الفرنسيين لها، وتحالف معهم وسخروه للحرب ضد الثورة في الصحراء الكبرى فقام بدور فعّال في إخمادها ومطاردة كاوصن وتاقامة.

ساعد على إخماد الثورة في الصحراء الكبرى كما ساعد على تغلغل الفرنسيين في منطقة الصحراء وخدمهم بكل ما يملك من قوة. خاض قبل دخول الفرنسيين عدة معارك ضد سلطنة (تكريكريت) وكان ذلك قبل توليه السلطنة.

4 ـ باي أقّ اخموك: تولى السلطنة بعد وفاة السلطان موسى، وسار على النهج الذي رسمه موسى في التعاون مع الفرنسيين وخدمتهم. وقد توفي أخيراً وهو آخر سلطان تقليدي لسلطنة الهقار.

3 ـ سلطنة (والليمدن كل أطرام)

تعتبر هذه السلطنة من أهم السلطنات التارقية وأكبرها وأقواها. وقد لعبت دوراً في تاريخ مقاومة الاستعمار الفرنسي. وأهم شخصياتها:

1 ـ كاردينّا: هو جد القبيلة الحاكمة ومؤسس السلطنة.

2 ـ ماديدو: وهو سلطان (والليمدن كل اطرام) أيام الاحتلال الفرنسي.

3 ـ فهرون بن الأنصار: هو أحد شخصيات هذه القبيلة، قام بثورة ضد الفرنسيين وقد حاولوا إغراءه فلم يفلحوا في ذلك. واشتبك معهم في عدة معارك وقُتل في إحداها عام 1916.

4 ـ شبُّون: قاوم الاحتلال الفرنسي في بداية وصول الفرنسيين للمنطقة 1900 م.

5 ـ الطاهر إق إيلّلى: عاصر وصول الفرنسيين للمنطقة وساهم في العمل السياسي بمنطقة الصحراء في أوائل هذا القرن.

6 ـ **محمد أحمد بن الجنيد**: من قبيلة (كل السوق) ساهم في مقاومة الاحتلال الفرنسي للمنطقة، وشارك في ثورة كاوصن.

7 ـ **الطاهر الأنصاري**: من قبيلة (كل انصار) عاصر الاحتلال الفرنسي للمنطقة وشارك في المراحل الأولى من الإدارة الفرنسية.

8 ـ محمد علي الأنصاري: من قبيلة الأنصار. عاصر الاستعمار الفرنسي واحتج كثيراً على الممارسات الخاطئة التي يرتكبها الفرنسيون ضد أبناء شعبه. كما وقف معارضاً لحكومة مالي (بعد الاستقلال) وكان من العاملين على إبراز الصحراء المستقلة. هاجر من مالي إلى ليبيا 1958 ومكث بها عدة سنوات وأحضر معه مجموعة من الأطفال تلقوا تعليمهم بليبيا حيث تخرجوا من مدارسها ثم توجه إلى الحج ومنه إلى المغرب حيث قام ملك المغرب (الحسن الثاني) بتسليمه إلى حكومة مالي (موديبوكيتا) 1963 فسجنه هذا خمس عشرة سنة ثم أطلق سراحه من قبل الانقلاب الجديد في مالي فرجع للمغرب حيث يقيم حتى الآن.

9 ـ **محمد محمود الأرواني**: شارك في سياسة المنطقة مع الفرنسيين ونشط في إبراز الشخصية الصحراوية، وحاول الحصول على تأييد السلاطين لفكرة إنشاء إدارة تحت الحماية الفرنسية في المناطق الصحراوية. وسجنته حكومة مالي والتقيت أخيراً بابنه، وله عدة تآليف في تاريخ الصحراء وهو من قبيلة (البرابيش) العربية.

10 ـ أحمد البكاي: من قبيلة (كنتة) العربية. عاصر وصول المستكشف (هنري بارت) إلى بلاده فكتب له رسالة إلى كافة الزعماء في المنطقة للسماح له بالمرور بصفته صديقاً له، وضيفاً في بلاده.

وأحمد البكاي هو الذي التف حوله سكان الصحراء لمقاومة الحاج عمر الذي بدأ يبطش بهم ويرغمهم على اتباع الطريقة التيجانية. وفعلاً قاوموه وهزموه وقتلوه.

11 ـ باي بن سيدي عمر: من قبيلة (كنتة) العربية. عالم وفقيه، تعلم على يديه الكثيرون في بلاد التوارق. وكان شيخاً للطريقة القادرية، وكان مسموع الكلمة في جميع بلاد التوارق، وذا توجهات سديدة.

12 ـ الميمون بن حمادي: من قبيلة (كنتة). ساهم في إدارة المنطقة في قبيلته أيام الاحتلال الفرنسي الأولى.

13 ـ زيد بن الطاهر: من قبيلة إفوغاس. ولد حوالي سنة 1925 في كيدال شمال مالي. وهو الابن الأكبر للطاهر (امنوكال) قبائل التوارق في إقليم إدرار إيفوغاس، درس الفقه والقرآن الكريم. وفي عام 1957 كان من المناهضين للوجود الفرنسي مع مجموعة محمد محمود التنبكتوي، ومحمد علي الأنصاري. توفي والده عام 1960 أيام أحداث الاستقلال المالي والمجموعة الفرنسية في غرب أفريقيا فتولى زيد مكان والده وأصبح (امنوكال) زعيم قبائل توارق المنطقة.

ولما دخلت قوات موديبوكيتا الرئيس المالي للشمال وبدأت تضطهد المواطنين قاد زيد الثورة المسلحة ضد حكومة مالي عام 1963.

قبضت عليه السلطات الجزائرية وسلمته لحكومة مالي حيث حكمت عليه بالإعدام ولكنه لم ينفذ وبقي في السجن خمس عشرة سنة، إلى أن أفرج عنه عام 1978 من قبل حكومة موسى تراوري. ولما أطلق سراحه قوبل باستقبال شعبي كبير في منطقة كيدال.

ويعيش زيد بن الطاهر الآن في منطقة الصحراء الشمالية لمالي في مخيمه المراقب من قبل السلطات المالية.

14 ـ اللادي آلّه بشير: ولد سنة 1942 في قرية أبو غصّة شمال مالي. وجد والده آلّه بشير ثائر على الحكم الفرنسي في المنطقة وشاهد المعركة التي قُتل فيها والده وقطع المستعمرون رأسه عام 1954 فنشأ ثائراً ناقماً على المستعمر الفرنسي وعلى الظلم بجميع صنوفه.

في سنة 1963 قاد عمليات الثورة في الشمال ضد حكومة مالي العنصرية. وفي عام 1965 قبض عليه الجيش المالي في معركة خاضها بنفسه وحيداً إلى أن نفدت ذخيرته فعُذِّب ثم أُودع السجن. وفي عام 1975 هرب من السجن عن طريق بوركينا فاسو إلى شمال مالي ثم إلى جنوب الجزائر. زار الجماهيرية عام 1980 و1981 حيث التقيت به وحدّثني حديث جهاده. سجنته السلطات الجزائرية عدّة مرات بحجة أنه يدبر في ثورة ضد مالي. وهو الآن يقيم إقامة جبرية في جنوب الجزائر بأسرته.

واللادي آلّه بشير هو أحد أصدقائي في الصحراء.

15 ـ يوسف الشيخ: من قبيلة أدنان (تحريف لعدنان) ومن مواليد 1940 بمنطقة كيدال. ثار مع زيد بن الطاهر ضد الحكومة العنصرية في مالي، وخاض عدة معارك وجرح في إحداها. زار الجماهيرية عام 1980 والتقيت به وحدّثني حديث المعركة.

يقيم الآن بالجنوب الجزائري مع أسرته، وهو أحد أصدقائي في منطقة الصحراء الكبرى.

4 ـ سلطنة (تكريكريت)

من أهم الشخصيات التاريخية في هذه السلطنة:

1 ـ حدا حدا: قام بحركة إصلاحية في القرن السابع عشر الميلادي وشن حروباً ضد السلطنات التارقية على أساس أنها لا تتبع طريقة الدين الإسلامي الحنيف والأحكام الشرعية. حاول القضاء على الفوارق الاجتماعية، والطبقية في بلاد التوارق. خاض حروباً في هذا الخصوص وخاصة ضد سلطنة (آهير) آيير.

2 ـ الحسن آشا: جد قبيلة الإمام في (كل اغلال)، عاصر ازدهار السلطنة بعد (حدا حدا) وحركته الإصلاحية، كما ساهم في إدارة سياسة البلاد في ذلك العهد.

3 ـ ختوتو: هو سلطان (تكريكريت) في أواخر القرن الثامن عشر حاول الانحراف عن مبادىء (حدا حدا) فقام المسلمون بعزله ثم التجأ إلى (اطرام) لطلب الدعم واسترجاع منصبه.

4 ـ أحمد الجيلاني: تزعم ثورة (اينسلمن) ضد ختوتو وحارب كل المناوئين لتلك الثورة في السلطنات المجاورة وتوفي في سكوتو 1816.

5 ـ يوسف بن أسامة: أو إيسوف بن سامتو. الإمام في ثورة المسلمين (اينسلمن) تنازل عن الإمامة ليتولاها الجيلاني وخاض الحروب مع الجيلاني ضد السلطنات المجاورة. وفي معركة (شِمّاناصين) قتل ودفن في قبر واحد مع محمد بن الحسن ابن الشيخ الحسن آشّا الذي قتل في نفس المعركة.

وقد كانت المعركة مع سلطنة (تَمَزِقِدّا) وجميع (اينسلمن) في سلطنة (تكريكريت).

6 ـ **السّحُو بن محمد الطاهر**: هو حفيد الحسن آشّا. اشترك في حروب الجيلاني وقاد قبائل (اينسلمن) في سكوتو بعد وفاة الجيلاني. تولى إمامة المسلمين، يساعده البصيري بن أحمد (آيت آواري).

7 ـ **بو حنال بن كتمن**: من قبيلة (كل نان) اشترك في ثورة الجيلاني، وحضر تسوية الأزمة في سكوتو. تولى منصب السلطان ورجع مع الإمام (السّحُو) لوضع أسس جديدة لسلطنة (تكريكريت).

8 ـ **موسى بن بو ضال**: ساعد أباه في الحروب التي خاضها، وأثبت جدارة فتنازل له أبوه عن السلطنة لكبر سنّه. قاد حروباً موفقة ضد السلطنات المجاورة وخاصة سلطنة (آيير) التي قتل في إحدى معاركها حوالي عام 1855 م.

9 ـ **مخمد بن الكميتي**: تولى السلطنة بعد وفاة عمه موسى، وسيّر إدارة السلطنة مدة تزيد على الأربعين سنة، شهد محمد في أواخر عمره قدوم الفرنسيين وكان لا يرغب في لقائهم ولم يحاربهم. توفي عام 1905 م. بعد أن وقع مندوبه وثيقة تبعية سلطنة (تكريكريت) للسلطة الفرنسية.

10 ـ **عبد الكريم بن السّحُو**: هو الإمام للسلطنة في عهد السلطان مخمد الكميتي. عاصر وصول الفرنسيين إلى المنطقة، وحاول تسوية موضوع الخلاف الذي نشأ بعد وفاة السلطان مخمد الكميتي وذلك على السلطنة بين إسماغيل وأخزى، ولكنه لم يفلح.

11 ـ إسماغيل بن لاسو: رشح نفسه لتولي السلطنة بعد وفاة السلطان مخمد الكميتي ولكنه لقي معارضة شديدة. غير أن الفرنسيين أيّدوه ونصّبوه سلطاناً بالرغم من معارضيه. توفي إسماغيل عام 1911 م.

12 ـ أخزي: هو ابن أخت السلطان مخمد الكميتي. كان مساعداً لخاله في شؤون الحكم، ورشحه رجال القبائل لتولي السلطنة بعد وفاة خاله، فعارضه أبناء عم السلطان فثار أخزي، وقاد معارك ضد أبناء عم السلطان الذين كان على رأسهم إسماغيل. وقد ساعد الفرنسيون إسماغيل فهاجمهم أخزي، وبدأ يشن الغارات عليهم.

انضم لثورة كاوصن، ولكن الفرنسيين قبضوا عليه مع مجموعات من أنصاره وأفراد قبيلته، وأعدموه في مذبحة رهيبة لم ترحم الأطفال والنساء والشيوخ عام 1917 م.

13 ـ شفيع بن عبد الكريم: ساعد والده في مهام الإمامة وخلف والده عند دخول الفرنسيين للمنطقة، انضم لثورة كاوصن ولكنه رضي بالاستسلام وعاد للفرنسيين. حاول التدخل لدى الفرنسيين بالعفو عن السكان الذين استسلموا بعد فشل ثورة كاوصن.

14 ـ الخورير بن الرّقّبي: تولى السلطنة بعد وفاة عمه إسماغيل، وانضم لثورة كاوصن وانسحب معه إلى ليبيا حيث قاتل معه (خليفة الزاوي) وبعد مقتل كاوصن انسحب الخورير عائداً إلى الصحراء الكبرى مع السلطان (عبد الرحمٰن تاقامة). وفي الطريق نفد ما عندهم من الماء، وتشتتت المجموعة، وفقد الخورير ويرجح أنه مات عطشاً.

غير أن المهدي بن علوة وهو من مرزق، كان يقاتل مع خليفة الزاوي ضد كاوصن أخبرني عام 1972 أنهم تتبعوا مجموعة كاوصن المنسحبة إلى الصحراء ووجدوا اثنين من رجالها مغمى عليهما من العطش فأرجعوهما معهم ليدلاهم على (نوابض المدافع) التي عند كاوصن وبعد ذلك قتلوهما وأحدهما يدعى الخورير.

وربما يكون هو، وكان ذلك عام 1918.

15 ـ بازو بن الخورير: كان بازو قد لحق مع والده بكاوصن وهو صغير، ورجع به أخوه محمد بعد فشل ثورة كاوصن ومقتله وعودتهم إلى ليبيا. قلّده الفرنسيون سلطنة (تكريكريت) بعد سجنه واحتجازه لعدة سنوات وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي عام 1958.

5 ـ سلطنة آيير

هذه السلطنة متاخمة لحدود ليبيا الحالية، وكذلك لسلطنة (آزقر). وأهم رجالاتها:

1 ـ بَلْخُو: شيخ قبيلة (كيل أواي) قاد حروب آيير ضد (تكريكريت) في عهد السلطان (موسى بن بوضال) وكان ذا نفوذ قوي في المنطقة.

2 ـ الكابوس أق وانْ اكوضا: هو شيخ قبيلة (كيل افداي). تحالف مع تكريكريت وعارض سلطان (أقدز) كما كان ضد تدخل الهقار في سلطنة آيير. قام بمطاردة غارة من الهقار على مخيمه بقيادة سلطان الهقار موسى اق اما سطان، واستطاع الكابوس أن يلحق

بالمغيرين ويقتل أخا موسى المسمى بلُّو أق اما سطان. كما اشترك الكابوس في حرب ايظروان إلى جانب تكريكريت ضد الهقار.

3 ـ السلطان عبد الرحمٰن تاقامة: هو سلطان أقدز أثناء وصول الفرنسيين إليها. شارك في ثورة كاوصن، وانسحب معه إلى ليبيا ثم عاد إلى النيجر مواصلاً الجهاد حيث قبض عليه الفرنسيون في جبال تيبستي في أثناء معركة غير متكافئة وكان معه عشرة أشخاص من أصحابه ضد سرية من الفرنسيين. حمل مسجوناً لأقدز. وفي السجن قام النقيب (فيدالي) آمر الحامية الفرنسي بخنقه ليلاً ليتخلص منه. وكان ذلك في ليلة 29 ـ 30 أبريل 1920. وهكذا استشهد، رحمة الله عليه.

6 ـ سلطنة تمزقِدّا

نظراً لوقوع هذه السلطنة في منطقة الأراضي الخصبة، فإنها تعتبر من أقوى السلطنات التارقية، وأهم شخصياتها:

1 ـ إبراهيم: وهو الملقب بـ(أبرا). تولى السلطنة وقاد حروبها ضد ثورة الجيلاني الإصلاحية، وتحالف في ذلك مع جيرانه من (كتشنا، وكوبير، وكل اقرس). كان من المثقفين القلائل في المنطقة إذ درس في زوايا ومساجد جبال آيير التي لها علاقة بالطرق الصوفية في ليبيا.

2 ـ كاوصن: هو محمد كاوصن. ثار ضد الفرنسيين وانضم لليبيين في تشاد لمحاربة الفرنسيين وجرح في إحدى هذه المعارك ووصل إلى الزاوية السنوسية في (القفرة) حيث ساهم مع الليبيين في الجهاد ضد إيطاليا. وفي عام 1916 قام بحملته الشهيرة لتحرير شمال

النيجر واستمرت تلك الثورة حوالي أربع سنوات. ولما عاد إلى ليبيا للتزود بالتموين والسلاح والذخيرة تمّت محاربته في منطقة فزان من قبل خليفة الزاوي كما تمّ القبض عليه وإعدامه من قبل عناصر من المشاشية وأولاد بوسيف بقيادة أحمد العياط. وكان ذلك في عام 1919.

3 ـ موسى دمقر قوما: كان السلطان أثناء وصول الفرنسيين إلى زندر. رفض الاعتراف بفرنسا وقاومها واستشهد في معارك المقاومة في منطقة بحيرة تشاد إلى جانب المجاهدين الليبيين(1).

4 ـ اق الخير: هو شيخ قبيلة (كل فَرْوان)، عاصر فترة الإدارة الفرنسية بعد تمزيق سلطنة (تمزقدا) من قبل الاحتلال الفرنسي، شارك في النشاط السياسي في عهد الإدارة الفرنسية، وحاول الاحتفاظ بهيبة السلطنة بعد إلغائها.

7 ـ سلطنة كل اقرس

لما كانت هذه السلطنة تفصل بين التوارق والهوسا لهذا يبدو تأثير القبائل الأفريقية ظاهراً في شعبها وعلى كل المستويات. ومن أهم شخصيات هذه السلطنة:

1 ـ انشيلكينْ: وقد تولى السلطنة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقاد حروب السلطنة ضد (تكريكريت) و(اطرام) وتحالف مع (كوبير) و(تمزقدا).

---

(1) محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف/ مساهمة في دراسة تاريخ ومجتمع التوارق شعب الصحراء الكبرى. مخطوط مكتبة المؤلف/ ص 401.



الباب الحادي عشر
الثورات والاستقلالات الحديثة
حاضرهم السياسي
والاجتماعي

الثورات والاستقلالات الحديثة

بقي التوارق في صحرائهم يتابعون في صمت النشاط السياسي في أفريقيا الغربية ونشوء الأحزاب التي تطالب بالاستقلال (الحزب التقدمي السوداني) و(حزب التجمع الديمقراطي الأفريقي) وكأن القضية لا تعنيهم كثيراً. خاصة وأنهم موغلون في الصحراء بعيداً عن الفرنسيين وعن الزنوج.

كما كان التوارق أيضاً يتابعون بإعجاب الثورة الجزائرية التي اندلعت ضد الفرنسيين في الجزائر في الفاتح من نوفمبر 1954. وقاموا بمساعدتها وجمع التبرعات وتهريب السلاح لها، وإيواء قادة الجهاد الجزائري في أراضيهم وفي مخيماتهم.

ولقد تأخرت استجابة شعب الصحراء الجزائري لنداء الثورة إلى ما بعد عام 1958.

وفي عام 1958 قامت فرنسا بتفجير قنبلتها الذرية في الحدود الجزائرية المالية. ومات الكثير من الأطفال والشيوخ من جراء الإشعاع الذري. وأطلق المواطنون في تلك الصحارى على ذلك العام عام (الكحّة) لأن الناس أصابهم السعال من جراء الإشعاع.

وقامت المظاهرات في كل أنحاء الوطن العربي ضد هذه

التجربة. وكنت شخصياً في ذلك الوقت طالباً بمعهد المعلمين بطرابلس فساهمت في قيادة مظاهرة طلابية تندد بهذا العمل. واستمرت تلك المظاهرة لأكثر من أسبوع تعرضت للقمع والضرب من قبل البوليس في عهد المملكة. ثم قفل المعهد لمدة خمسين يوماً ومنعنا من الدراسة.

ولم تكن فرنسا تكتفي بمثل هذا العمل. بل أعلن الجنرال ديغول بأنه يسعى لإعطاء الصحراء الكبرى استقلالها بعيداً عن البلدان المجاورة ويكون ذلك الاستقلال تحت الحماية الفرنسية. ويسمى باسم (جمهورية الصحراء) أو (جمهورية التوارق) ودعا لهذه الغاية وفداً من عرب وتوارق مالي والنيجر إلى باريس لحضور احتفالات 14 يوليو الفرنسية عام 1958.

وبعد أن جعلوهم يزورون المصانع الحربية ومصانع السيارات طلب الفرنسيون من التوارق والعرب (الوفد الصحراوي) أن يعلنوا عن رغبتهم في الاستقلال المنفرد تحت الحماية الفرنسية.. وأن فرنسا تستطيع أن توفر لهم كل ما يحتاجون إليه، وما عليهم إلا أن يعلنوا فقط.

وأجاب بعضهم أن فرنسا هي الأم ونحن أولادها وما تراه مناسباً نؤيّده نحن، إلا أن بعض العقلاء منهم رفض ذلك العرض واعتبر هذا طعنة في ظهر الثورة الجزائرية لأن فرنسا في نيتها اقتطاع الجزء الصحراوي من الجزائر وإلحاقه بهذه الجمهورية المزعومة. كذلك يعتبر خذلاناً للجهود الأفريقية المسلمة والراغبة في الاستقلال. ولهذا عاد الرؤساء إلى مناطقهم قبل انتهاء مدة الزيارة المقررة.

غير أن بعض السذج قاموا بتلبية رغبة فرنسا. ومن أولئك عقيد في الجيش الجزائري في منطقة (تمنغست) يسمى شعباني ـ أعدمه الجزائريون فيما بعد ـ ونقيب شرطة ليبي فرّ من فزان والتحق بالقوات الفرنسية في تمنغست وكان من التوارق. قبضت عليه السلطات الليبية عام 1960 وسجن.

غير أن الليبيين قاموا بدور رائع لإشعال الثورة في صحراء الجزائر، وإسماع الصحراويين صوت الرصاص. فلقد قاموا بحمل سرية جزائرية (من جيش التحرير الجزائري) بقيادة شخص يدعى الحاج علال تعززها كتيبة من الجيش الليبي إلى منطقة جبال غات بحيث تتسلل هذه السرية وتقوم بعمليات ضد الجيش الفرنسي لإيقاظ منطقة الصحراء. كما قام الليبيون بغرس ألغام في طرق الدوريات الفرنسية.

وشعر الفرنسيون بالخطر وهددوا ليبيا وأنذروها ولكن العمليات استمرت. فقامت فرنسا بمهاجمة قرية (إيسيّن) قرب غات بالطائرات. واستطاع الليبيون إسقاط طائرة وسقط من الليبيين شهيد وبعض الجرحى. وكانت الكتيبة الليبية تحت إمرة ملازم أول يدعى (يوسف القزلة) يساعده الملازم سليمان العبار[1]. وما أن سمع الصحراويون صوت الرصاص حتى سارعوا بالانضمام للثورة الجزائرية. وقد استقبل توارق مالي والنيجر وعربهما مندوبي (جبهة التحرير الوطني الجزائرية) وساعدوهم بالأموال والرجال. وأخفوهم عن عيون السلطة.

ولما تأكد للجنرال ديغول تجاوز الثورة الجزائرية خط التردد أعلن

---

(1) رواية المقدم المبروك مسيك الذي شهد الواقعة وهو ضابط أمن حدود في ذلك الوقت.

قراره الشهير بالاستفتاء في منطقة النفوذ الفرنسي بنعم أو لا. وذلك بعد زيارته لمناطق غرب أفريقيا. ورأى أن شعوب العالم لم تعد تتقبل الاستعمار العسكري المباشر ولكن عليه التفكير في نوع آخر من الاستعمار وطريقة أخرى غير هذه.

وأعدت البطاقات لهذا الاستفتاء. وصوّت العرب والتوارق لصالح الاستقلال على أن يتفاهموا مع إخوانهم الأفارقة بعد الاستقلال على الطريقة التي سيحكمون بها. والمهم في هذه الفترة هو خروج المستعمر الكافر.

ولكن ـ وتقدِّرون وتضحك الأقدار ـ فالمدة التي بقيتها فرنسا في المنطقة، وهروب العرب والتوارق من وجهها ومقاطعتهم لمدارسها وخططها التثقيفية جعلت الأفارقة السود يتبوأون المراكز المهمة في السلطة الجديدة نظراً لتفوقهم الثقافي، ونظراً أيضاً لثقة الفرنسيين فيهم.

وبالتالي عندما انسحبت فرنسا تركت الإدارة ومسؤولياتها جميعاً في يد الزنوج. وبقي التوارق والعرب بعيداً في صحرائهم، يضطهدون من جديد على أيدي حكامهم الجدد الذين يعتبرونهم دخلاء على المنطقة وأنهم لا فرق بينهم وبين المستعمرين البيض نظراً لبداية تغلغل القومية الزنجية التي بدأ مثقفوها الزنوج المتعلمون في فرنسا يدعون إليها وعلى رأسهم (سينغور) الرئيس السنغالي الذي قال في إحدى خطبه (أنا موظف فرنسي في رئاسة الجمهورية السنغالية). وهكذا وجد التوارق والعرب أنفسهم يخرجون من استعمار إلى استعمار، ومن اضطهاد إلى اضطهاد لا فرق بين الفرنسي الأبيض المسيحي، والأفريقي الأسود

المسلم. كلاهما يشرد هذا الشعب وكلاهما يمقته، وكلاهما ينظر إليه نظرة معاداة. ولهذا وجب على العرب والتوارق اتخاذ طريق آخر في تعاملهم مع الحكومات الزنجية الجديدة.

ثورة كيدال (1963)

تولى (موديبوكيتا) حكم مالي بزنوجها وعربها وتوارقها، وأظهر وجهاً تقدمياً جعل التقدميين العرب ينظرون إليه نظرة خاصة أمثال المرحوم جمال عبد الناصر، بل ووقفوا يدعمونه ويساعدونه كما كان أيضاً الرئيس أحمد بن بللا يعتبره صديقاً تقدمياً، لأنه كان من المطالبين بالاستقلال عن فرنسا.

وحاول موديبوكيتا أن ينشىء اتحاداً بين مالي والسنغال عرف باسم (اتحاد مالي) معيداً بذلك مملكة مالي التي كانت تدير المنطقة في زمن من الأزمان. غير أن حليفه في هذا الاتحاد سنغور فك الاتحاد واعتقل موديبوكيتا الذي كان متواجداً في السنغال للنقاش في إرساء دعائم الاتحاد. وأرسله مخفوراً في القطار المنطلق من داكار إلى باماكو.

وبدأ الاقتصاد المالي في التدهور خاصة وأن موديبوكيتا حاول أن يطبق الاشتراكية الصينية في بلده.

وبما أنه ليس هناك شيء تطبق عليه الاشتراكية في مالي، بدأ يضيق الخناق على الناس بالضرائب. وأرسل جنوده للشمال حيث يقيم العرب والتوارق في صحرائهم، وبدأوا يحصون إبلهم وأغنامهم ناشرين دعاية تقول: إن هناك دواء صينياً على هيئة حقن تحقن بها المواشي فلا تمرض أبداً.

وبدأ البدو على طيبتهم يصدقون ذلك ويحضرون إبلهم للتجمعات التي عينتها وحددتها لهم الحكومة ولكن جنود الحكومة كانوا يختمون الإبل بختم الدولة على اعتبار أنها أصبحت ملكاً لها وأُممت من المواطنين.

وكان الجنود أيضاً في تجوالهم ينهبون الخيام ويمدون أيديهم لأموال الناس وحتى لأعراضهم. وشعر بدو الصحراء (توارق وعرب) بنوايا الحكومة، وأنهم خرجوا من استعمار أبيض ليحل محله استعمار أسود.

وهنا اجتمع مجموعة من قيادات المنطقة وعلى رأسهم زيد بن طاهر شيخ قبيلة إفوغاس. واللادي بشير من شباب إفوغاس، ويوسف الشيخ من شباب أدنان ومحمد الأمين من عرب الصحراء، والياس أحد أساتذة التوارق في مجموعة من التوارق والعرب ووضحوا مشاكلهم مع حكومة مالي وعدّدوها، وقرروا أنه لا خلاص لهم من هذه الورطة إلا بالثورة.

وكانت للمجموعة بنادق قليلة بعضها غير صالح للعمل، وبعضها بنادق صيد. وانطلقت الثورة بعمليات صغيرة تعترض طريق دوريات جنود موديبوكيتا وتستولي على إبلهم وسلاحهم وتمنعهم من التوغل داخل مخيمات التوارق والعرب.

غير أن حكومة موديبوكيتا وجنودها أصبحوا كالثور الهائج، وتفجر في أنفسهم الحقد العرقي الدفين. فهاجموا المخيمات وبدأوا يقتلون الرجال كباراً وصغاراً. ويجلس (النقيب ديبي) المسؤول العسكري في الصحراء على رؤوس القتلى ويستجوب نساءهم.

واستباح الزنوج نساء التوارق والعرب، وأخذوهنّ قهراً إلى باماكو حيث تزوجوهنّ غصباً كسبايا. وبدأ الزنوج في تطبيق نظرية (الأرض المحروقة) حيث يستولون على حيوانات الصحراويين ومتاعهم، ويقتلون الرجال جميعاً دون استثناء مذنبين أو غير مذنبين، ويسبون النساء ويسمّمون الآبار، وارتكب (النقيب ديبي)[1] أسوأ ما يمكن أن يرتكبه إنسان ضد أخيه الإنسان.

اللادي بشير يروي أحداث الثورة

التقيت باللادي بشير عام 1981 وأخبرني أخبار الثورة. واللادي يسميه عرب الصحراء (بطل الجبل) لأنه وقف وحيداً يقاوم جنود مالي في الجبل يوماً كاملاً إلى أن نفذت منه الذخيرة. يقول اللادي:

«عندما بلغت سن العاشرة وجدت والدي يسكن وحيداً في الصحراء بخيمته لا يخالط أحداً ولا يساكن أحداً. ولما سألته عن سبب ذلك أجاب:

«لقد عاهدت الله أنني لا أسكن تحت حكم النصارى ولا أنظر إليهم».

غير أن الفرنسيين لم يتركوه في خلوته وهدوئه. فكانوا يتابعونه، ويتربصون به الدوائر، ويترصدون له، ويرسلون له المراسيل ليحضر إليهم ويسلم سلاحه.

---

(1) النقيب ديبي/ قبض عليه في الانقلاب الذي قام به موسى تراوري ضد موديبوكيتا ووضع في مقطع الملح في تاودني يقطع الملح للقوافل. وكان الناس يدفعون 5 فرنكات لحراسه ليمكنوهم من جلده جلدة واحدة وإذا رغبوا أكثر يدفعون أكثر، إلى أن مات.

ولكن الوالد كان يقابل ذلك بالرفض والتوغل أكثر في الصحراء. وقال لأحد رسلهم ويدعى (الخوان). (إنني لن أسلم بندقيتي للنصارى وأنا حي).

وركب الوالد جمله وسار في الصحراء. فتتبع جنود الفرنسيين آثاره حتى لحقوا به. وتبادلوا معه إطلاق النار. فقتل منهم جندياً (أحد المجندين) وقتل جملين من جمالهم أحدهما جمل المسؤول الفرنسي الذي خرق ثيابه الرصاص وفرّ هارباً تاركاً جنوده لمصيرهم.

وسار الوالد متوغلاً في الجبل يرافقه أخي الأكبر الذي حصل على بندقية بعد هذه الواقعة حيث وصلا إلى الحدود الجزائرية محتمين بأحد المخيمات التارقية هناك. وبقيت أنا وإخوتي الصغار وزوجة أبي وأمي مختبئين في الجبل.

واستغرق غياب أبي مدة طويلة من الزمن. وفي أحد الأيام سمعنا طلقة رصاص ظنناها من أبي يبحث عنا، فتوجهت إلى جهة الصوت، فلم أعثر على شيء فرجعت. وكانت الطلقة من جنود فرنسيين يبحثون عنا، فلما عدت وجدوا أثري فتتبعوه حتى وصلوا إلى الخيام، فهربنا أمامهم وتوزعنا في الجبل، فاستولوا على المواشي والخيام والنساء، وبقيت أنا مختبئاً في الجبل يوماً وليلة، وكدت أهلك من العطش والجوع. وفي اليوم التالي وجدت أحد أحياء التوارق فبقيت معهم وآووني.

وساق الفرنسيون النساء ووضعوهن في السجن ولما سمع أمير إفوغاس (الطاهر) ذهب للحاكم الفرنسي وطلب منه إطلاق سراح النساء تحت كفالته، فاستجاب له وأطلق سراحهن وسلمّهن إليه.

ولما عاد والدي وصل إلى خيام الذين آووني لمدة شهر. فأخذني وذهبت معه إلى الأمير الطاهر حيث استلمنا بقية أفراد الأسرة ورجعنا ليلاً إلى الصحراء. وأخذنا جمالنا في سفر أنا والوالد نجلب الغذاء للعائلة فالتقينا مع فرقة فرنسية وتبادل معهم الوالد إطلاق النار وقتلوا لنا جملين من جمالنا ونجونا منهم.

وفي الليل اقتفى الوالد آثار الجنود بإبلهم ليلحق بهم، ولكنه لم يلحق بهم فعاد إلي مع الجمال وسرنا للخيام. وفي أحد الأيام وردت البئر أسقي مواشينا مع زميل لي فوجدنا عقب سيجارة على البئر فعلمنا أن الفرنسيين مروا من هنا فتتبعنا أثرهم إلى الليل حيث وجدناهم في مخيم للتوارق فأحسوا بنا وطاردونا إلى الصباح ونجونا منهم، ولكن في الصباح لحقوا بنا وهاجموا المخيم فأسروا بعض العائلات والمواشي، وتفرقنا منهم هرباً في الجبال.

وكان عدد الفرنسيين أربعين جندياً يمتطون الجمال (المهاري). ولما عاد الوالد وسمع الخبر اقتفى أثرهم مع خمسة من زملائه ففاجأهم ليلاً وقتل لهم خمسة وعشرين جملاً من جمالهم. وغنم مع أصحابه خمسة جمال، وعادوا إلينا سالمين. وبقوا يترقبون مرور الفرنسيين في الصباح. ولما مروا تبعوا أثرهم ولحقوا بهم وتبادلوا معهم إطلاق الرصاص ولكن لم يصب أحد من الفريقين.

وفي أحد الأيام بعد هذه الواقعة ذهب ابن عمي ليصطاد الغزلان. فسمع جنود الفرنسيين إطلاق رصاصة فهاجموه وأوثقوه كتافاً وأرغموه أن يدلهم على موقعنا. وكنا في واد، أبي يجلس تحت شجرة ومعه أحد

أصدقائه، وزوجة أبي تحت شجرة أخرى بعيدة عن الجماعة بعض الشيء، وأنا أجلس تحت شجرة ثالثة ومعي أخي وراعي الغنم. وكانت أشجار الطلح متباعدة عن بعضها، وكان الوقت ظهراً.

ولما اقترب الجنود منا ترجلوا من على جمالهم وهاجمونا على الأقدام. وقبضوا على زوجة أبي وأمسكوا فمها حتى لا تصيح. ثم أطلقوا النار على أبي فكسروا يده وبادلهم إطلاق الرصاص وهو مكسور اليد، ولكنهم أطلقوا عليه النار مجتمعين فأصابوه في صدره وقتلوه كما أطلقوا النار على شقيقي فكسروا يده وصار يحاول سحب الأقسام بيده السليمة ثم بفمه، ولكنهم لم يمهلوه فأطلقوا عليه النار وقتلوه.

وفررت أنا حيث وصلت إلى بعض أصدقاء والدي الذين هرعوا معي إلى مكان الحادث فأخبرنا أحد الرجال أن الوالد وشقيقي قتلا. فذهبت هائماً على وجهي حيث وصلت إلى أحد أصدقاء أبي فاستبقاني عنده لعدة أشهر وألحقني بالكتاب عند فقيه يعلم الأطفال في مثل سني القرآن حيث بقيت عنده ثلاثة أعوام. وبعد هذه الفترة انتقلت إلى الجزائر طالباً التطوع في جيش التحرير الوطني، ولكن الجزائريين رفضوا طلبي لصغر سني فعدت إلى الصحراء.

هذه الأحداث جميعها أثرت في نفسي وتركتني أمقت الظلم والمستعمر وأصبحت متشوقاً للثورة والقتال.

ولما قرر زيد بن الطاهر وجماعته الثورة في اجتماع عقدوه لهذا الغرض لم أكن حاضراً الاجتماع، ولكنني كنت تواقاً لمثل هذه الثورة، وقررت الحصول على السلاح بأي ثمن.

وعلى بئر (تيمياوين) كان الجنود الماليون يجلسون ويجمعون الضرائب من الشعب. فجئنا إليهم أنا وأحد زملائي... ووجدناهما اثنين. بقينا معهما عدة أيام نتحين الفرصة لانتزاع سلاحهما والفرار به، وأخيراً جاءت الفرصة، فلقد جاء أحد التجار الجوالين للبئر، ونشر بضاعته، وتجمع حوله الناس يتفرجون ويشترون، كما جلس الجنديان أيضاً في جمهرة المحيطين بالتاجر وتركا سلاحهما عند متاعهما على البئر.

وهنا قفزت أنا وزميلي واستولينا على البنادق وكذلك على جمل من جمالهما، ولكن أحد الجنود رآنا فجرى نحونا ولكننا أطلقنا عليه النار فوقف يردد الشهادة، ولم نصبه.

ومضينا في طريقنا، ولكن ذلك الجندي ـ وكان من التوارق المجندين مع حكومة مالي ـ استمر يتابعنا ويوسط الناس في الأحياء التي نمر بها لنرجع لهما بنادقهما.

وتوسط أخو زميلي بيننا وطلب منا اللقاء به فنزل له زميلي من الجبل، فقبض الجنود عليه، أما أنا فرفضت اللقاء بأحد وصعدت الجبل فأطلقوا علي النار وبادلتهم الإطلاق، ولكني لم أُصب ولم أصب أحداً منهم.

وأخيراً توسط أحد أقاربي في أن أسلّم له بندقية الحكومة على أن يمنحني بندقية أخرى، وفعلاً فعل ذلك، وأخذ للمجند بندقيته، فقبض عليه الجنود ووضعوه في السجن إلى أن توفي رحمه الله، لأنه لم يحضرني إليهم.

وفي الأيام التي حصلت فيها على البندقية انطلقت مجموعة زيد واستولت على مجموعة من إبل الجيش، وتبادلوا معهم إطلاق النار وتمكن سيدي الأمين من تتبع آثار الجيش وقتل واحداً منهم ولحق بأصحابه.

وكنا جميعاً في هذه الثورة لا نقتل الجنود البيض من (العرب والتوارق) المتواجدين في جيش مالي لأننا نظنهم معنا، وكنا إذا أسرنا أحدهم نأخذ سلاحه ونطلق سراحه.

واجتمعنا سبعة ثوّار، سيدي الأمين، وسالم، وبشير، واحمادو، وسميتا، وإبراهيم، وأنا وقررنا الهجوم على قرية (بوغصّة) وهاجمناها، واحتمينا بالجبل. وصدّتنا عن القرية ثلاث سيارات تحمل أسلحة أوتوماتيكية، فانسحبنا من الجبل ولحقنا بزيد الذي وجدنا أن الجنود الماليين هاجموا خيامه، وأخذوا زوجته وابنه وسجنوهما بمدينة كيدال.

الحرب الجزائرية ـ المغربية 1963
وأثرها على ثورة كيدال

ما أن استقلت الجزائر حتى قام المغرب بالمطالبة بمنطقة ولاية الساورة (بشار، تندرف) باعتبارها جزءاً من ترابه، والحقيقة أن الفرنسيين لما استولوا على منطقة المغرب العربي بدأوا يوسعون الجزائر على حساب المناطق المجاورة لأنهم يتوقعون أن الجزائر لا يمكن أن تخرج من السيطرة الفرنسية ويعتبرونها ممتلكات فرنسية.

وكان الإخوة الجزائريون في أثناء الثورة الجزائرية يطمئنون المغرب، وكذلك ليبيا، ويطلبون منهم عدم تخطيط الحدود مع الفرنسيين. وعند استقلال الجزائر فإنها ستخطط الحدود مع إخوتها العرب حسب الخريطة الموجودة قبل الاستعمار الفرنسي.

لهذا أوقف المغاربة والليبيون أي محاولة من الفرنسيين لتخطيط الحدود معهم.

ولكن ما أن استقلت الجزائر حتى رفض الجزائريون أي تنازل عن الحدود الموروثة عن الاستعمار والتي أقرتها منظمة الوحدة الأفريقية، متنكرين لوعود زعماء الجهاد الذين قُتلوا في المعارك أو تمت تصفيتهم جسدياً بعد الثورة في بدايات الاستقلال.

لهذا أعلنت المغرب استرداد المنطقة بقوة السلاح ونشبت الحرب بين الجزائريين الذين وقفت معهم مصر (عبد الناصر) وبين المغاربة.

ووقف الرئيس (موديبوكيتا) رئيس مالي يعلن وساطته بين الأخوة المتحاربين. ودعا لاجتماع بين الملك الحسن الثاني والرئيس أحمد بن بللة في باماكو، وليثبت الملك الحسن امتنانه للرئيس المالي قبض على الأمير محمد علي الأنصاري المتواجد بالمغرب في تلك الأيام وسلّمه لموديبوكيتا.

وهنا يتحدث اللادي بشير:

«أرسلني زيد للجزائر لجس النبض في إمكانية دخوله الجزائر لشرح قضية شعبه. ولشراء ما يلزم الثوار في صحرائهم، ولكن أحد الجزائريين قال لي: قل لزيد لا يأتي للجزائر، لأن الجزائريين والماليين متفقون على تأمين حدودهما، والتعاون فيما بينهما على ذلك.

ورجعت لزيد وأبلغته ما سمعت، فأجابني «إذا رفضتني الجزائر ستسمح لي بالذهاب لبلد عربي آخر» وذهب للجزائر. وكان الحسن الثاني قد سلَّم محمد علي الأنصاري وليثبت الرئيس أحمد بن بللة أنه أفضل من الحسن الثاني لموديبوكيتا قبض على زيد بن طاهر والياس واثنين أو ثلاثة آخرين من زعماء الثورة وشحنهم في طائرة خاصة وسلَّمهم لموديبوكيتا الذي أودعهم السجن في باماكو، كما سمحت الجزائر للقوات المالية بالدخول إلى أراضي الحدود الجزائرية لمطاردة الثوار.

ويقول اللادي:

«بعد القبض على زيد وجماعته تحيّرنا وبقينا لا نعرف ماذا نصنع، غير أن الزنوج هاجموا المنطقة الشمالية وبدأوا في ترحيل المخيمات التارقية والعربية للجنوب، فاجتمعنا ستين رجلاً نملك خمس بنادق وقررنا مهاجمة المخيم الذي يتواجد فيه الجنود الماليون. والتقينا بمجموعة من النساء يجلبن الماء من البئر، فطلبنا منهن أن يخبرن الجنود ليخرجوا لملاقاتنا وفعلاً تمَّ ذلك فأحرقنا لهم سيارة وقتلنا جندياً منهم وفرَّ الباقون، ثم نصبنا كميناً لمجموعة من السيارات استولى جنودها على إبل لأحد المخيمات واستطعنا تخليص الإبل، وغنمنا مدفعاً رشاشاً وجهاز لاسلكي كنا لا نعرف استعماله فكسرناه.

ومن ذلك المكان توجهنا إلى الحدود الجزائرية حيث بقينا مدة من الزمن نجمع صفوفنا ونسترد أنفاسنا.

ولما عدنا وجدنا الشيخ (انتا الله بن الطاهر) يبحث عنا للتفاوض مع حكومة مالي ويطلب منا التسليم. والشيخ (انتا الله) هو أخو زيد ومعتمد من قبل السلطات المالية لتولي شؤون الصحراء. والتقينا معه، ولكننا رفضنا طلبه، وزادت حكومة مالي بإرسال وفد للتفاوض معنا تحت رعاية (انتا الله) ولكن رفاقي رفضوا شروط التسليم.

واستمر الجنود الماليون في البطش بالمخيمات وأسر الرجال وسبي النساء والأطفال. وكلما هاجموا مخيماً نصبنا كميناً لهم واسترجعنا ما نهبوه منه، غير أننا لم نستطع أخذ الثأر للقتلى من النساء والأطفال والشيوخ والعزل الذين كانوا بالمئات، وذلك لأن السلاح ينقصنا.

وفي النهاية قررنا الهجوم على أحد المعسكرات للحصول على السلاح. واجتمعنا حوالي مائة شخص، وكان معي يوسف الشيخ وقررنا الهجوم على قرية (تسليت) وهجمنا ليلاً على مخزن الأسلحة، وحصلنا على عشرين بندقية وجُرح يوسف جرحاً طفيفاً.

وبعدها أقمنا كميناً لدورية مالية قرب قرية (أجلهوك) فأعطبنا سيارة وقتلنا سائقها وكسرنا رجل امرأة وكان الوقت ليلاً حيث ظنناها رجلاً. وغنمنا بندقيتين وافترقت مع مجموعتي باتجاه الحدود الجزائرية أنا وزميل لي جزائري. وصادف أن أطلقت النار على غزال لنتغذى به، فسمع العدوّ رصاصنا وهاجمتنا مجموعة من السيارات، فتقدم إليهم زميلي الجزائري ظنًّا منه أنهم لن يقبضوا عليه لأنه جزائري، وكان على جمله قربة الماء التي نحملها معاً، فقبضوا عليه وصبّوا عليه البنزين وأحرقوه وحاصروني في الجبل وصرت أبادلهم إطلاق النار إلى المساء حيث نفذت ذخيرتي فقبضوا عليّ وأوثقوني بالقيود ووضعوا في عيني التبغ وبدأوا يجلدونني بالسياط، ويضغطون بحبل القيد على يدي إلى أن تورمت يداي ورجلاي وفقدت الإحساس فيهما وتهرأ ظهري من الجلد، وبعد يومين أو ثلاثة بدأت الديدان تتكاثر في جروحي.

«ولقد رأيت شخصياً ظهر اللادي ويديه وكأنها محروقة بالنار من أثر التعذيب».

وهكذا قبض على كل قيادات الثورة وبقيت مجموعاتها الصغيرة تهيم في الصحراء بدون قيادة. وبعد سقوط موديبوكيتا وقدوم موسى تراوري للسلطة خفّ التعذيب على المسجونين ولكنه أبقاهم في السجن بدون محاكمة منذ عام 1963.

وفي يناير 1974 زرت شخصياً باماكو للاتصال بهؤلاء السجناء في محاولة لإخراجهم، وقد أرسلت إليهم من يخبرهم بوجودي وطمأنتهم على أننا في ليبيا نسعى للإفراج عنهم، وفي نهاية عام 1974 فرَّ اللادي من السجن وجاءني في طرابلس عام 1980 ورجع ثانية إليَّ عام 1981 وروى لي قصص الثورة.

كما زارني أيضاً يوسف الشيخ الذي يقيم في الجزائر عام 1980 وروى لي حكايات الثورة. وأفرجت مالي عن بقية المجموعة بعد أن هدّها السجن والمرض وكبر السن، وذلك في أوائل الثمانينيات لكنني سمعت أخيراً أن الجزائر سجنت اللادي مخافة أن يقوم بالثورة ضد مالي!!

هذا بالنسبة لمالي. أما توارق النيجر فكانوا أحسن حالاً أيام الرئيس ديوري هاماني. ولكن ما أن أطاح به حسين كونشي حتى تبدل الوضع بالنسبة لهم، وبدأ الزنوج يضطهدونهم ويضغطون عليهم لمغادرة المنطقة إلى الشمال.

وقام هؤلاء بمحاولة انقلاب بقيادة النقيب (سيدي) وهو عربي وذلك عام 1976 ولكن كونشي استطاع أن يقبض على مدبري الانقلاب ويعدم سيدي ومن معه، والذين فرّوا من العرب والتوارق حكم عليهم بالإعدام غيابياً أمثال محمد موسى أحمد الذي وصل إلى ليبيا ولا يزال يقيم بها هرباً من بطش حكومة النيجر[1].

أما توارق الجزائر، وليبيا فقد اندمجوا في الشعب وأصبحوا

---

(1) رجع محمد موسى إلى النيجر بعد وفاة حسين كونشي.

مسؤولين سياسيين حسب قدراتهم وأصبح منهم الضباط والمدرسون والحرفيون. وتحوّلت بيوتهم التقليدية إلى فيلات أنيقة داخل المدن والقرى التي يتواجدون بها، والذي لا تعرفه من التوارق لا تظن أنه تارقي فلم يعد يميزه عن الآخرين شيء وأصبحت العمامة والقميص الفضفاض لباس المناسبات التقليدية.

واقع التوارق في الصحراء الكبرى

يعيش التوارق اليوم في صحرائهم عيشة ضنك، اجتمع عليهم فيها الجفاف، وظلم الحكومات واحتقارها لهم وفقدهم لموارد رزقهم، والتمييز العنصري من السود ضدهم.

ولقد شاهدت منطقة الصحراء الكبرى (مالي، موريتانيا، النيجر) منذ سنوات 1972 وحتى 1981 في رحلات متتابعة. وشاهدت المجاعة كيف تبطش بهذه القبائل البائسة. ولقد منعت حكومة مالي وصول الإمدادات والغوث لهؤلاء المساكين، كما منعت دخول الصحافيين لمنطقة مخيمات التوارق الجوعى. وقد كتبت إحدى الصحف الفرنسية عام 1973 أن أحد صحفييها وصل إلى هذه المخيمات وقال: «إنه ما بين خمسة وعشرين رجلاً وثلاثين يموتون يومياً في مخيمات التوارق من المرض والجوع».

وتكدست عائلاتهم في مخيمات على الحدود المالية الجزائرية في (تمنغست) وفي (تيمياوين) و(برج المختار) وغيرها. يزحفون كالأشباح في محاولة للوصول إلى العيش.

ولقد شاهدت الجزائريين يبعدونهم من الحدود، وشاهدتهم في

جنوب الجزائر يشحنون في سيارات كبيرة كالأغنام ويلقون في الصحراء حيث يلاقون مصيرهم بلا زاد وبلا ماء. أما مجموعاتهم في (تمنغست) فهي مجلبة للسواح يشاهدونهم بالعشرات (كأي حيوان غريب) وينشرون صورهم بأزيائهم التقليدية. وحدث نتيجة لهذه المأساة أن تمزقت الأسر والعائلات، وهرب الشباب القادرون على الفرار نحو البلدان المجاورة، وتهدمت البنية الاجتماعية، وانهارت الطبقات ونشط بعض تجار الرقيق لبيع صغار التوارق في نيجيريا وغيرها.

ودخلت الكنائس هي الأخرى في السباق، وبدأت تشتري أولاد التوارق بعنز أو عنزين للولد الواحد أو البنت تُعطى لولي الأمر لحلبها نظير أن يسلّم ابنه للكنيسة لتعليمه والعناية به!! وبعد عامين أو ثلاثة يأتي الوالد ليستلم ابنه فيرفض الولد مصاحبة والده ويصبح الصغير مسيحياً.

ولأول مرة في تاريخ المنطقة تشيد الكنيسة كنيسة لها في منطقة التوارق في (قاو) وكذلك في (تينبكتو). وتشتتت نساء التوارق، وفقدت نبلها وتقاليدها وأصبحت ـ مع الأسف ـ تبحث عن قوتها بكل شيء. ووصل بعضهن إلى فرنسا في مسيرة للبحث عن الرزق، وتفرقن في عواصم الدول الأفريقية المجاورة.

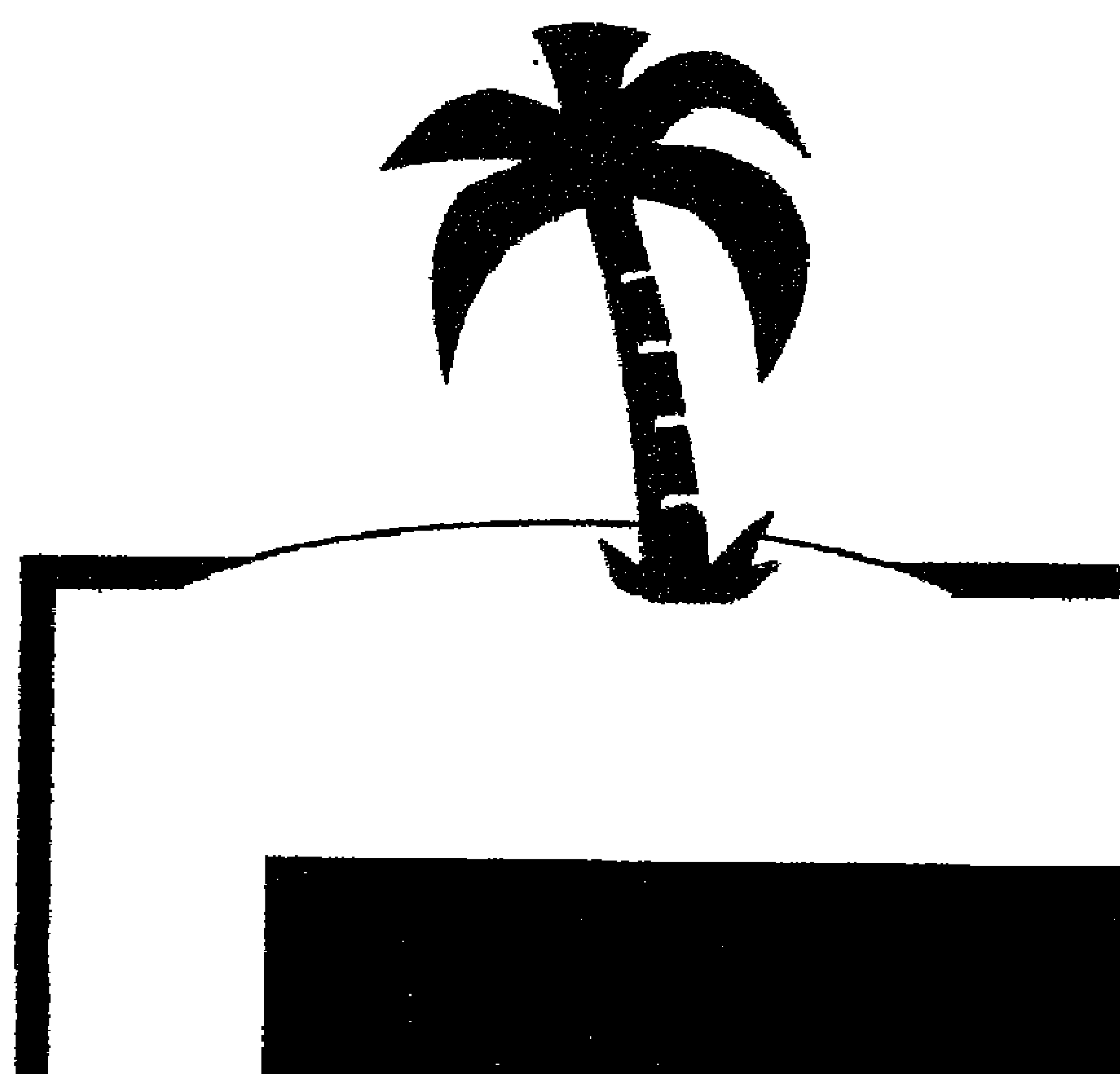
وهكذا تخلّى هؤلاء القوم عن كثير من مزاياهم الجيدة والممتازة، ونسي العرب والمسلمون جهادهم المستمر وحملهم راية الحضارة الإسلامية لعدة قرون من الزمن، في مجاهل أفريقيا، وحفظهم لكرامة العرب والمسلمين في الأندلس لأكثر من قرن من الزمن. ويقول حكماؤهم: إننا ندفع ضريبة انتصار المرابطين على الفرنجة.

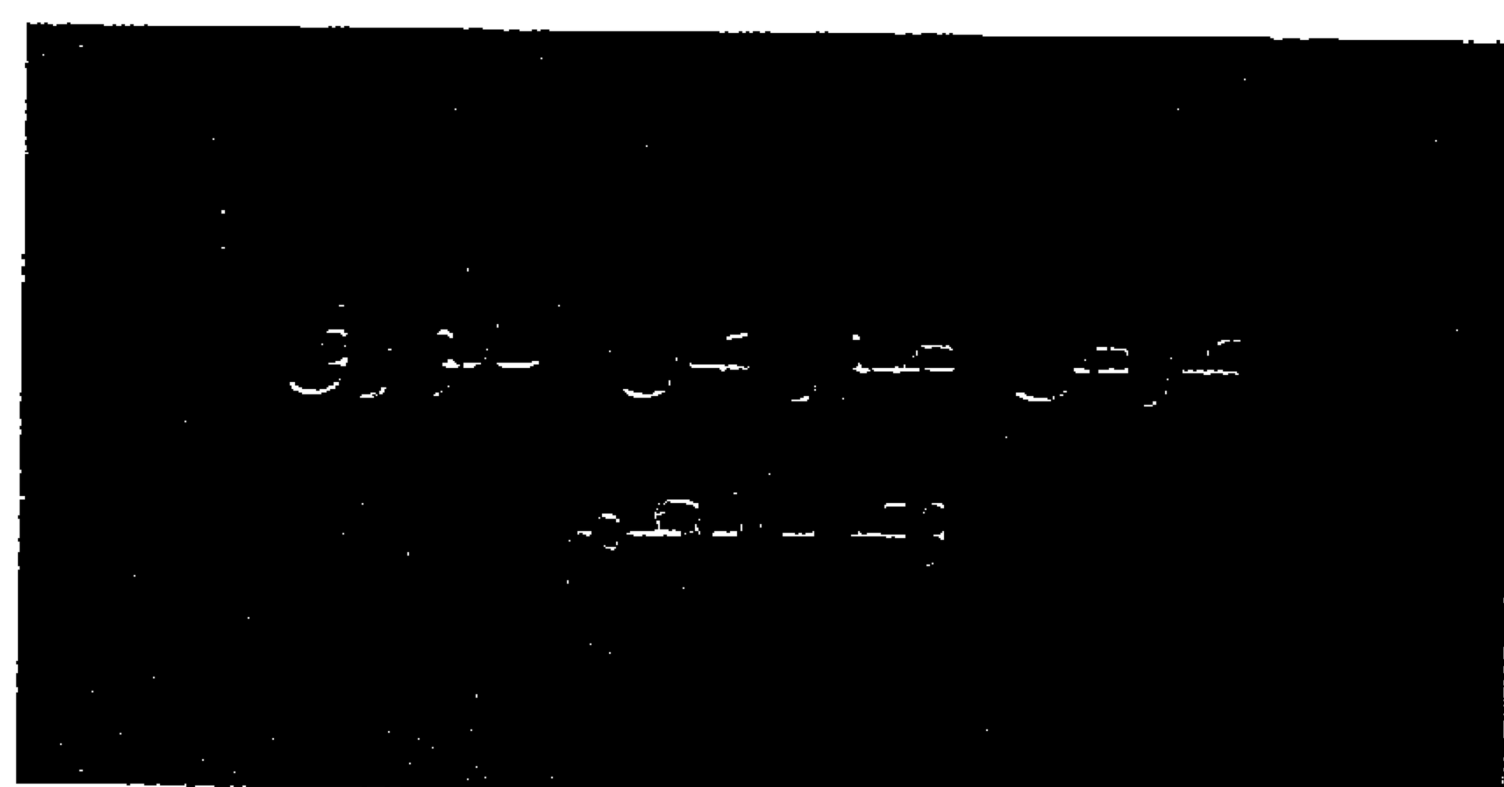
وأمام هذا الوضع السيىء الذي وصل إليه حال قبائل الصحراء الكبرى، قامت الثورة في ليبيا الجماهيرية ـ شعوراً منها بمسؤولياتها تجاه الضعفاء والمضطهدين، وإحساساً منها بوحدة الدين والعرق بيننا وبين هؤلاء الناس ـ قامت بتبنيهم وانتشالهم من مأساتهم المبكية حيث ألقى العقيد معمر القذافي قائد الثورة خطاباً بهذا الخصوص في بلدة أوباري بالجنوب الليبي في 16 أكتوبر 1980 شرح فيه الاضطهاد الذي يلاقيه التوارق، وأعلن أن الجماهيرية مفتوحة الأبواب للتوارق ليعودوا إلى وطنهم ليبيا ويعيشوا مع إخوتهم الليبيين.

ومنذ ذلك التاريخ اندفع آلاف التوارق إلى ليبيا للعيش بسلام وهدوء تبتلعهم المدن والمصانع ويعيشون بين إخوانهم الليبيين في محبة ووئام.

أما أولئك الذين دفعتهم الظروف القاسية للتوجه إلى أوروبا وخاصة فرنسا، فإنهم يعيشون عيشة الضياع وقد مسخت شخصيتهم وأصبحوا بقايا أناس لا يمتون لأهل الصحراء بصلة.

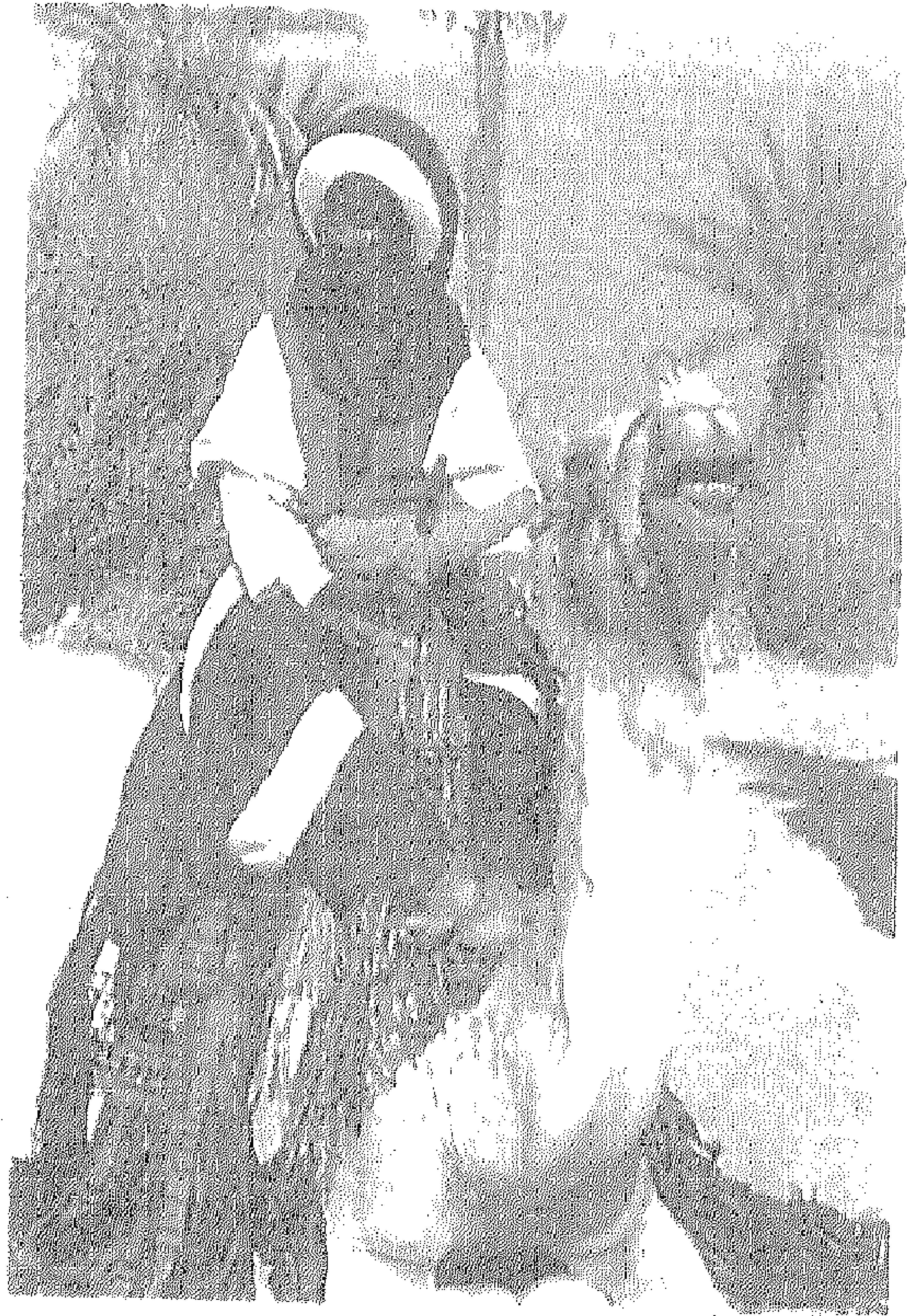
ولكن هل حلَّ الليبيون مشكلة قبائل الصحراء؟ في الواقع لا؛ فإن آلاف الأسر لا تزال تعيش في الصحراء مفضّلة الموت تحت خيامها على الانتقال من مرابع صباهم وآبار أجدادهم يتأملون بصمات أجدادهم على صخور تاسيلي والهقار وتيبستي وجبال أدغاغ، وآيير، يغذون في أولادهم الحقد المقدس على الاستعمار الفرنسي الذي أوصلهم لهذه الحالة.







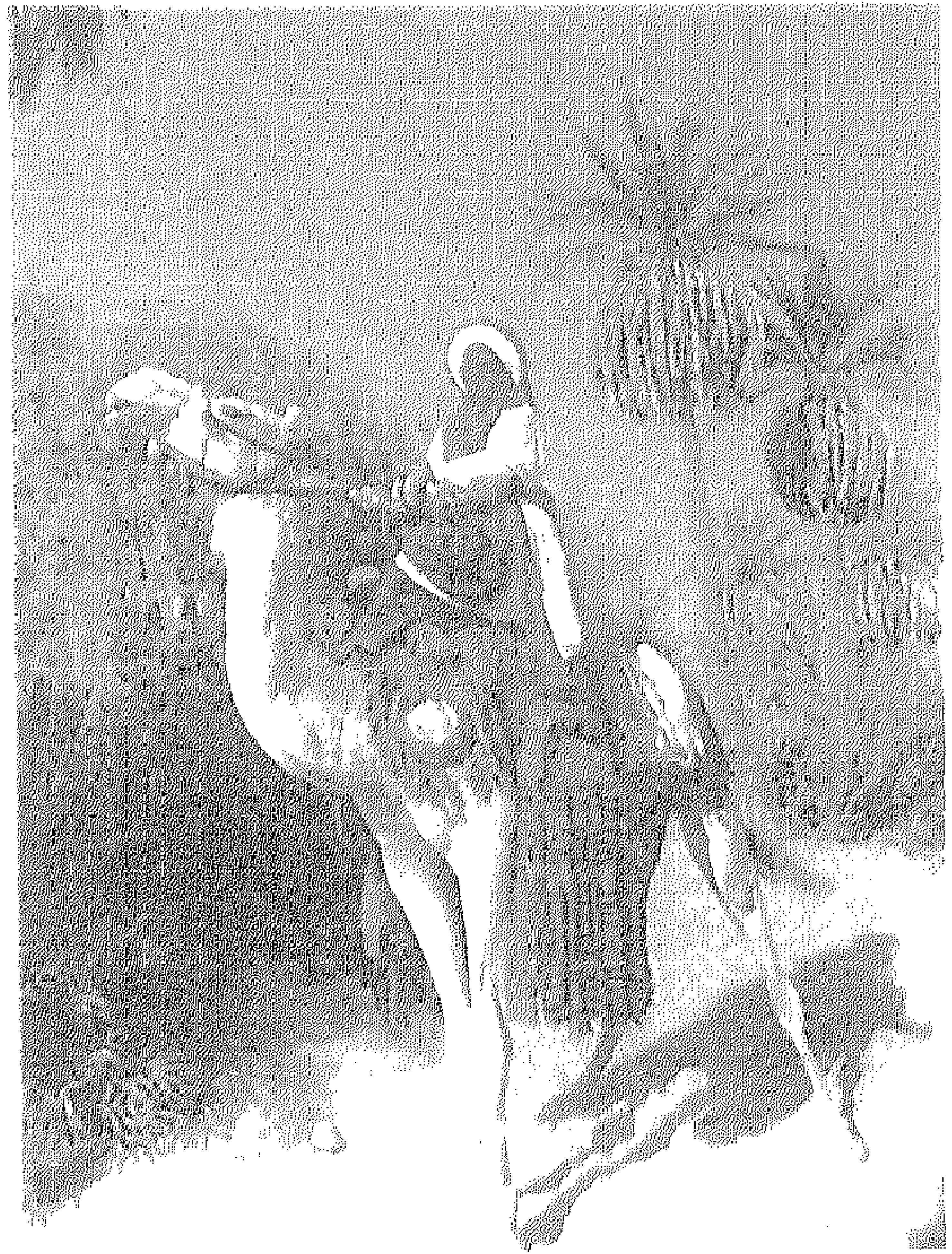
جبل الجنون بالقرب من غات وقد شُقّ بجانبه طريق معبد يصل غات بسببها



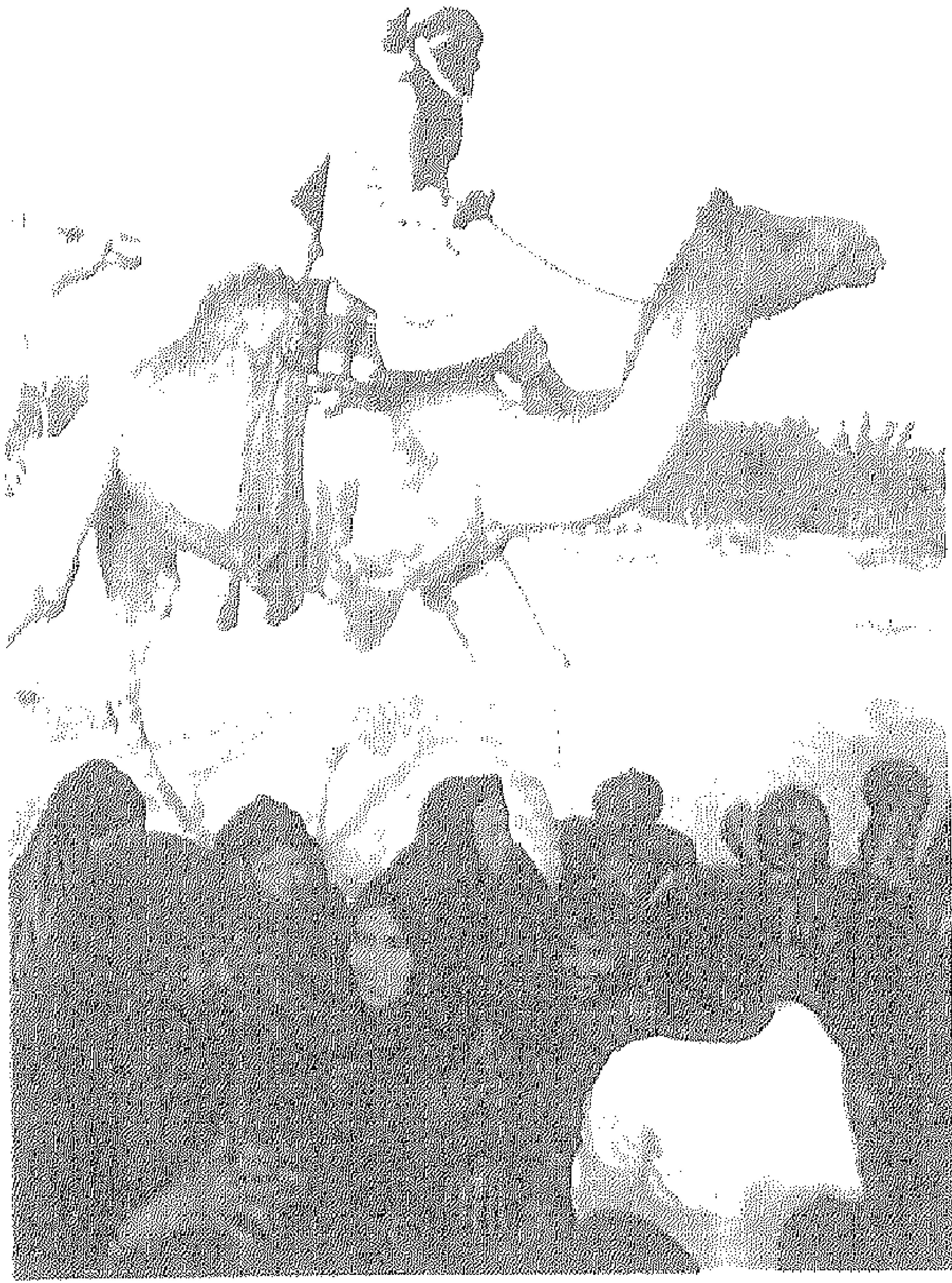
تارقي بكامل زينته وكذلك جمله الذي يمتطيه استعداداً للانطلاق في السباق



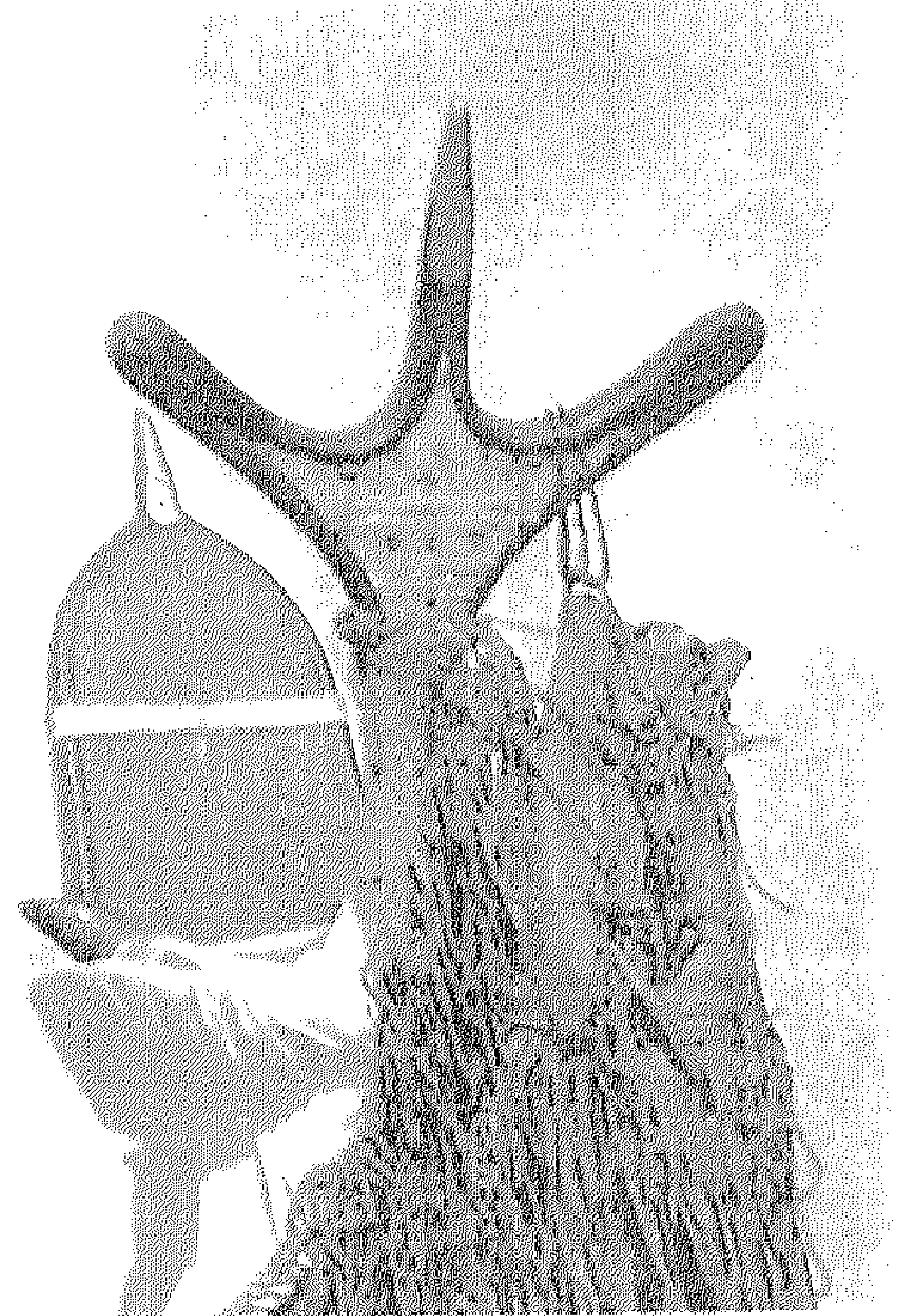
بعض رجال التوارق في احتفال شعبي



تارقي يمتطي جمله بكامل زينتها



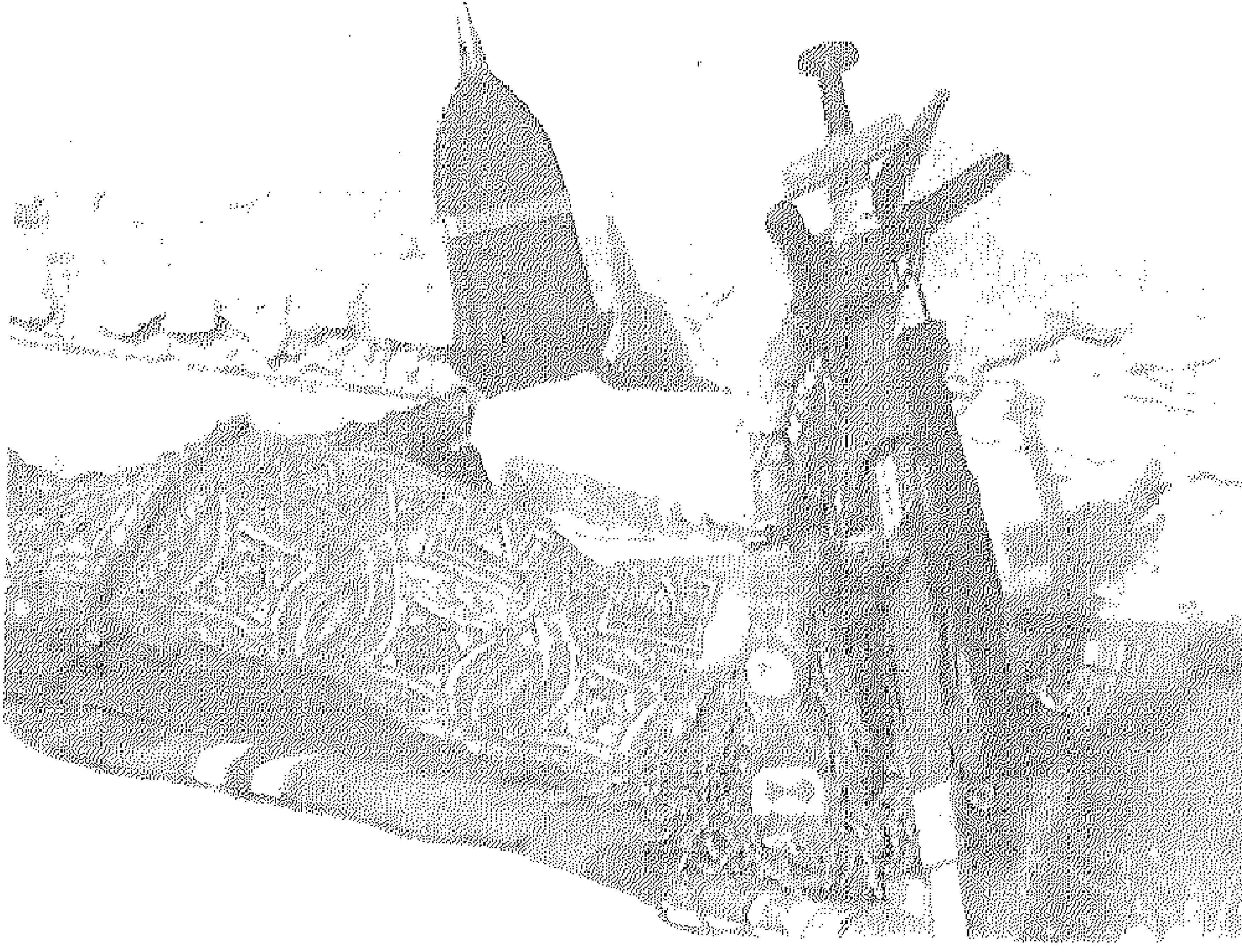
سباق المهاري في الأفراح، وقد تجمعت النسوة حول الطبل (التيدني)



راحلة تارقية وفي مقدمتها حقيبة من الجلد معلقة تسمى (شكُوش) يضع فيها المسافر زاده في الرحلة



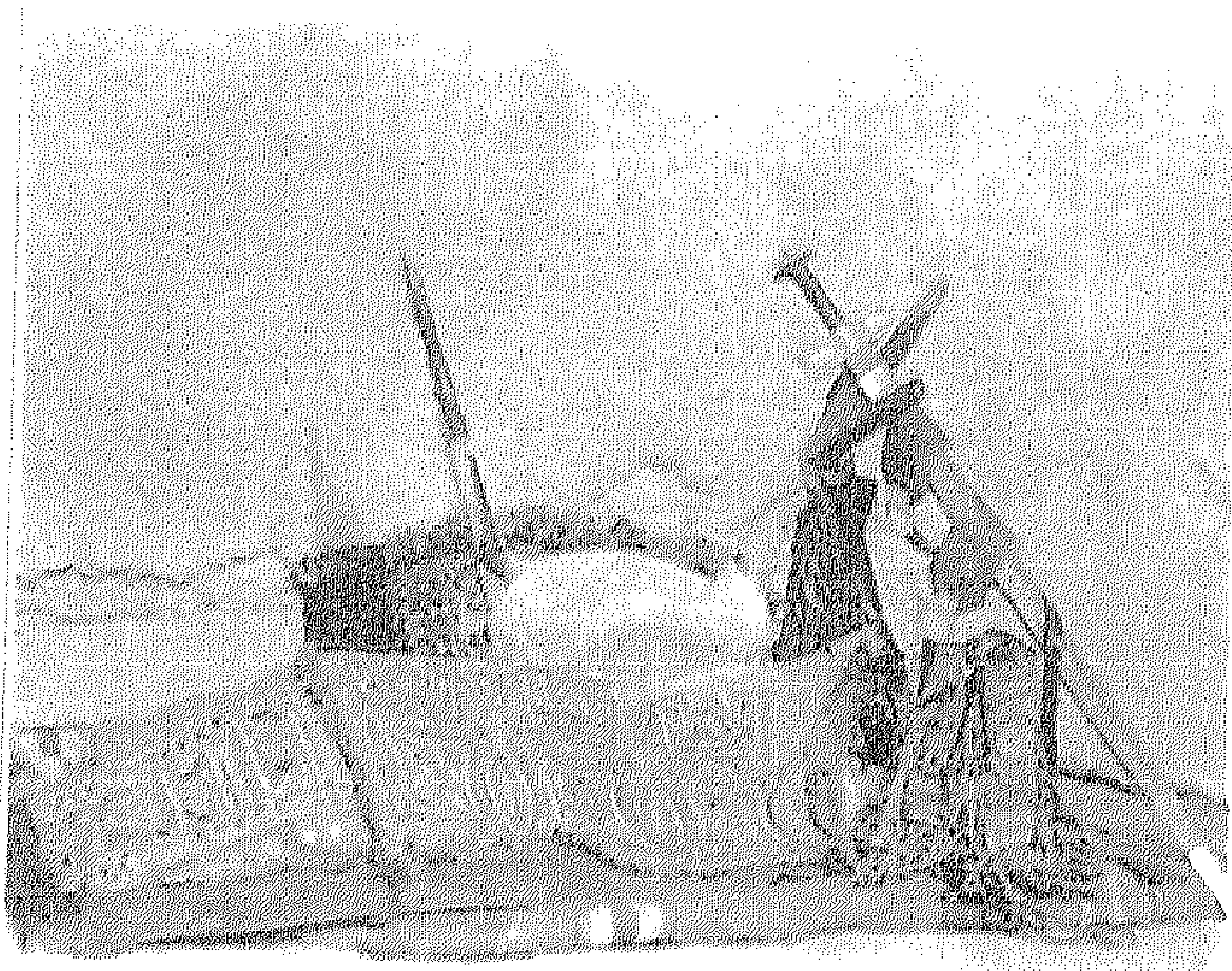
سباق المهاري



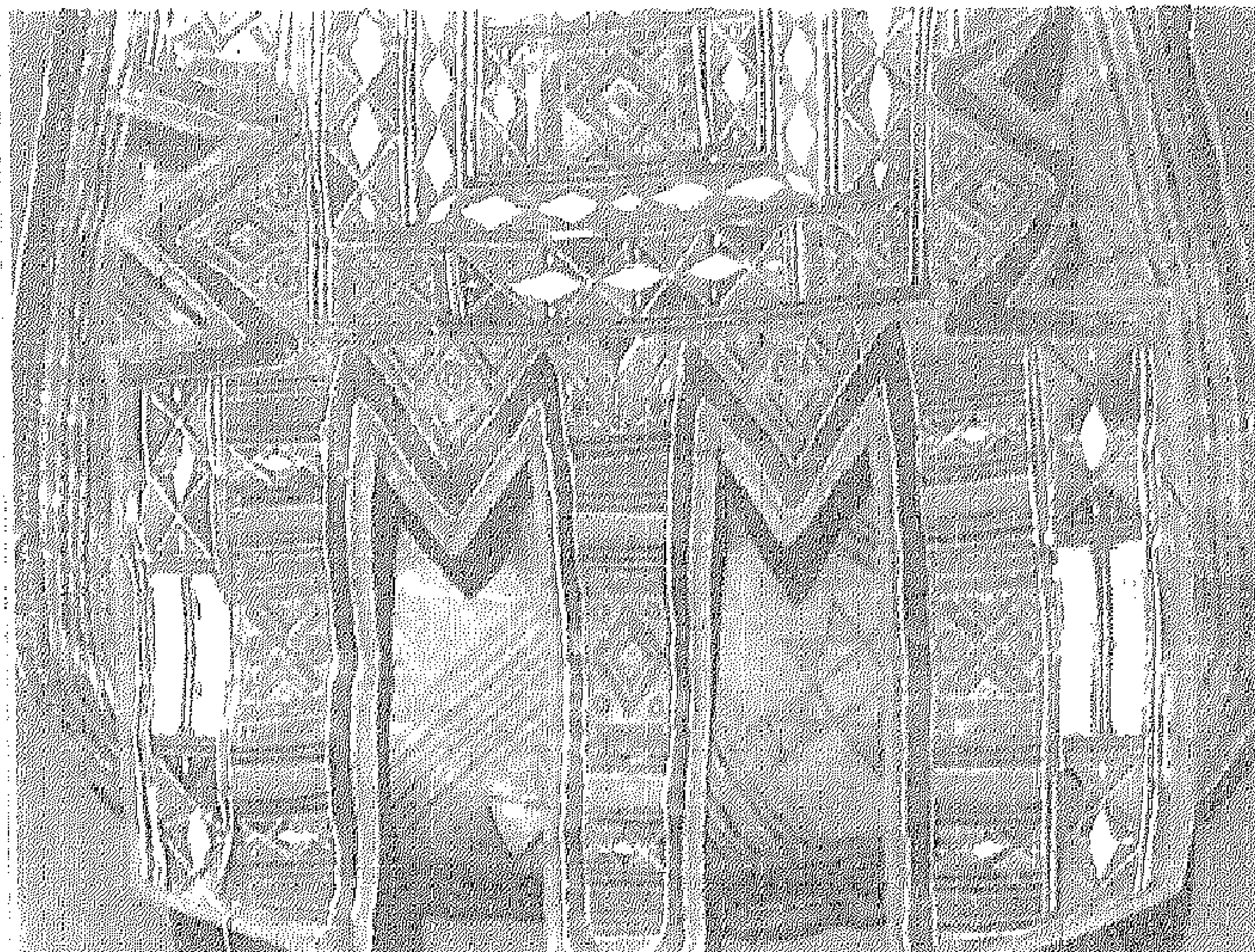
راحلة تارقية بكامل معداتها،
والسيف معلق في مقدمتها



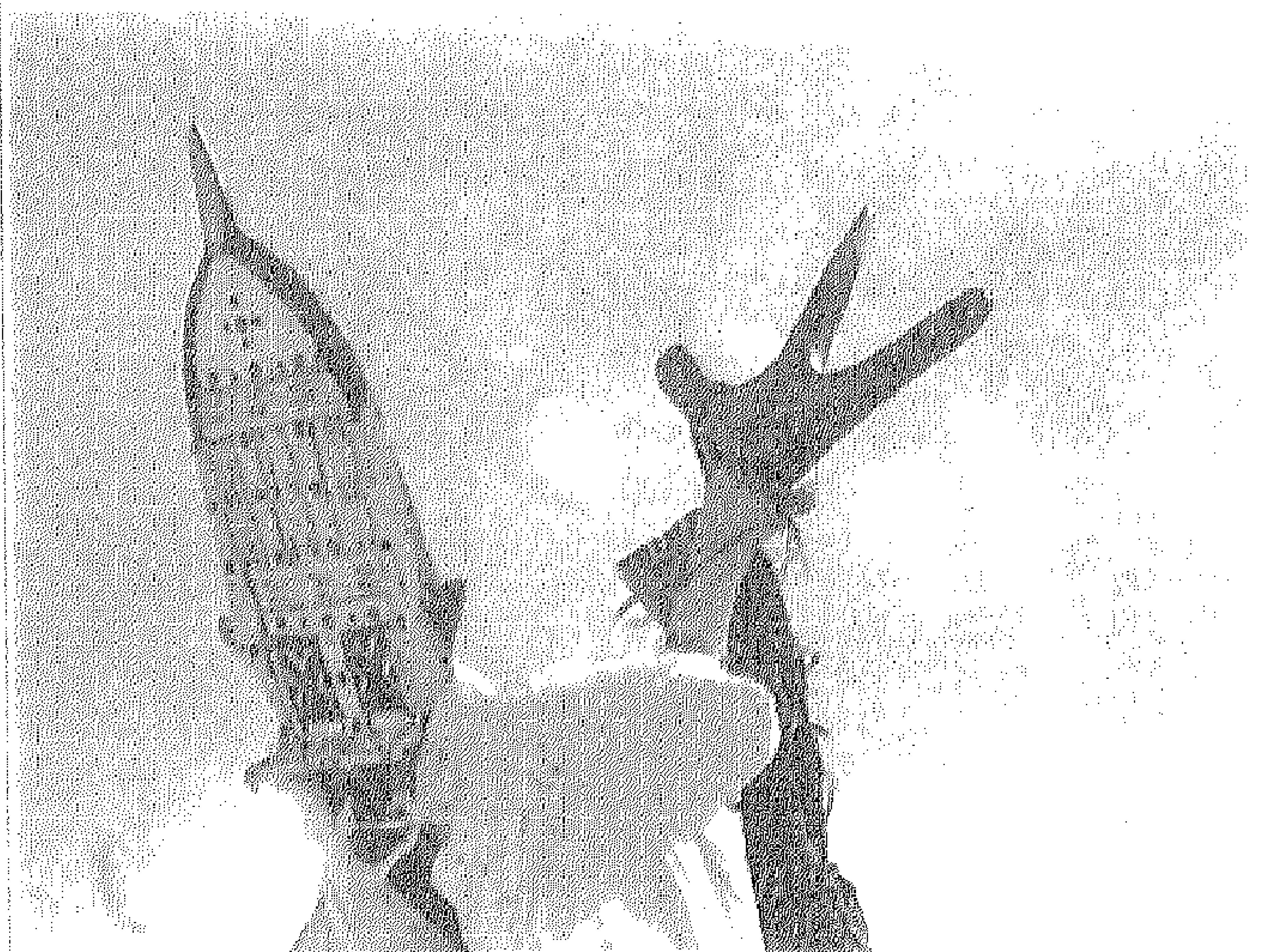
بـعـض رجـال الـتـوارق
يمتطون صهوات المهاري



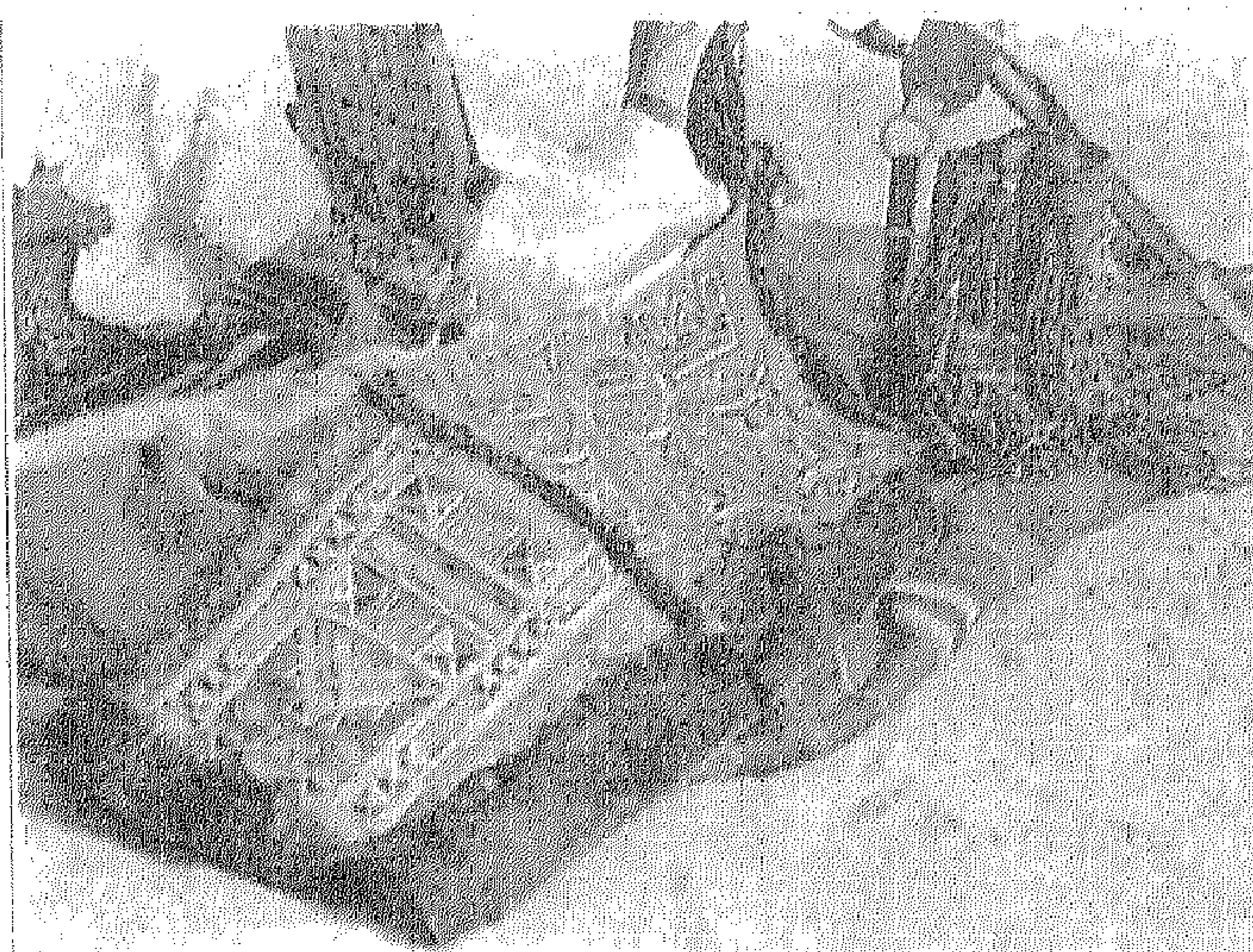
اثاث الجمل الذي
يوضع مع الراحلة



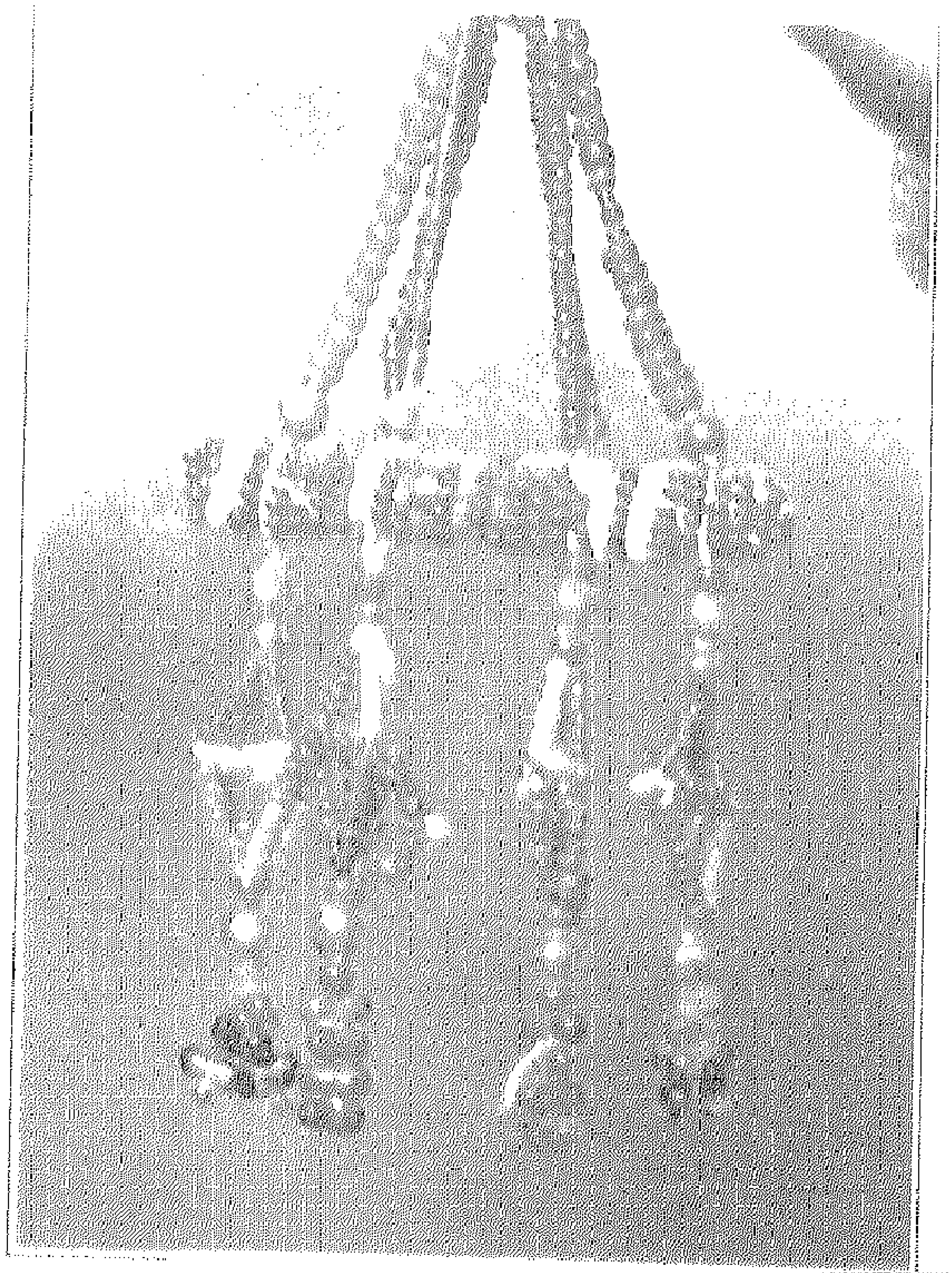
(جبيرة) من الجلد المزين، يعلقها التارقي على راحلة الجمل ويضع فيها لوازمه الخاصة، وتسمى (الجبيرة)



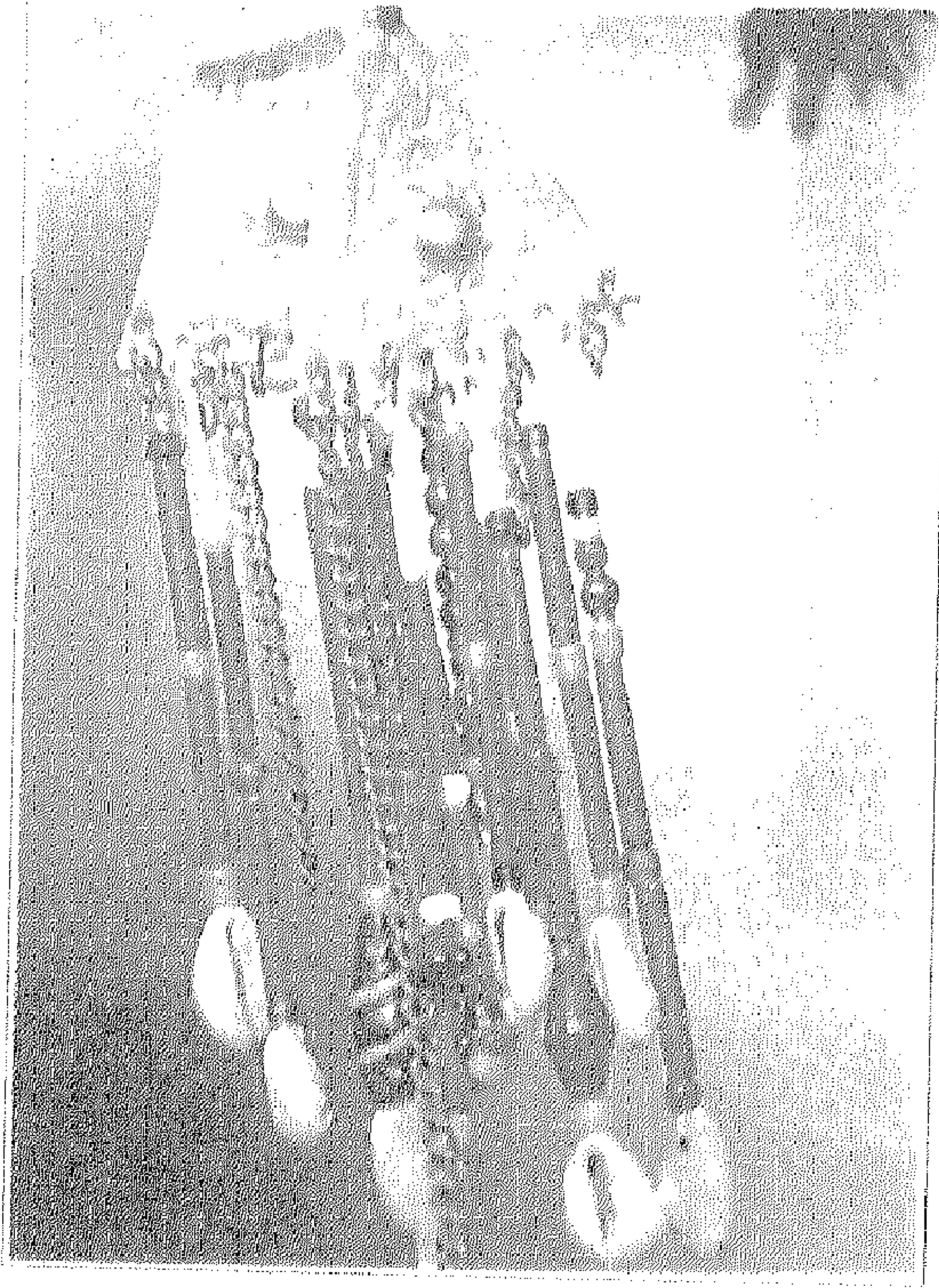
الراحلة التي توضع على غارب الجمل المهري، ويركبها التارقي



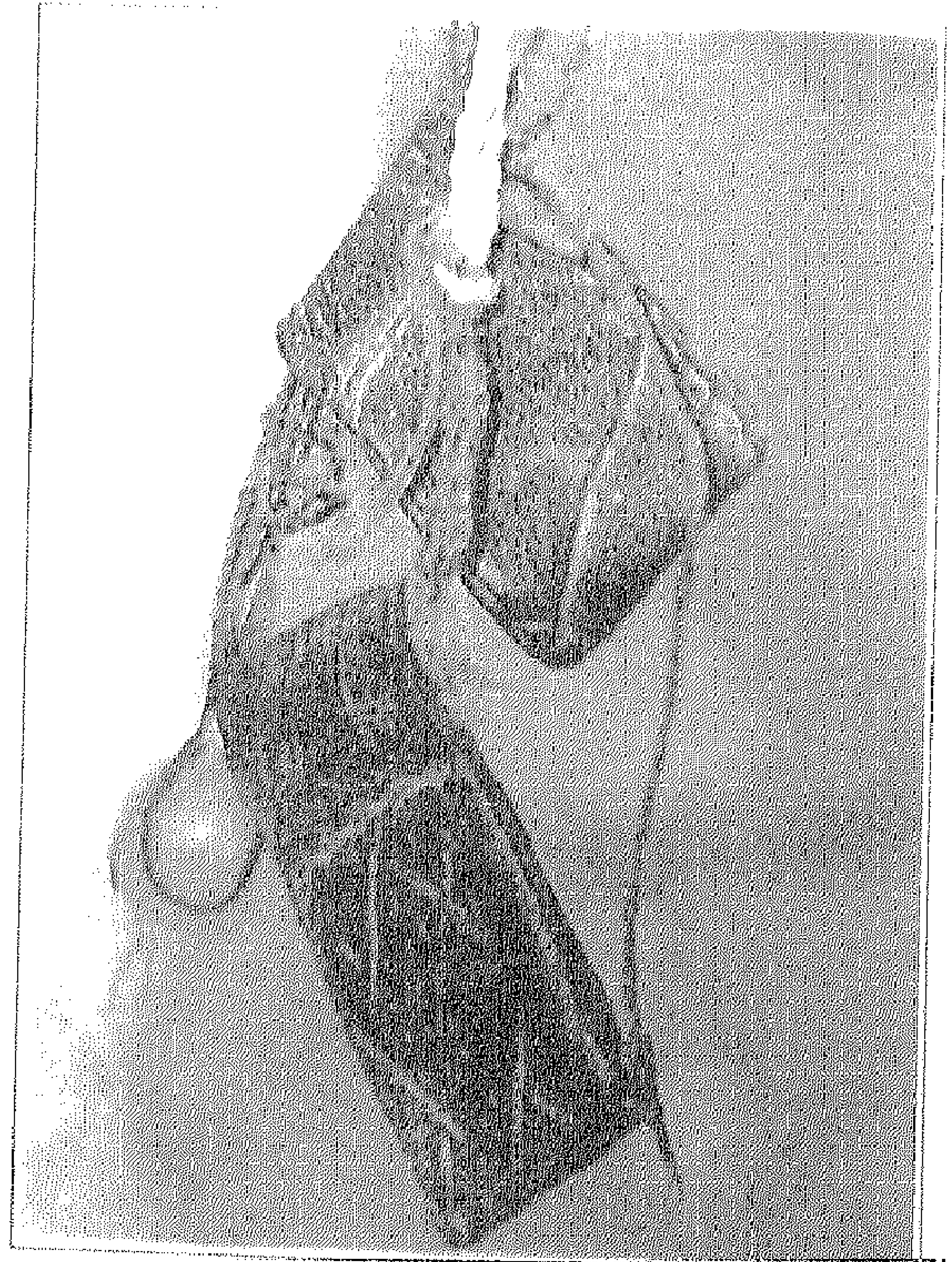
قطع منقوشة في القماش تسمى (تيسات) توضع تحت الراحلة لتقي الجمل ثقل الراكب



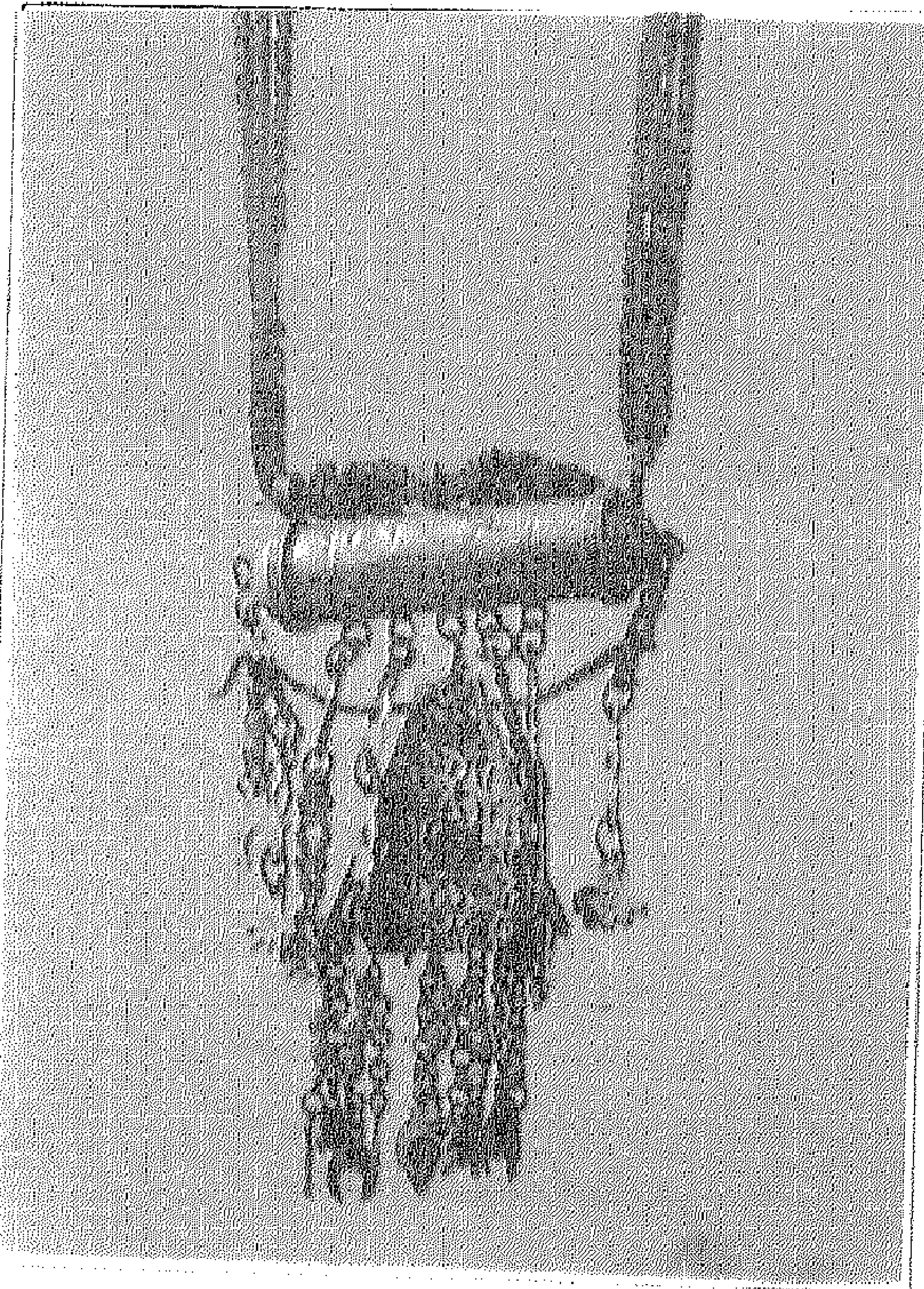
عقد من الخرز تلبسه المرأة
التارقية في المناسبات



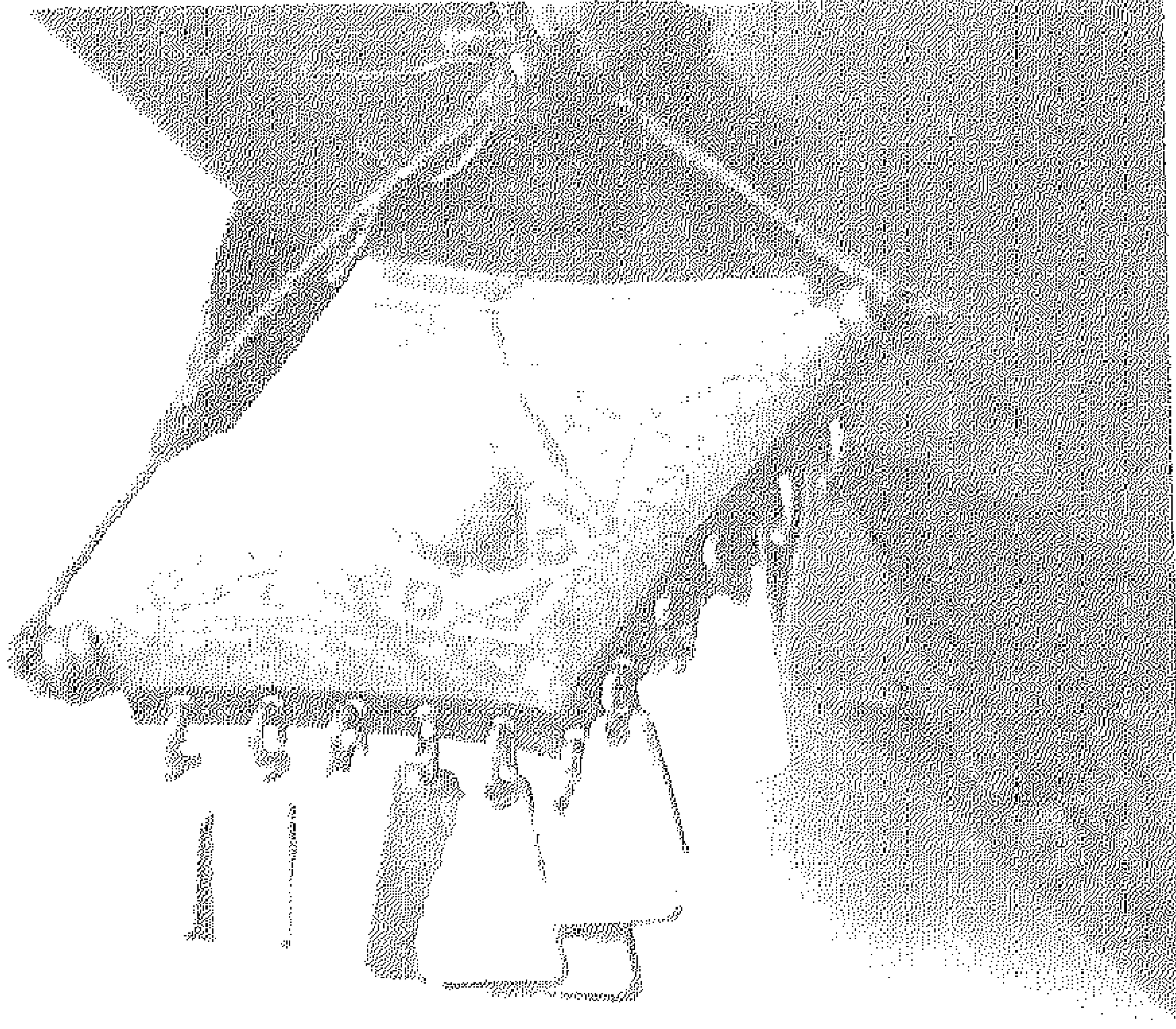
اقراط من الفضة والمرجان تلبسها التارقية في المناسبات
واكثر من يلبس مثل هذه الاقراط التارقيات السود



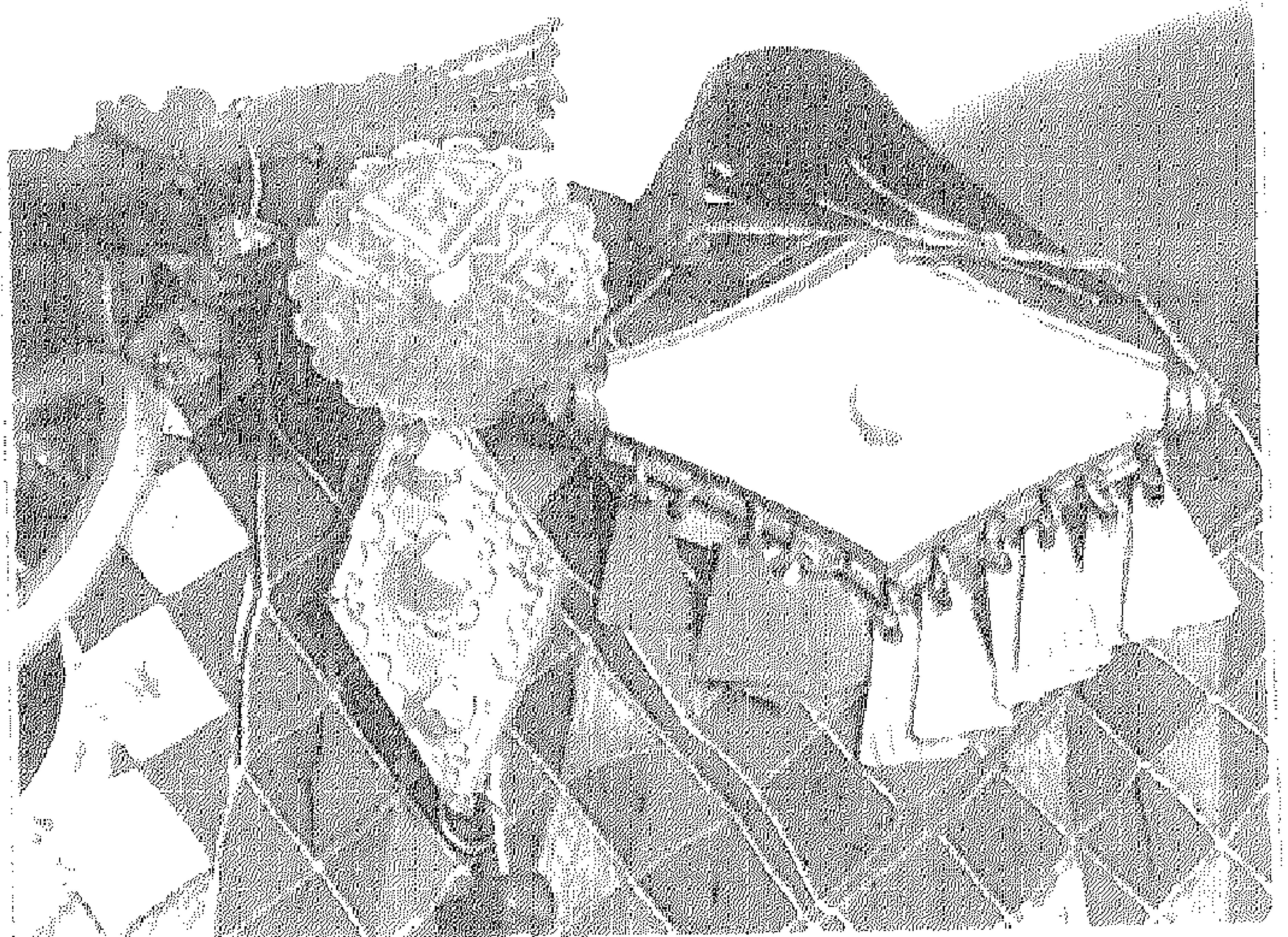
(حجابات) يضعها التارقي في رقبته اتقاء للشر وطرداً
للحسد وجلباً للهيبة واحياناً في بعضها ضد الرصاص



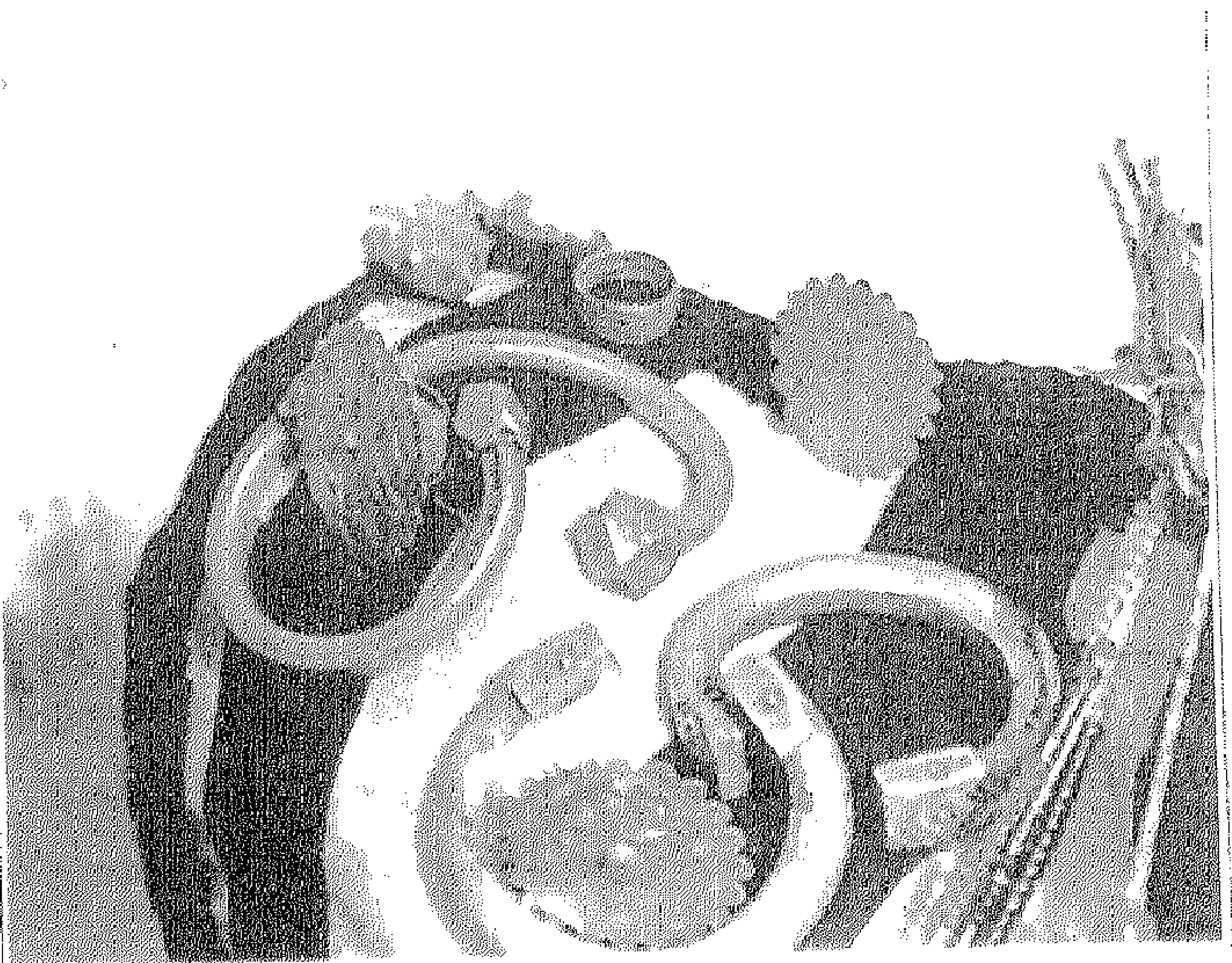
قطعة من الفضة تضعها النساء التارقيات في رقابهن
ومجوفة من الداخل حيث يوضع
في داخلها (حرز) يحمي المرأة من الشرور



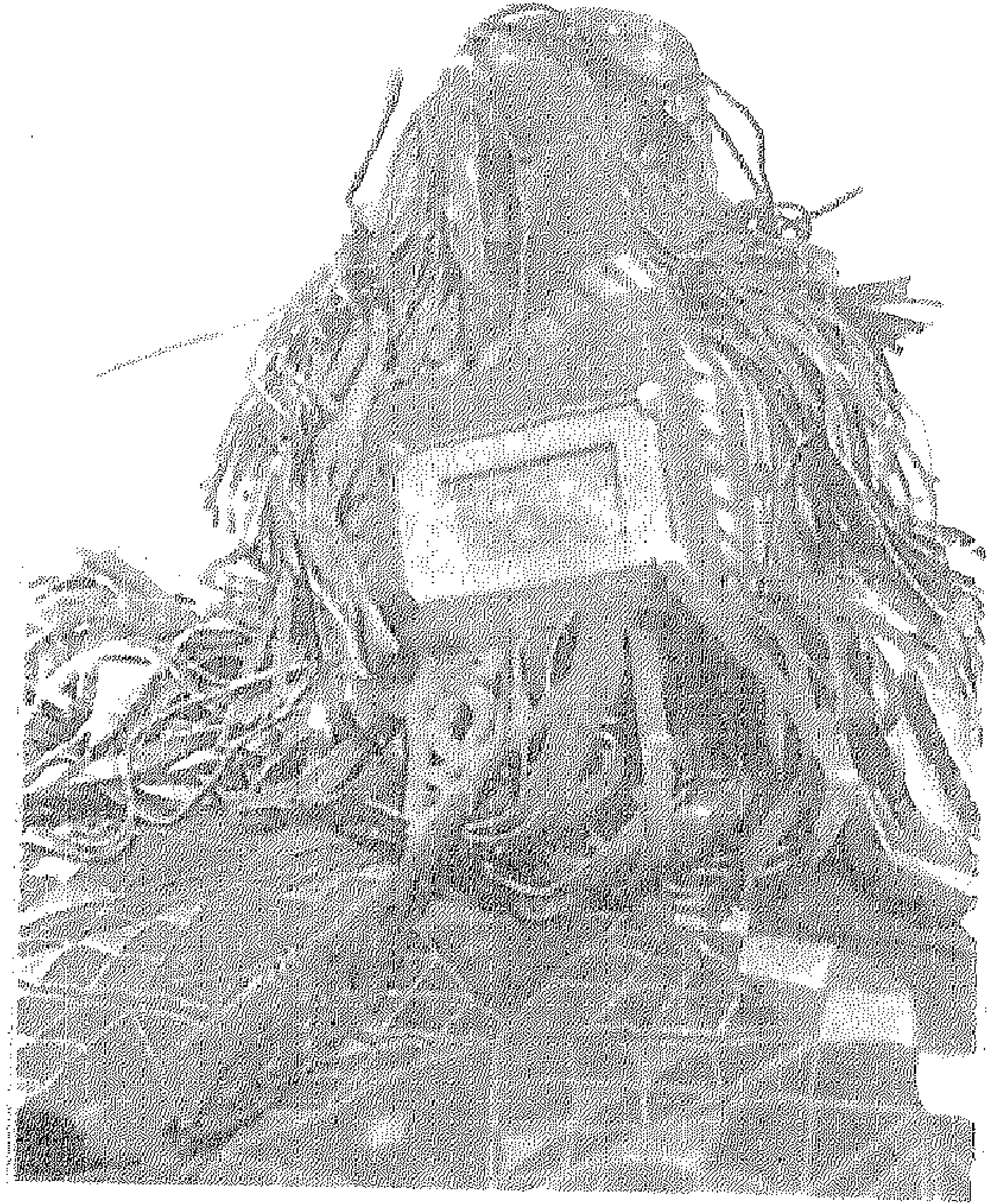
حلي المرأة التارقية وهي
قطعة من الفضة تضعها في
رقبتها وتسمى (تكازضي)



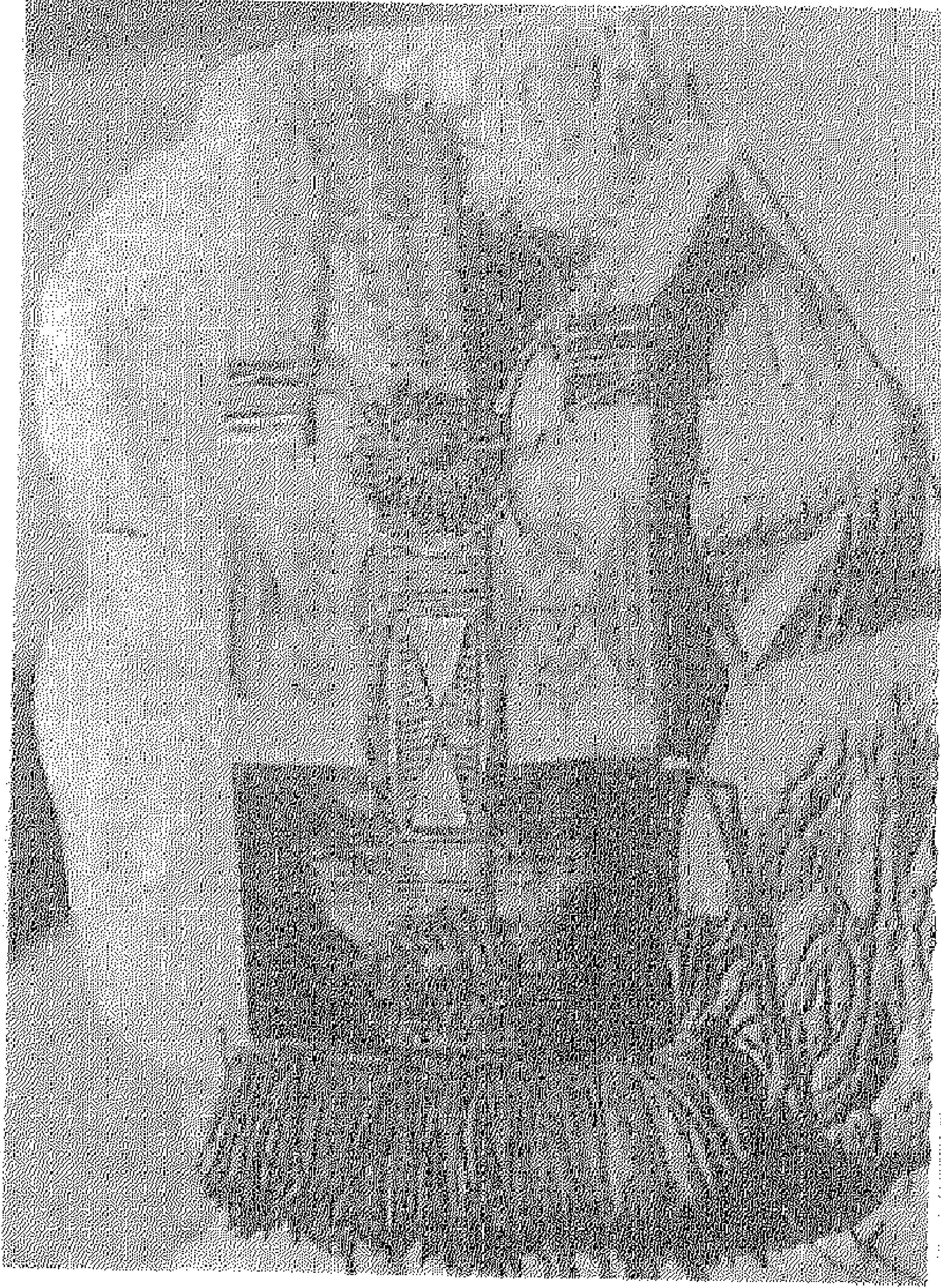
حلي مختلفة من الفضة
تحتوي على خاتم وزينة
للرقبة وقرط وخلخال



خلاخيل (إبشبذانْ) وخواتم
وعقود من العقيق، تلبسها نساء
التوارق ولو أن أغلب التوارق لا
تستخدم نساؤهم الخلاخيل



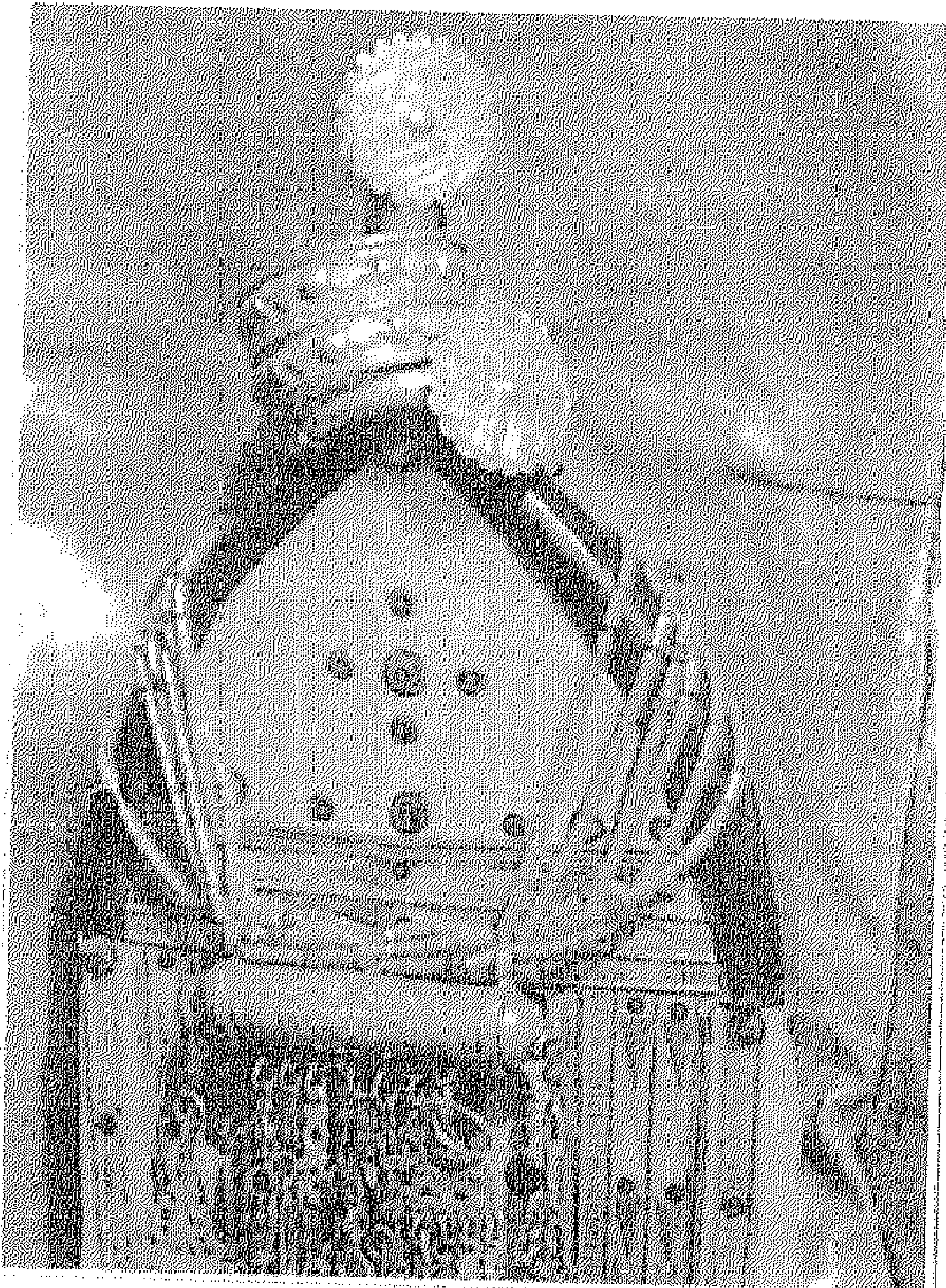
كيس من الجلد تضع فيه التارقية بعض عطورها



محفظة من الجلد يوضع فيها (النفّة) (السعوط) ويعلقها التارقي في رقبته، وتسمى (إينفَث)



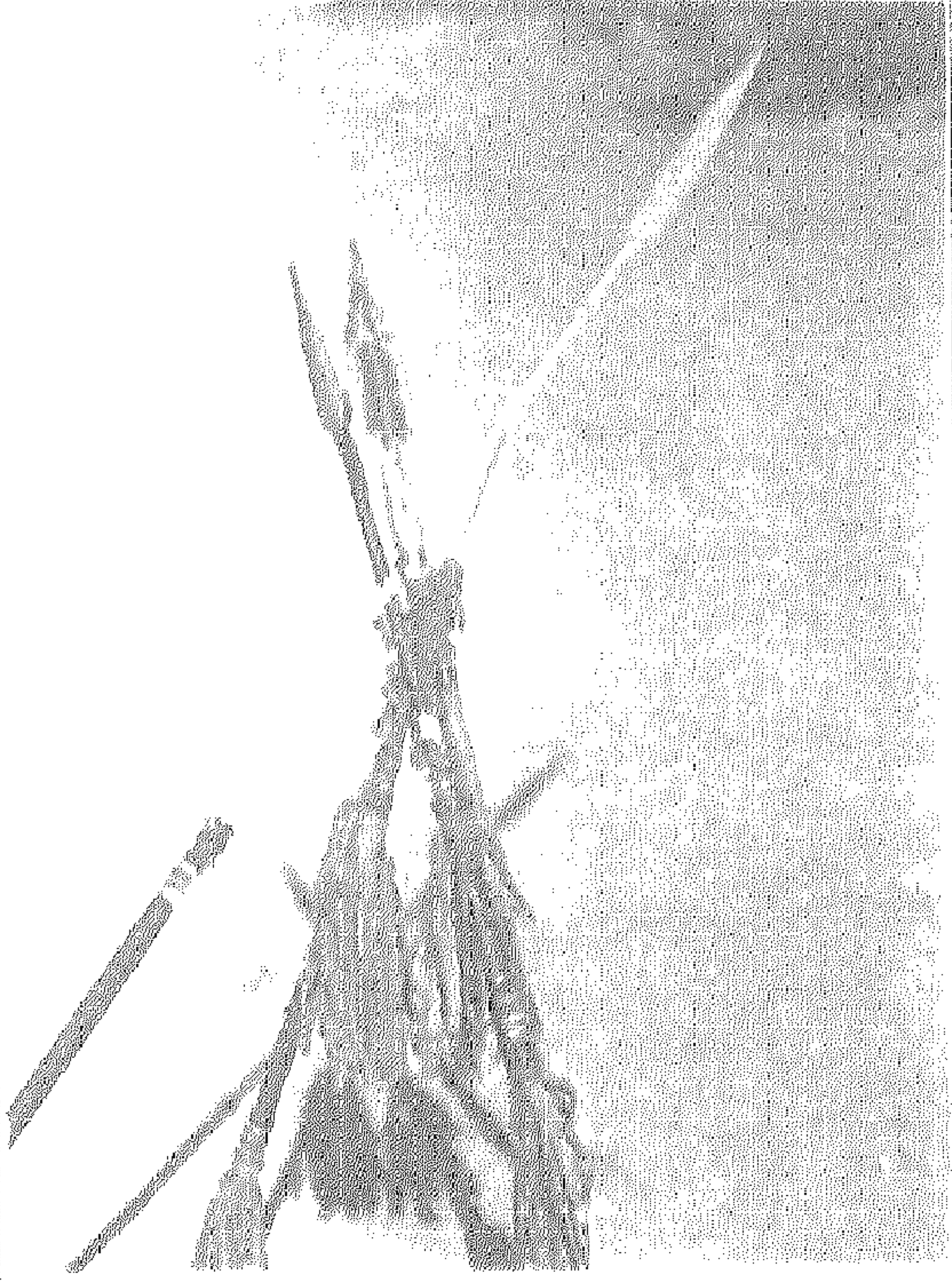
(مكحلة) تضع فيها المرأة التارقية الكحل



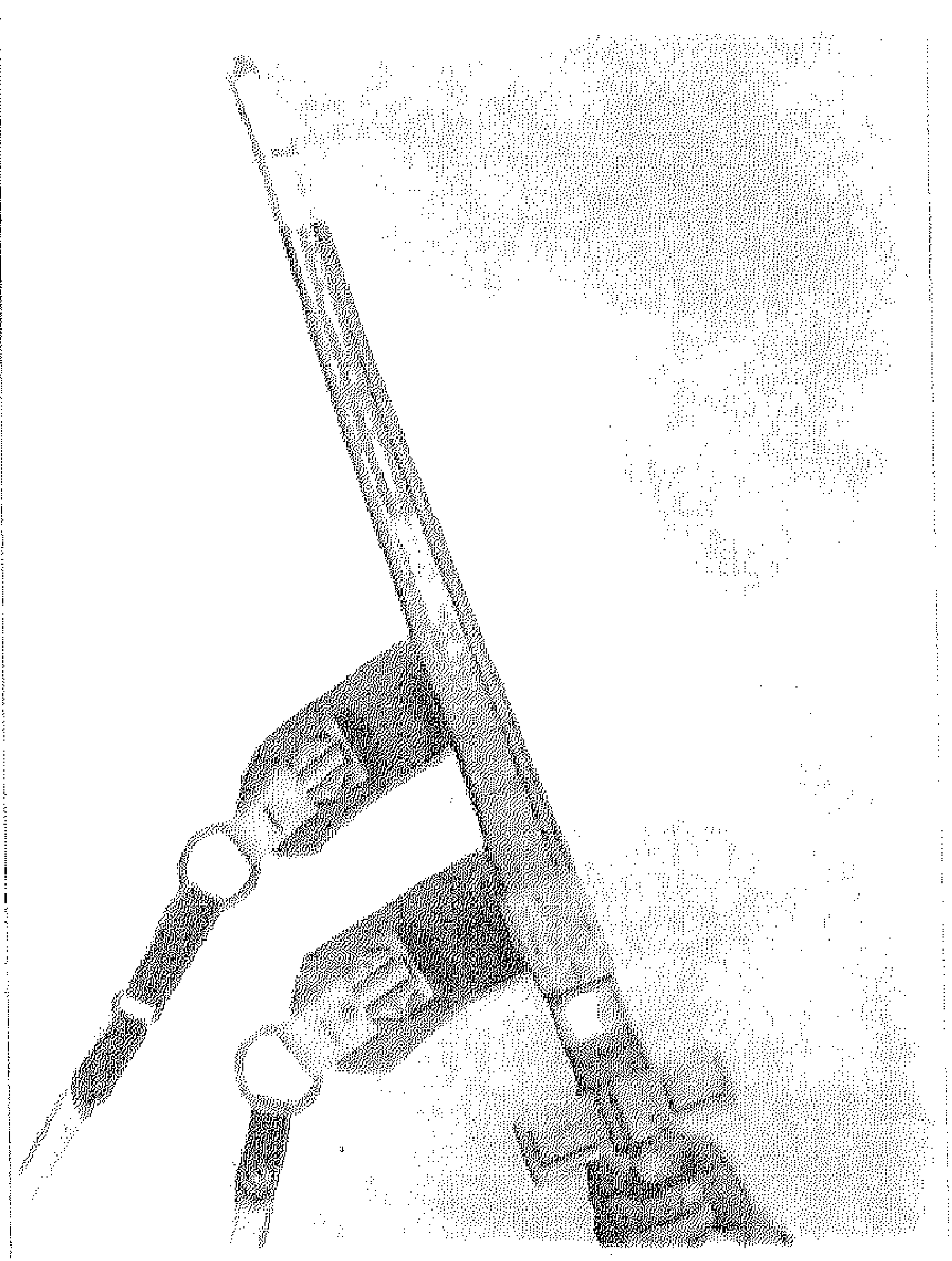
حلي نسائية تارقية وقد عرضت على مؤخرة الراحلة في معرض غدامس للمقتنيات التارقية



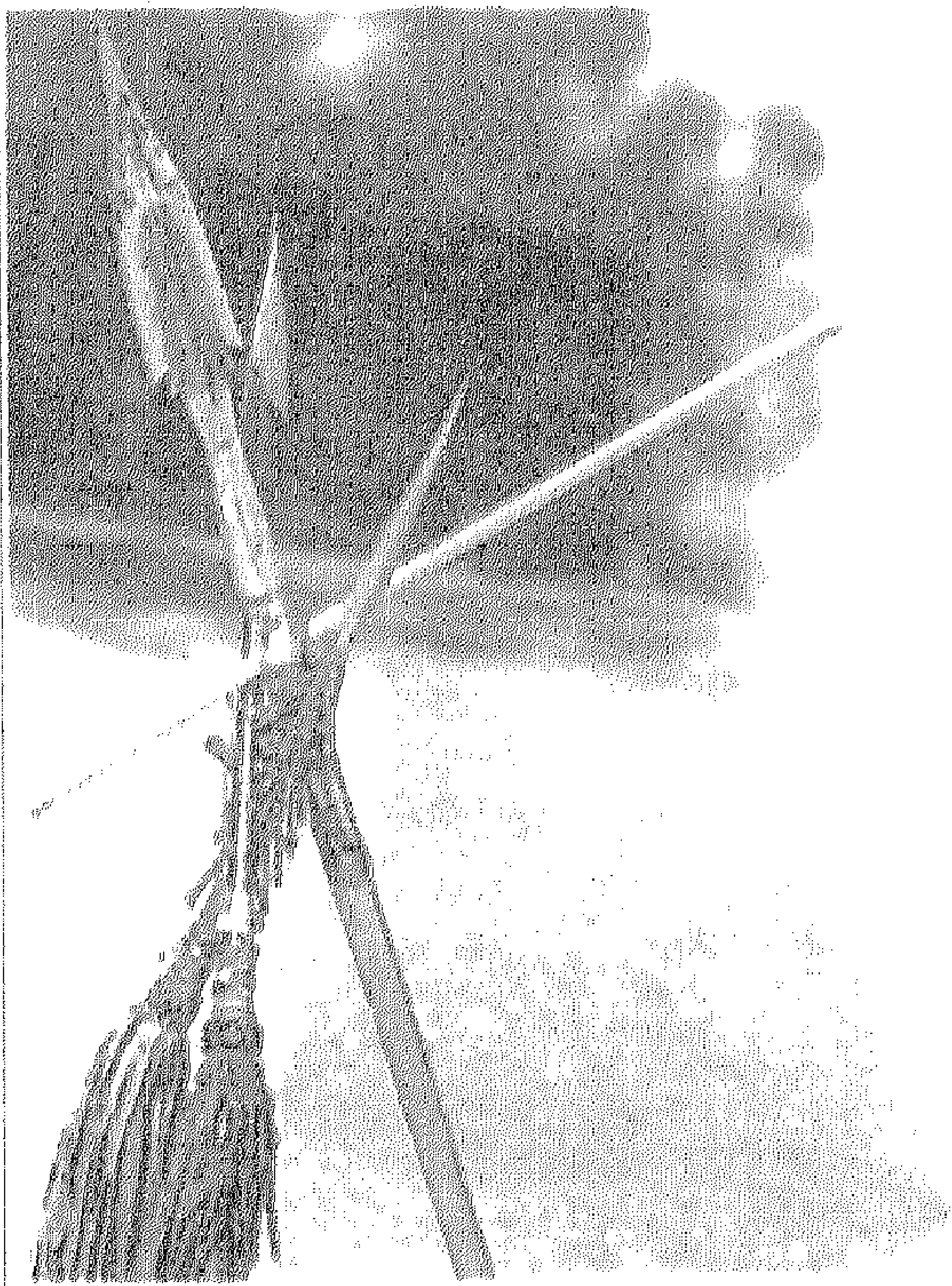
خيمة تارقية من الجلد



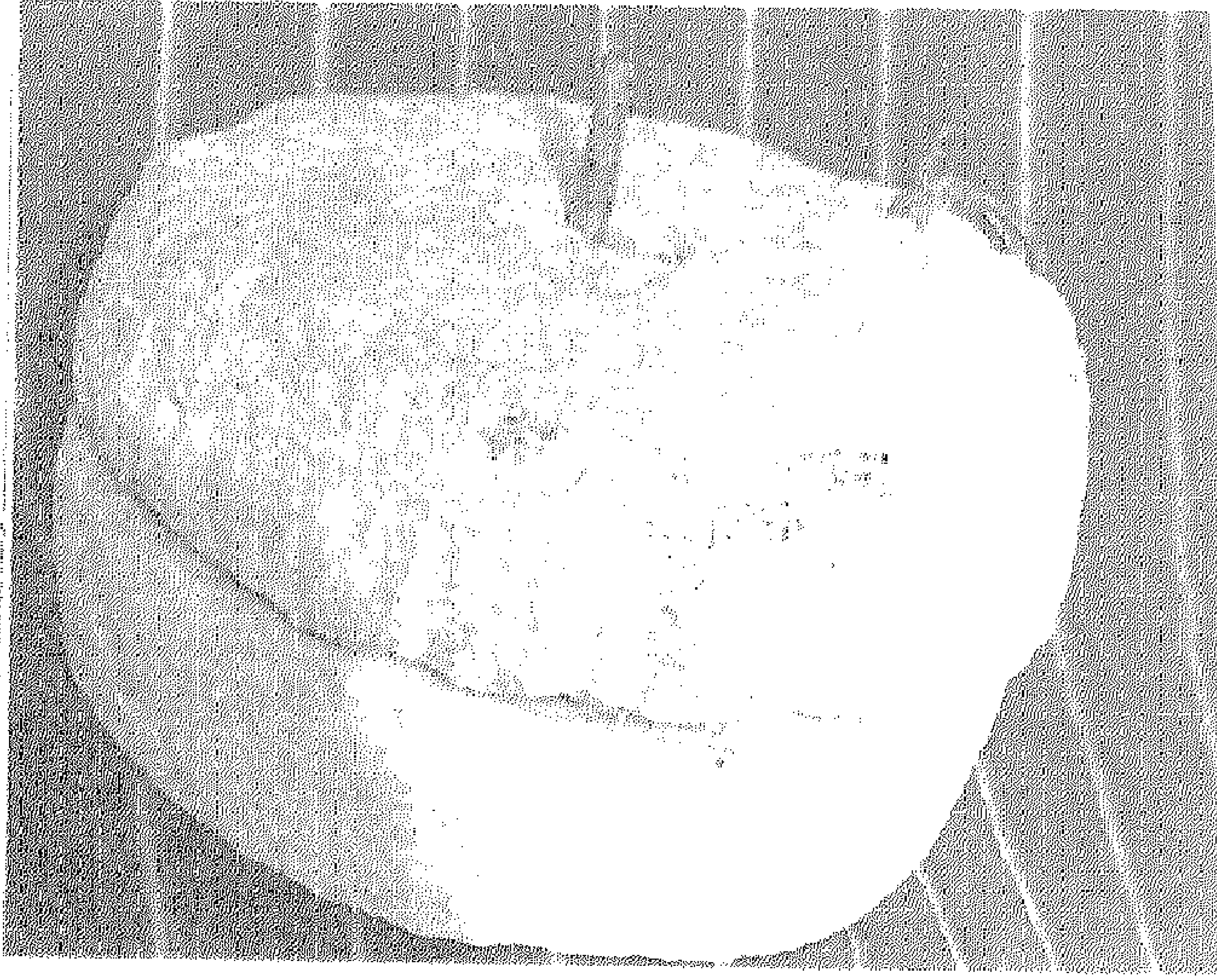
رماح تارقية



سيف تارقي ويلاحظ الغمد المنقوش
والحمائل من الجلد



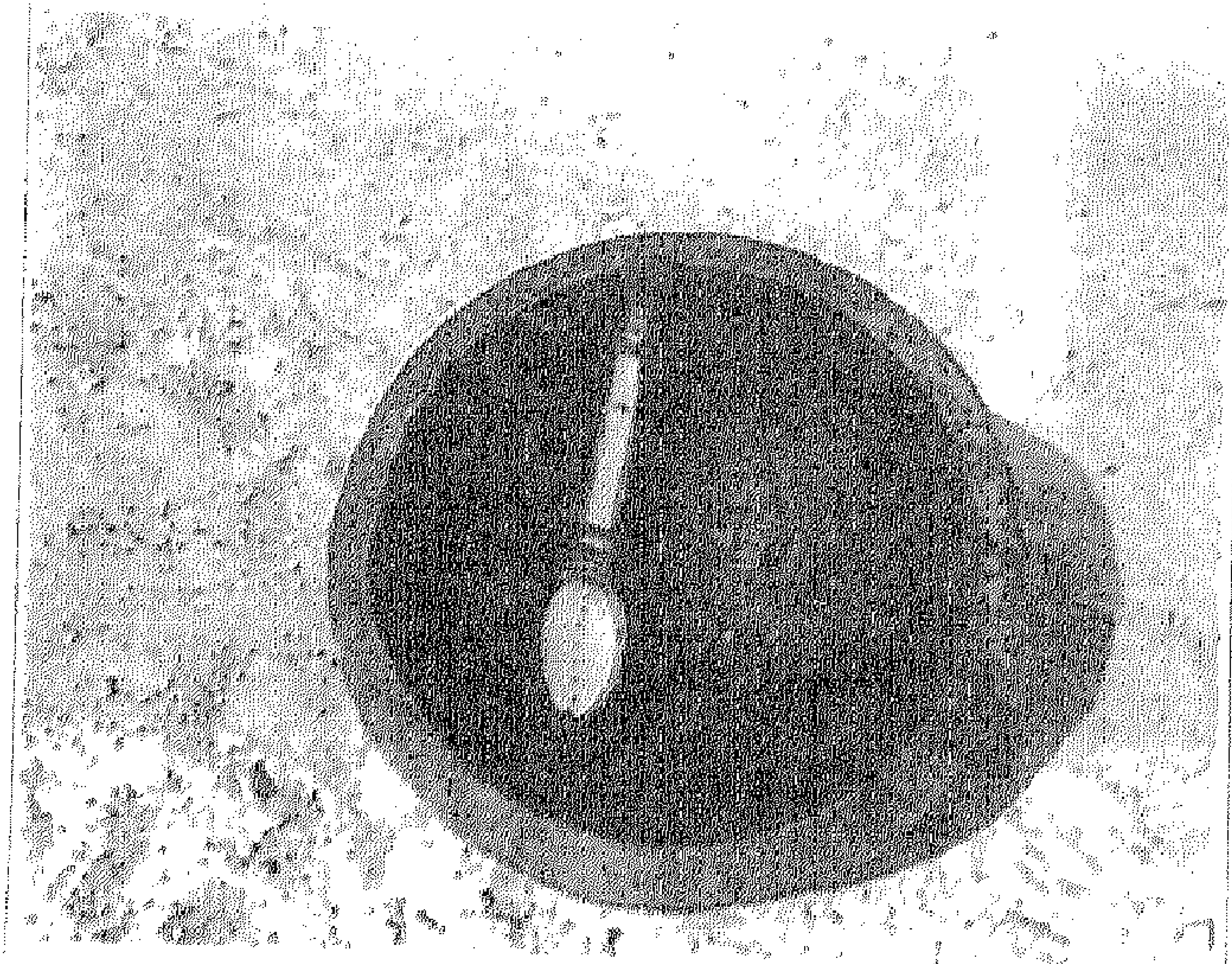
رماح تارقية مختلفة الأحجام والأشكال
(معرض المقتنيات التارقية ـ غدامس ـ)



(رحى) من الحجر تستخدم عند سكان الصحراء عموماً لطحن الحبوب، ولكن رحاة التوارق تختلف عن هذه فهي عبارة عن حجرين تدعكهما الخادمة ببعضهما



قدح من الخشب ويسمى عند التوارق (أطّضا)



قصعة وملعقة من الخشب يستخدمهما التوارق في طعامهم



هاون من الخشب ويسمى عند التوارق (تيندي)



تارقي من الهقار يطهي الشاي وحيداً في الصحراء ومن خلفه أحجار الهقار الناتئة



وجه من التوارق



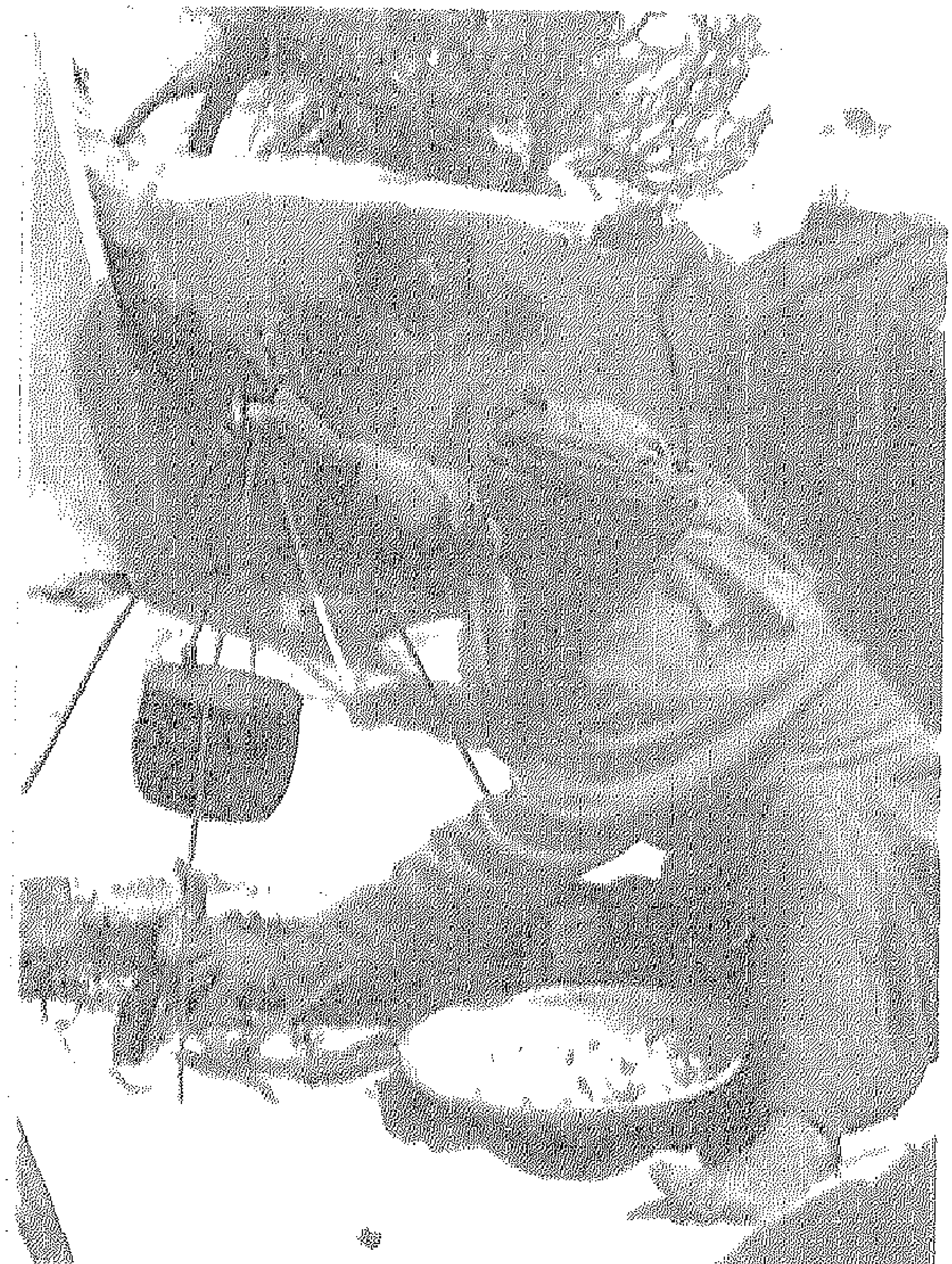
امرأتان من التوارق تدقان الذرة في الهاون استعداداً لطبخها



تارقية تحلب عنزاتها



تارقية تحتضن طفلها وهي بكامل زينتها



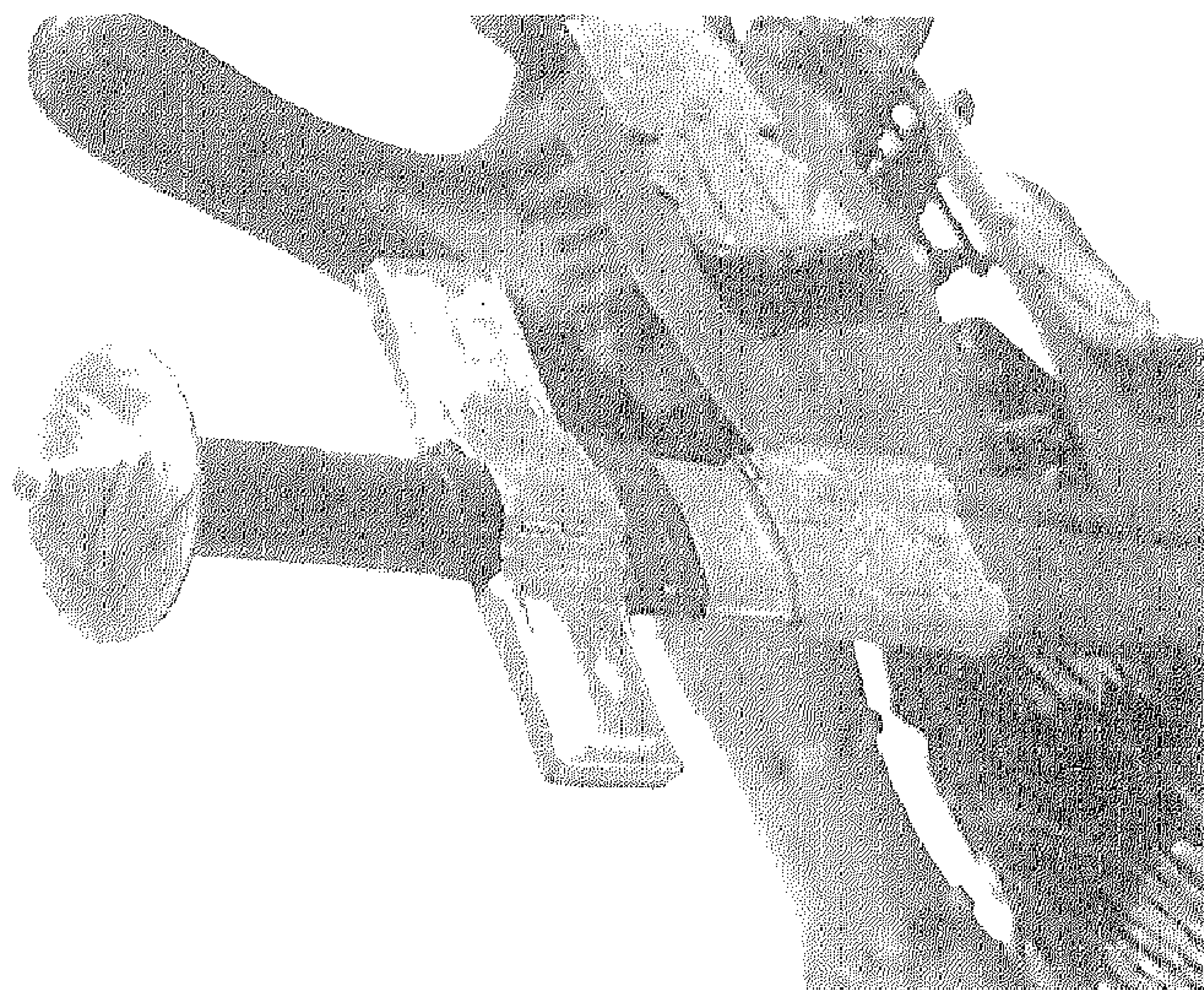
تارقي يطهي طعامه في قدر معلقة على النار



تارقي يضع الخبز في النار



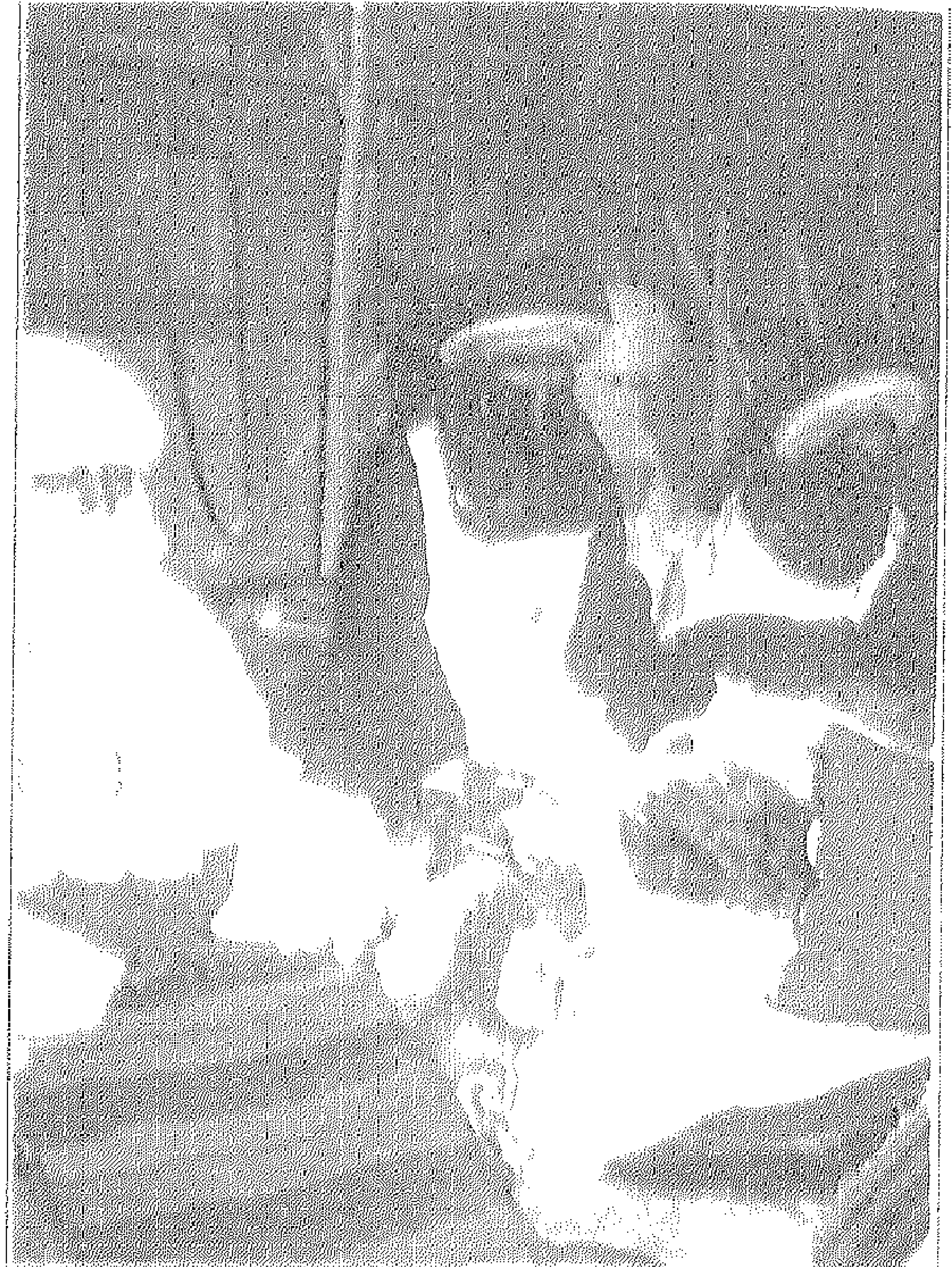
وجه من التوارق



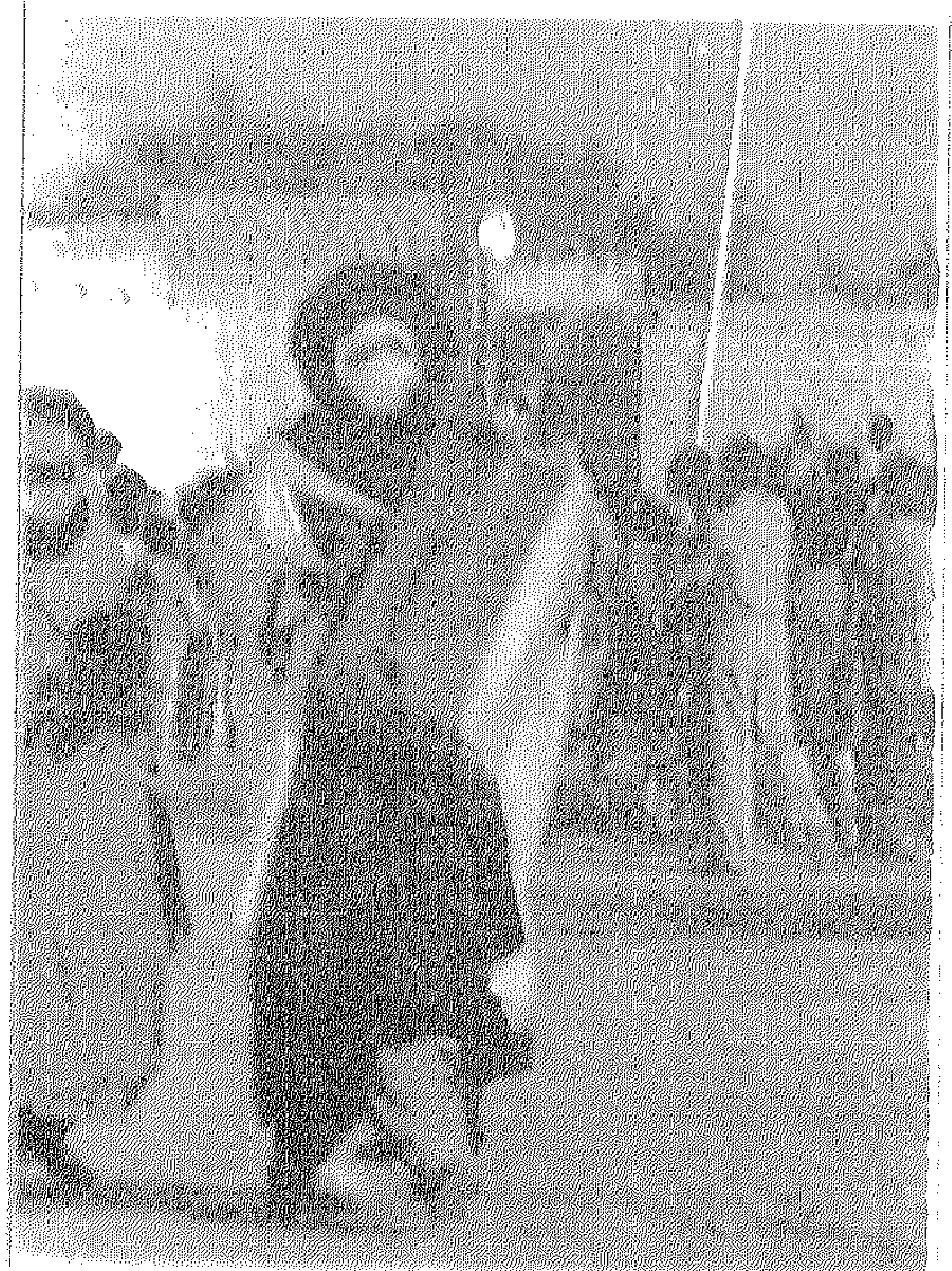
سيف تارقي معلق على مقدمة الراحلة



وجه من التوارق وقد تعمم بالنيلة


اثنان من عرسان توارق أوراغن في كوخ مفروش مع رفقائهم من الشباب. (غات)


كوخ من الخوص، أوراغن (غات)


آلة تشبه (القنقا) يضربها هذا التارقي بعصاه في الأفراح


تارقي بلباسه الكامل استعداداً لركوب (المهري) للسباق في عرس بغات



تارقي يتلو القرآن في (المحضرة)



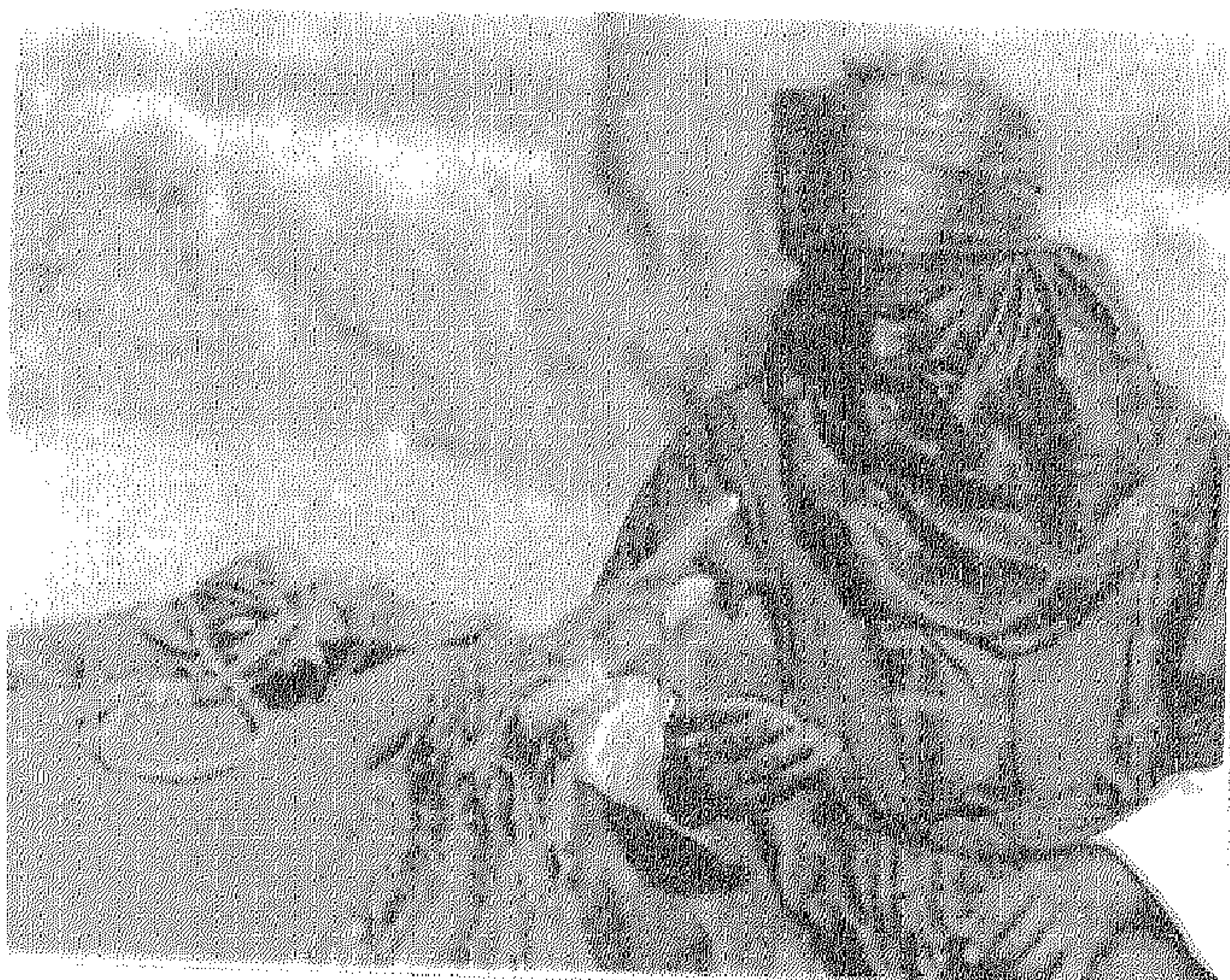
مجموعة من التوارق يلعبون (الخربقة) (السّيزة) والتي يسمونها (دارة)



عريس من توارق أوراغن، وقد لبس العمامة السوداء المتداخلة مع العمامة البيضاء



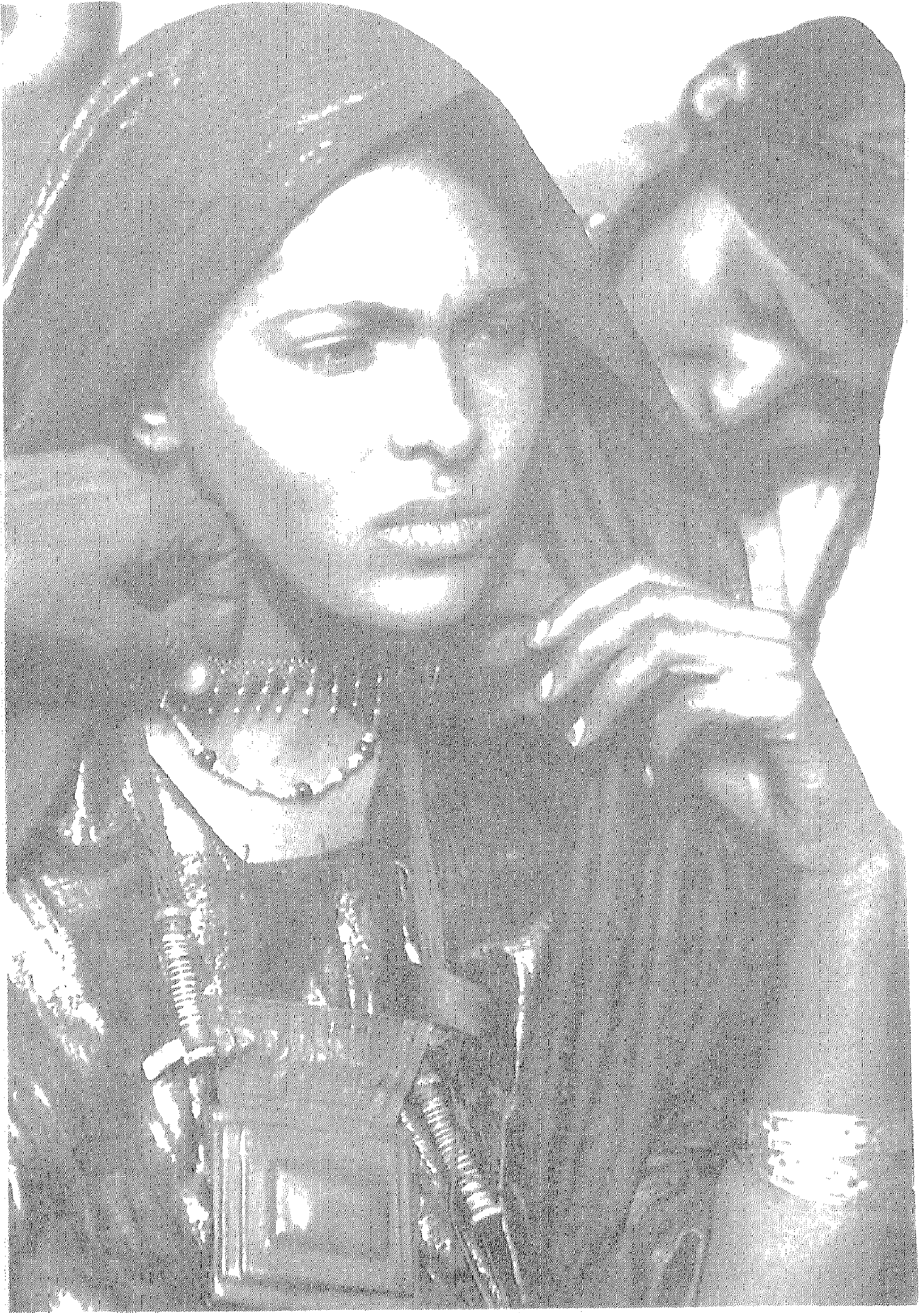
وجه من التوارق



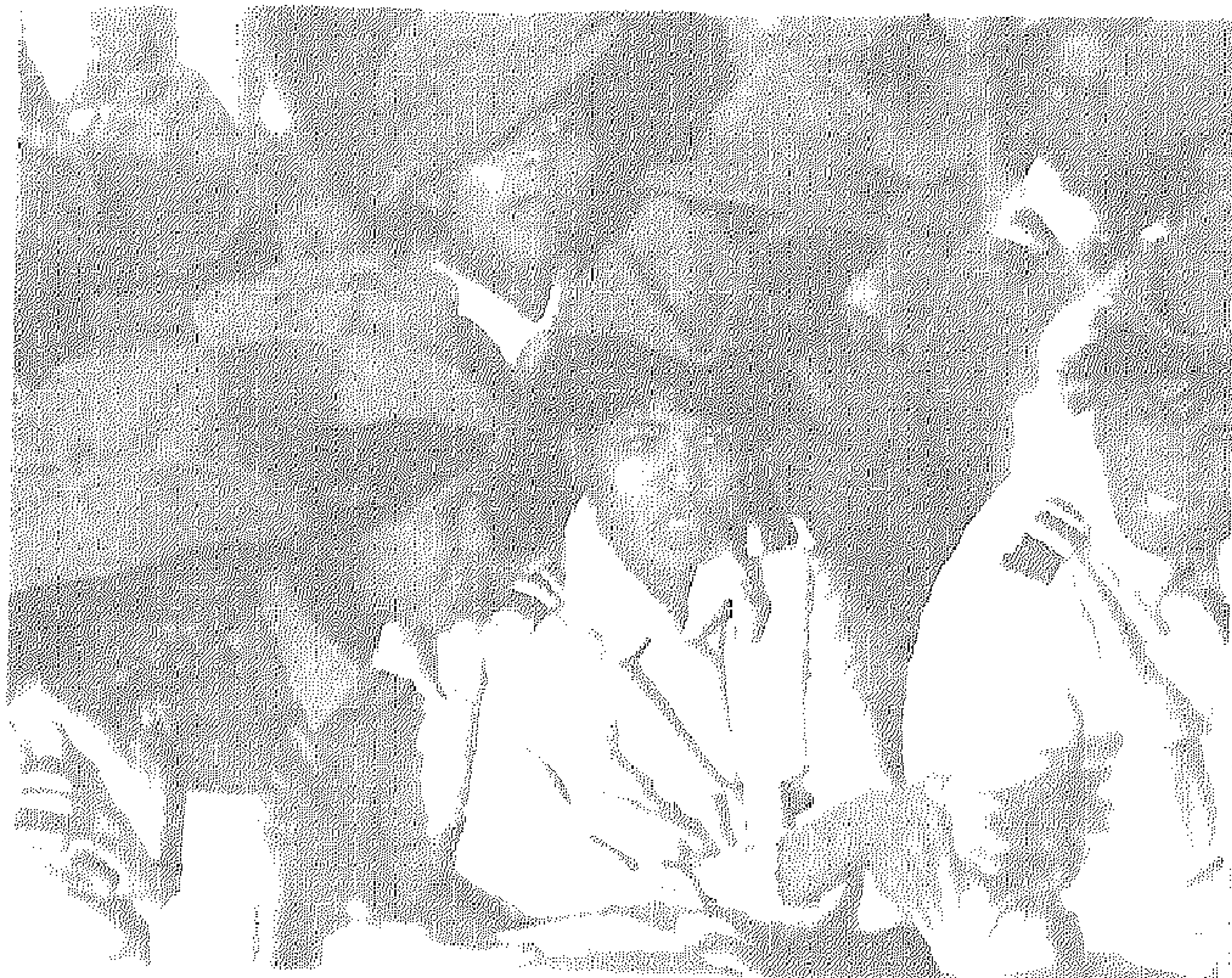
تارقي بكامل زينته يجلس
بجانب أدوات الراحلة



تارقية من غات
بكامل زينتها



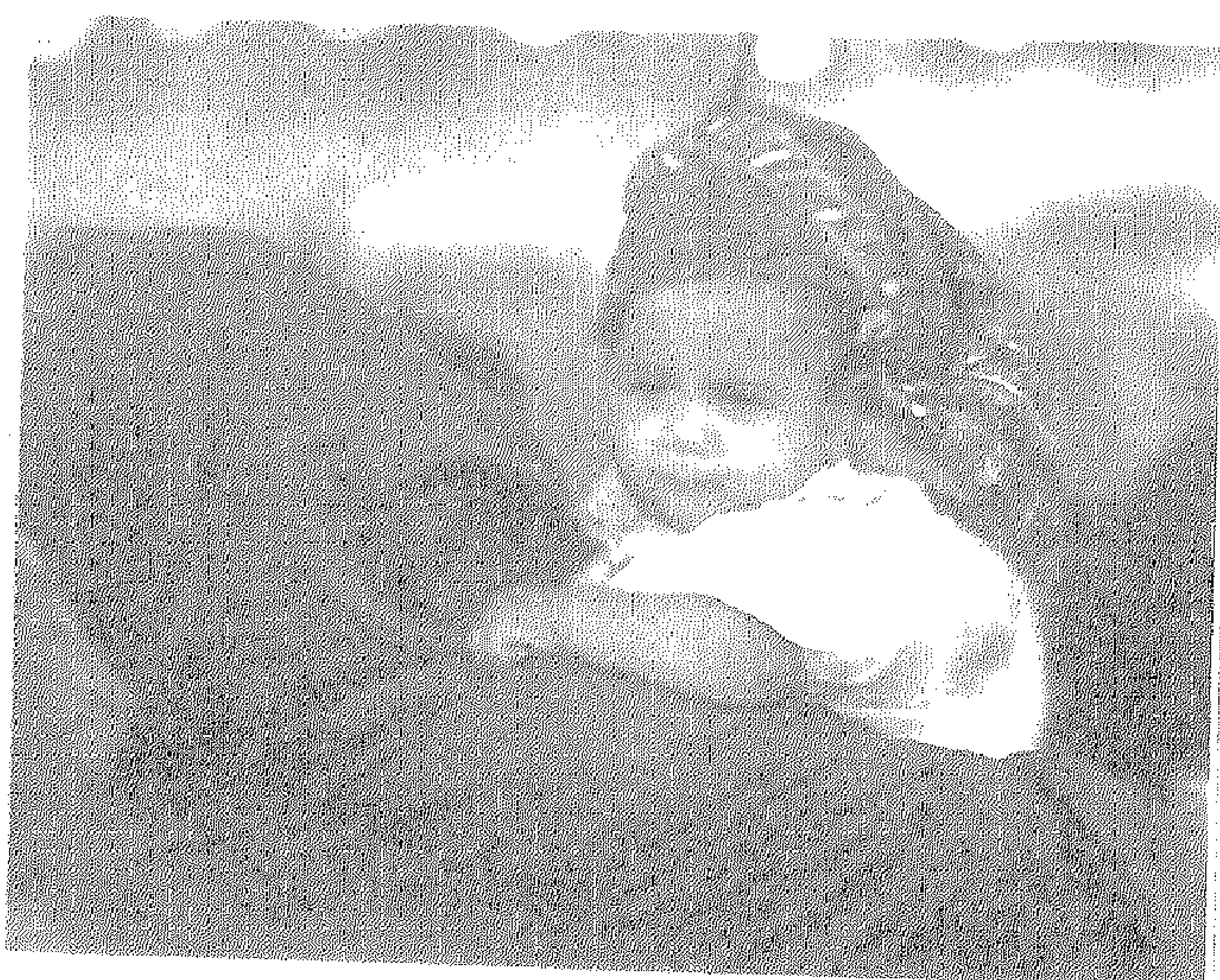
تارقية بزينتها البسيطة



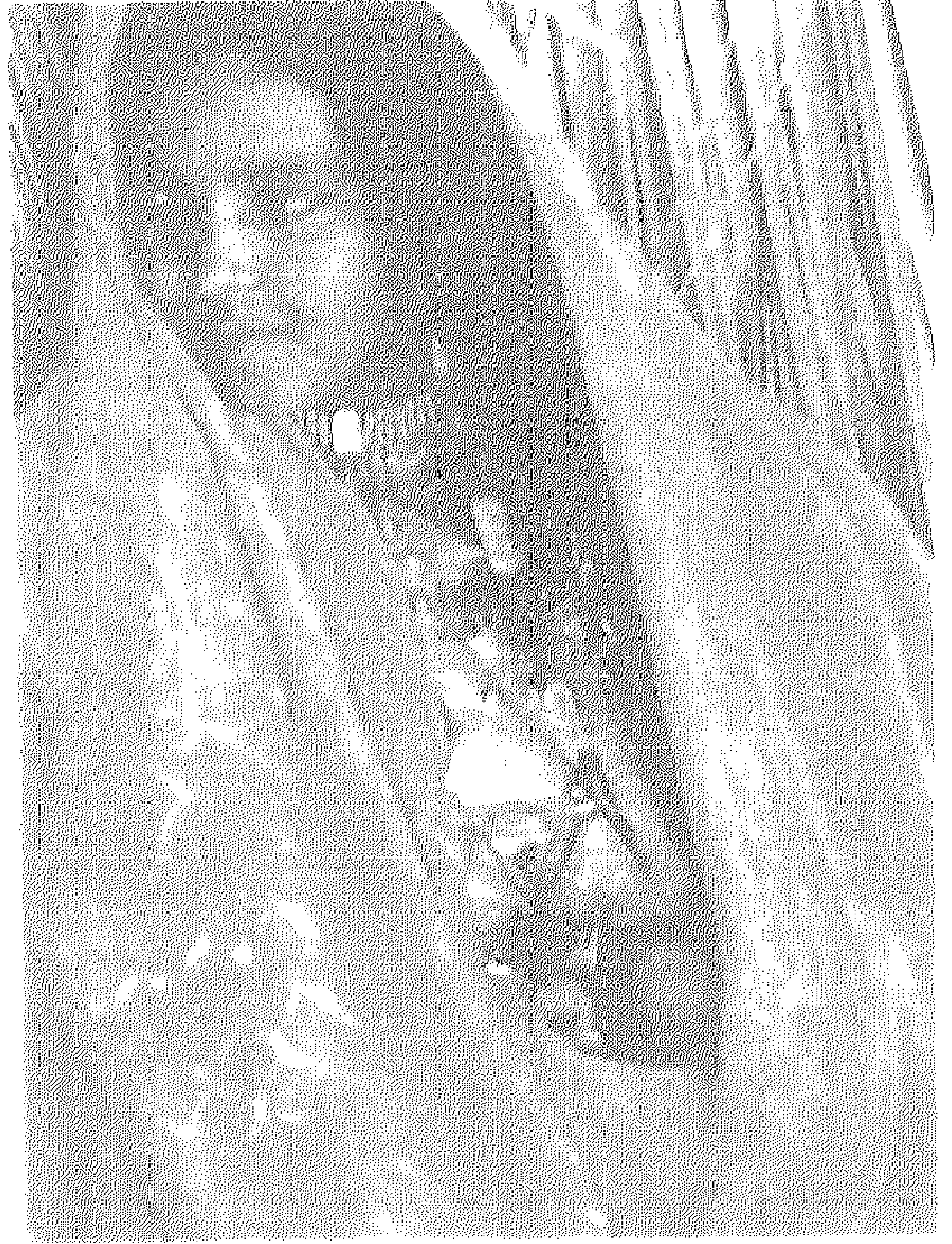
فتيات توارق (أوراغن) وقد التحقن بالمدارس وهنّ باللباس العسكري في ثانوية غات



امراة تارقية تضع الكحل في عينيها (بمرود من الفضة)



تارقية تحمل ابنتها في طريقها إلى عرس وقد زينت الطفلة بمنديل جميل على رأسها



عروس من التوارق بكامل زينتها



امرأة تارقية تتزين وقد ظهرت ضفائرها المحكّمة الضفر وبطريقة خاصة



تارقية بجانب خيمتها تدق الذرة استعداداً لطهي طعامها



طفلة تارقية وقد ضفرت شعرها
بالطريقة التارقية المميزة



تارقية تحرك الدقيق والماء لتسكبه
على حجر محمّى ويصبح خبزاً. وقد
جلس أمامها أطفالها بغير ملابس



عازفة الأمزاد من
توارق «الهقار»



أحد الراقصين التوارق
وبين يديه قطع معدنية ينظم بها الإيقاع



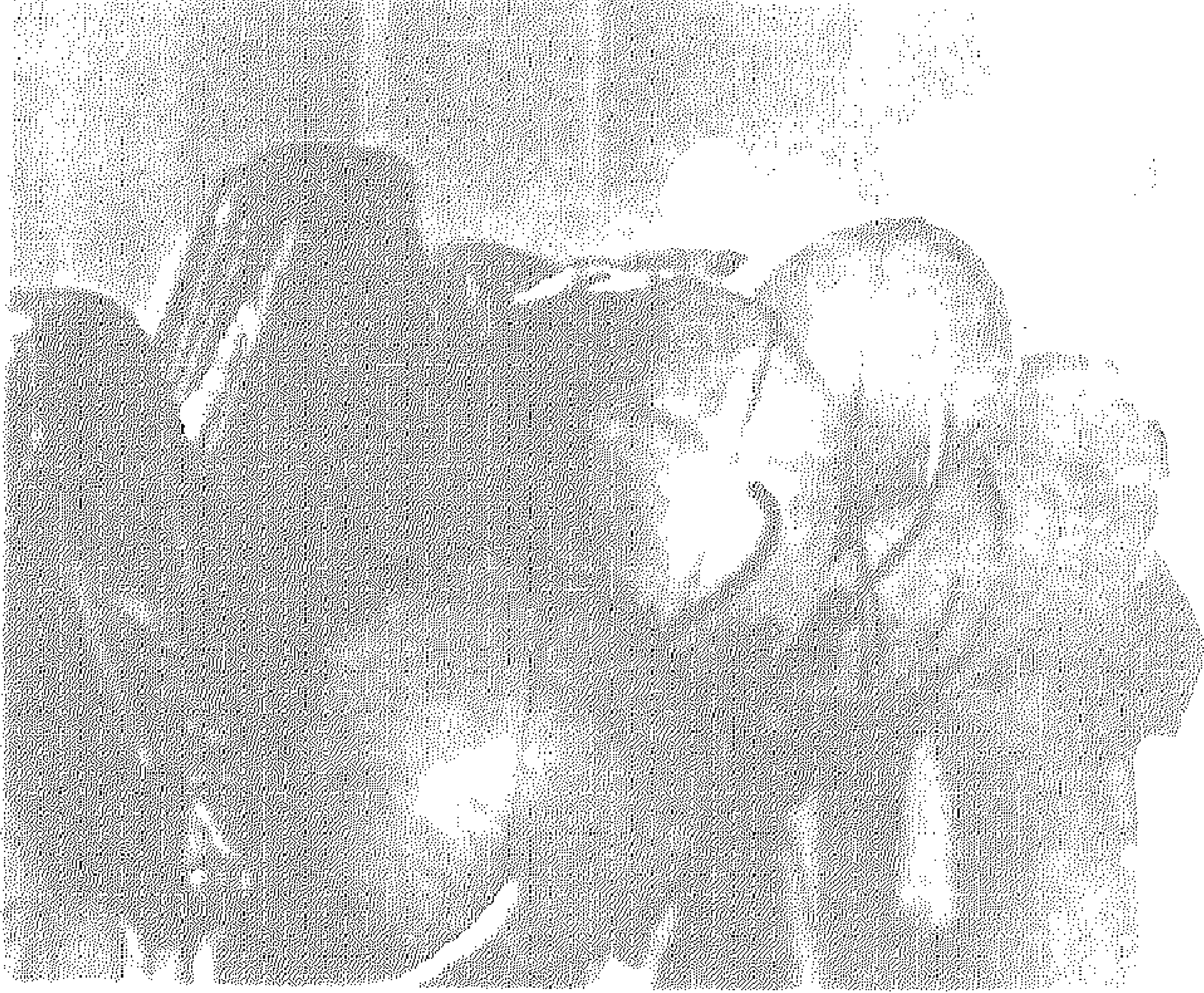
ضارب الطبل، والطبل رمز الزعامة عند التوارق



رقصة السيف، إحدى رقصات التوارق في الأفراح



«الأمزاد» آلة طرب عند التوارق، ولعشقهم لها يقسمون بها أحياناً في أيمانهم



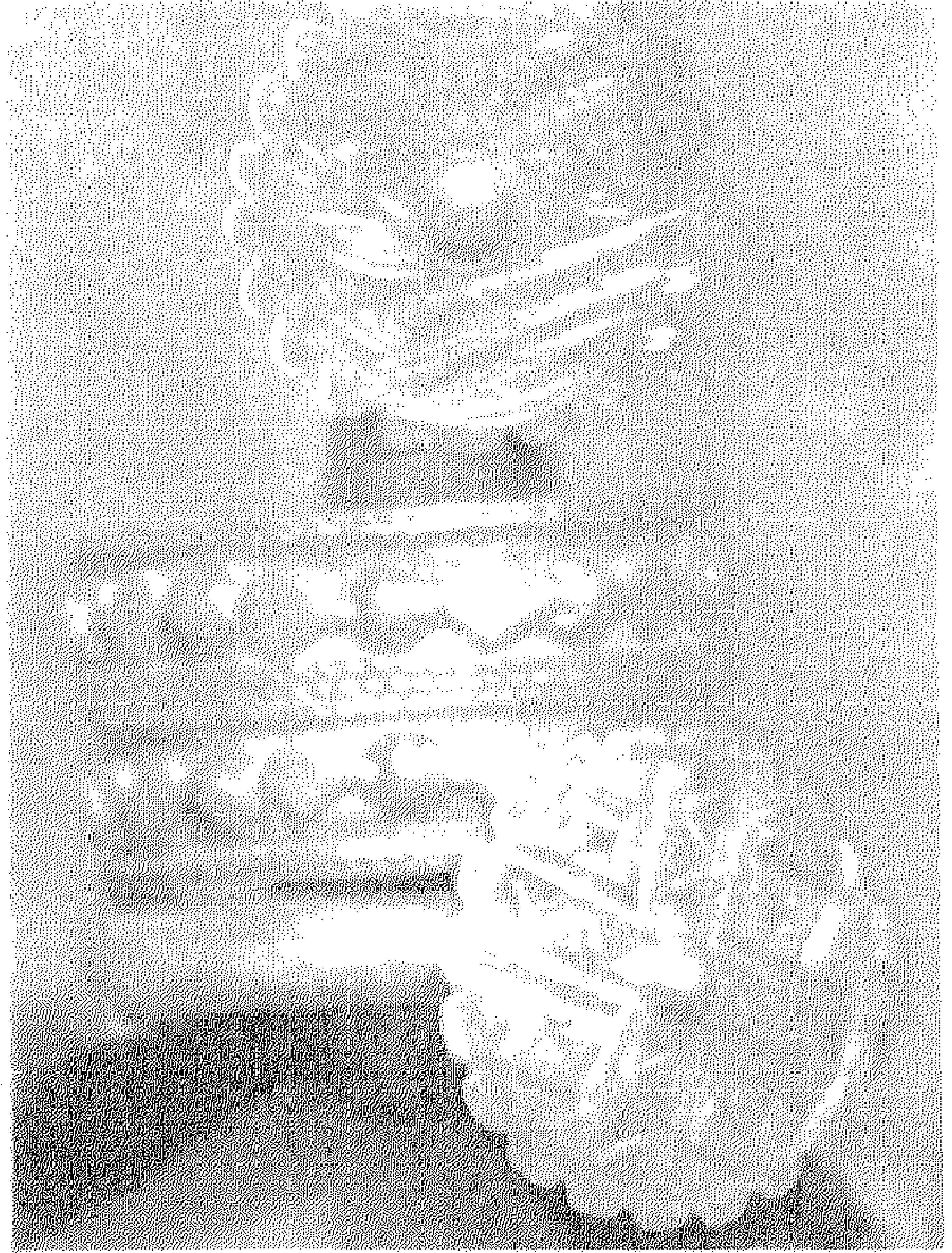
ضاربات الدفوف في
أفراح التوارق



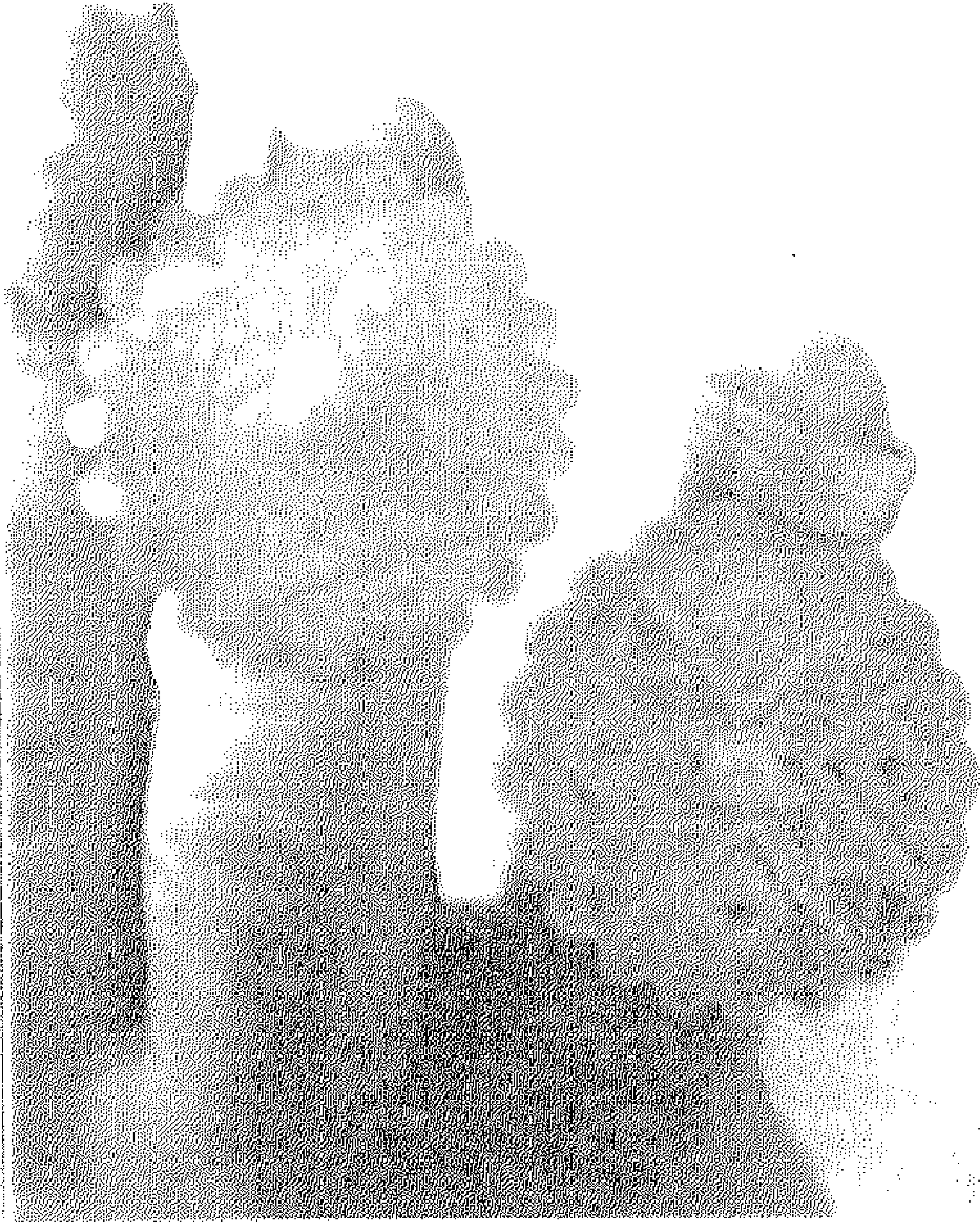
عـازفـة (الأمـزاد) مـن
منطقة «أوراغن» «غات»



تارقي يجهز جمله للسفر



خواتم وسوار من الفضة، حلية نساء التوارق (غدامس)



خواتم من الفضة تلبسها نساء التوارق في اصابعهن
وتسمى عند التوارق (تيضْهوتي)



أحراز من الفضة ويلاحظ أن أحدها مفتوح ويظهر بداخله
(الحجاب) ومعلق بخيوط مزينة بالمرجان



جلس هذا التارقي بجانب الأثاث المعد لحمله على الجمل.
وتلاحظ (غرائر) الجلد

خاتمة

تناولت في هذا البحث خلال أحد عشر باباً التوارق من جميع جوانبهم، وطرق حياتهم، وسلوكهم الاجتماعي وتاريخهم، ومشاهيرهم، وثوراتهم عبر التاريخ.

وأخيراً، تحدّثت عن واقعهم المعاصر، وإمكانية مد يد المساعدة إليهم في محنتهم الحالية، وظروفهم الصعبة.

وخرجت من هذا البحث بحقائق ثابتة لا تقبل الشك، توصلت إليها من خلال البحث والتنقيب والمشاهدة والرواية، وكان أهم هذه الحقائق:

1 ـ عروبة التوارق التي لا تقبل الجدل والنقاش، وانتماءهم إلى الجزيرة العربية وانتماءهم إلى أمة الضاد كما أثبتتها المصادر والمراجع واللقاءات التي تمَّت بيني وبين كبار السن منهم في صحرائهم الشاسعة. وكما وضحتها لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وحتى ألعابهم الشعبية.

2 ـ إن الجزيرة العربية هي موطن التوارق الأصلي وأنهم نزحوا إلى أفريقيا في هجرات بعضها قبل الإسلام وبعضها ـ اعتماداً على بعض الروايات ـ في صدر الإسلام، وبعضها تمَّ حديثاً.

3 ـ إن التوارق استقرُّوا في ليبيا ومنها انتشروا جنوباً عبر الصحراء

بحثاً عن الكلأ، وهروباً من الضغط الاستعماري على الشواطىء، ولنشر الإسلام في أدغال أفريقيا.

4 ـ إن اللغة التارقية هي إحدى اللهجات العربية القديمة والتي لا تزال بقاياها في حضرموت والمهرة بجنوب اليمن وغرب عُمان، وأن القرآن الكريم وحّد لهجات العرب في لغة قريش.

5 ـ إن حروف (التافيناغ) هي نفسها الحروف الليبية القديمة (الفينيقية).

6 ـ إن دور التوارق في نشر الإسلام لا يُجهل سواء عندما انطلقوا ضمن جيوش موسى بن نصير، وطارق بن زياد لفتح الأندلس، أو عندما أسّسوا دولة المرابطين (الملثمين) في المغرب والأندلس، أو عندما اندفعوا ينشرون الإسلام في أفريقية في دولة المرابطين الجنوبية، متمازجين مع إخوانهم العرب القادمين من جزيرتهم حديثاً.

7 ـ إن دولة المرابطين كانت إسلامية عربية ولم يفكر أي من قادتها في غير ذلك.

8 ـ إن الإمارات التي قامت في الصحراء الكبرى وكذلك السلطنات كانت إمارات وسلطنات عربية تمتزج فيها القبائل العربية الموجودة في الصحراء ومن ضمنها التوارق.

9 ـ إن الاستعمار الفرنسي حاول مسخ المنطقة وشوّه تاريخها، وسلب الناس في الصحراء أفضل عاداتهم وتقاليدهم وقضى على أئمة الإسلام وكبار المشاهير في الصحراء الكبرى.

10 ـ فرض الاستعمار الفرنسي على سكان المنطقة من عرب وتوارق عرب، الجهل، والفقر والعيش الضنك، وشرّدهم في القفار والصحارى، محاولاً إبادتهم كعنصر عربي في الصحراء.

11 ـ إن الجهاد الذي قام في الصحراء الكبرى ضد الاستعمار الفرنسي ساهم فيه جميع سكان الصحراء تحت قيادات ليبية وأموال ليبية وسلاح ليبي سواء أكان في تشاد أو النيجر أو شمال مالي وحتى جنوب الجزائر.

12 ـ إن الجماهيرية هي السند الوحيد الآن، والملجأ الوحيد لسكان الصحراء الكبرى وخاصة التوارق في محنتهم ومساعدتهم بالعمل والإقامة وحمتهم من الموت جوعاً ومن التشرد في الصحراء. في الوقت الذي تمزقهم فيه الدول المجاورة وتصمت أمام موتهم البطيء بالجوع والجفاف والمرض.

13 ـ إن تاريخ المنطقة (الصحراء الكبرى) وشمال أفريقيا مرتبط تمام الارتباط، ويعتبر حلقة واحدة من ضمن سلسلة التاريخ العربي الإسلامي.

14 ـ إن تاريخ المنطقة وخاصة الصحراء تعرض للتشويه من قبل المستعمرين وهو في حاجة لأقلام الشرفاء ليزيحوا الغبار عنه ويقدموه في صورته الحقيقية.

هذا وأنا إذ أقدم هذا البحث عن التوارق وهو ـ على ما أظن ـ الأول من نوعه في العربية أتمنى أن أكون قد فتحت باب هذا الموضوع

للبحّاث والكتّاب والمؤرخين العرب والمسلمين ليقدّموا دراسات أخرى جادة عن تاريخ الصحراء الكبرى وعن القبائل العربية التي تقوم بحمايتها منذ أقدم التاريخ.

وأطلب من الله العون والهداية.

الجماهيرية ـ طرابلس الغرب/ 1 من سبتمبر 1987

د. محمد سعيد القشاط



المصادر والمراجع

1- المخطوطات

2- المراجع العربية

3- المراجع الأجنبية وترجمتها

المصادر والمراجع

1 ـ المخطوطات

1 ـ مساهمة في دراسة تاريخ ومجتمع التوارق شعب الصحراء الكبرى: تأليف محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

2 ـ أمراء الدولة الملثمين: تأليف محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

3 ـ مقالات عن التوارق: بحث مخطوط. تأليف محمد أحمد الشفيع ـ مكتبة المؤلف.

4 ـ ملخص عن تاريخ الصحراء: تأليف الخجي آمي ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

5 ـ أزواد: تأليف خي بابا شياخ ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

6 ـ لمحة عن ماضي أفريقيا التاريخي: تأليف أحمد بابا دمة ـ مخطوط مكتب المؤلف.

7 ـ الطرائف والتلائد في أخبار الشيخين الوالدة والوالد: تأليف الشيخ سيدي محمد بن شيخه سيدي المختار بن سيدي بابا أحمد بن

سيدي أبو بكر الكنتي الوافي ـ مخطوط مكتبة محمد محمود ولد دادي. صورة بمكتبة المؤلف.

8 ـ دراسة عن التراث الشعبي عند التوارق: تأليف همة وليلة ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

9 ـ أزواد: تأليف باشا شيخنا ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

10 ـ دراسة عن الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي: تأليف محمد معلوم، دراسة لنيل الماجستير بجامعة الفاتح بليبيا ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

11 ـ ظاهرة الدولة: تأليف أحمد بن سيدي سفير موريتانيا بليبيا. بحث يتناول بلاد شنقيط وتركيبتها الاجتماعية. صورة مخطوط مكتبة المؤلف.

12 ـ الخطبة والزواج عند التوارق: بحث يتناول عادات توارق شمال مالي كتبه عبد الرحمٰن محمد قلة. عن رواية (وارتوردين محمد الشيخ) 61 سنة ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

13 ـ كفاح اللادي آلّه بشير: تفريغ شريط مقابلة مع اللادي أحد أبطال ثورة 1963 في كيدال (شمال مالي) عام 1981 ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

14 ـ الحقائق الأزوادية (شمال مالي): بحث كتبه موسى أحمد الأفوغاسي ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

15 ـ لمحة عن أحداث حركة الاستقلال في مالي 1959: بحث

المرحوم خي باب شياخ ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

16 ـ بحث موريتانيا للمرحوم خي بابا شياخ ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

17 ـ قصيدة الشاعر محمد امبارك اللمتوني. مخطوطة مكتبة المؤلف.

2 ـ المراجع العربية

1 ـ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ـ دار الثقافة. بيروت 1980 .

2 ـ ابن خلكان: أبي عباس شمس الدين. «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان». دار صادر ـ بيروت 1977.

3 ـ ابن خلدون عبد الرحمٰن: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» ـ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1967.

4 ـ ابن عماد: أبي الفلاح عبد الحي بن العماد «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

5 ـ ابن علبون: أبي عبد الله محمد بن خليل «التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار». عني بنشره الطاهر أحمد الزاوي. المطبعة السلفية.

6 ـ ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» ـ دار الفكر ـ بيروت 1978.

7 ـ ابن خرداذية. أبي عباس: «المسالك والممالك» مكتبة المثنى ـ بغداد.

8 ـ ابن بطوطة رحلة. تحقيق علي المنتصر الكتاني. جزء أول وثان. مؤسسة بيروت ـ شارع سوريا.

9 ـ ابن منظور: لسان العرب ـ معجم لغوي ـ دار صادر ـ بيروت.

10 ـ دراسة عن الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي: تأليف محمد معلوم. دراسة لنيل الماجستير بجامعة الفاتح بليبيا ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

11 ـ بللين بول: وغى روندرو (معلمان في الرقيبة التابعة للواد) «ألعاب الأطفال في الصحراء» بالفرنسية ـ ترجمه للعربية عبد المجيد شعبان ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

12 ـ برولار: (نقيب احتياط في الجيش الفرنسي) (الموسيقى والرقص في غات) ترجمه للعربية عن الفرنسية عبد المجيد شعبان ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

13 ـ إسماعيل محمد: الخوارج في المغرب الإسلامي ـ دار العودة ـ بيروت 1976.

14 ـ التليسي خليفة محمد: «ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911». دار الثقافة ـ بيروت 1974.

15 ـ التيجاني: رحلة أبو محمد عبد الله بن محمد التيجاني ـ نشريات كتابة الدولة للمعارف التونسية 1958.

16 ـ حسين محمد كامل: «في أدب مصر الفاطمية» ـ دار الفكر العربي ـ مصر 1963.

17 ـ جامي عبد القادر: من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ـ ترجمة محمد الأسطى ـ دار المصراتي للطباعة والنشر والتوزيع ـ ليبيا.

18 ـ خطاب محمود شيت: قادة فتح المغرب العربي ـ دار الفتح ـ بيروت 1966.

19 ـ خطاب محمود شيت: عقبة بن نافع الفهري ـ دار الفكر ـ بيروت.

20 ـ دافدسن بادل: أفريقيا تحت أضواء جديدة ـ ترجمة جمال ـ م ـ أحمد ـ دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.

21 ـ راي ادوارد: المغرب العربي ـ ترجمة مصطفى محمد جودة ـ دار مكتبة الفكر ـ طرابلس 1968.

22 ـ رايت لويس وجوليا ماكاليود ـ الحملات الأمريكية على شمال أفريقيا ـ تعريب روحي بعلبكي ـ مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا.

23 ـ رايت جون: تاريخ ليبيا ـ تعريب عبد الحفيظ الميار، وأحمد اليازوري ـ الناشر الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا 1972.

24 ـ روش جان: صحراء وتوارق ـ ترجمه من الفرنسية للعربية مجهول ـ مخطوط مكتبة المؤلف.

25 ـ الزاوي الطاهر أحمد: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ دار التراث ـ ليبيا ـ الطبعة الثالثة 1972.

26 ـ الزبيدي: محمد مرتضى ـ تاج العروس ـ معجم لغوي ـ دار صادر ـ بيروت. الطبعة الأولى ـ المطبعة الخيرية. المنشأة بجمالية مصر (المحمية سنة 1306 هـ).

27 ـ الزركلي: خير الدين. الأعلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان. الطبعة الخامسة سنة 1980.

28 ـ السعدي: الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ـ «تاج السودان». وقف على طبعه هوداس مدرس اللغة العربية بمحروسة باريز وشاركه في ذلك تلميذه السيد بنوة. طبع بمطبعة بردين آنجي 1898.

29 ـ سعدي عثمان: «عروبة الجزائر عبر التاريخ» ـ الشرة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ 1982.

30 ـ ساليفو أندرو: «كاوصن أو الثورة السنوسية» ـ نشر المركز النيجري للبحوث في العلوم الإنسانية ـ نيامي 1973 ـ ترجمة محمد عبد الرحمٰن عبد اللطيف. مخطوط مكتبة المؤلف.

31 ـ شاكر محمد ونافذ أيوب: بيلتو من سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا مالي ـ المكتب الإسلامي.

32 ـ الشنتريني: أبي الحسن علي بن بسام «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الدار العربية للكتاب ـ ليبيا، تونس 1979.

33 ـ الشنقيطي: أحمد بن محمد الأمين. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ـ مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء 1958.

34 ـ علي جواد: «تاريخ العرب قبل الإسلام» ـ دار العلم للملايين ـ مكتبة النهضة ـ بغداد 1976.

35 ـ عنان محمد عبد الله: «عصر المرابطين والموحدين» ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ 1383 هـ 1964 م.

36 ـ العقاد عباس محمود: «فاطمة الزهراء والفاطميون» ـ دار الهلال.

37 ـ غير ستر جورج: «الصحراء الكبرى» ـ تعريب خيري حماد ـ المكتب التجاري ـ بيروت.

38 ـ الغناي مراجع عقيلة: «سقوط دولة الموحدين» منشورات جامعة بنغازي 1975.

39 ـ القشاط محمد سعيد: «معارك الدفاع عن الجبل الغربي» ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ـ الطبعة الأولى 1983.

40 ـ القشاط محمد سعيد «خليفة بن عسكر» (الثورة والاستسلام) ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1978.

41 ـ القيرواني الرقيق: «تاريخ أفريقيا والمغرب» الناشر رقيق السقطي ـ تونس.

42 ـ كحالة عمر رضا: «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة». منشورات دار مكتبة الأندلس ـ بنغازي ـ ليبيا.

43 ـ كعت: القاضي الفع محمود كعت «تاريخ الفتّاش» ـ وقف على طبعه السيد هوداس مدرس اللغة العربية ـ بمحروسة باريز وشاركه في ذلك السيد دلافوس ـ مدرس اللغات السودانيات.

44 ـ لقبال موسى: «الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي» ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ 1971.

45 ـ العوامر إبراهيم الساسي: «الصروف في تاريخ الصحراء وسوف» الدار التونسية للنشر 1977.

46 ـ الميلي محمد: «ابن باديس وعروبة الجزائر» ـ دار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان ـ الجزائر.

47 ـ الأنصاري أحمد بك النائب: «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب» مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا.

48 ـ البعلبكي منير: «موسوعة المورد» ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الأولى ـ 1980.

49 ـ النويري شهاب الدين: «نهاية الأرب» ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

50 ـ المسعودي: أبي الحسن علي بن الحسين بن علي «مروج الذهب» دار الأندلس ـ بيروت.

51 ـ المبرد: أبي العباس محمد بن يزيد «الكامل في اللغة والأدب» ـ مكتبة المعارف ـ بيروت.

52 ـ الطبري: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري «تاريخ الملوك والأمم» ـ مكتبة خياط ـ شارع بلس ـ بيروت ـ لبنان.

53 ـ البرغوثي عبد اللطيف محمود: «التاريخ الليبي القديم» ـ منشورات الجامعة الليبية ـ دار صادر ـ بيروت ـ 1971.

54 ـ لوت هنري: «لوحات تاسيلي» ـ تعريب أنيس زكي حسن ـ مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا.

55 ـ ليون جون فرانسيس: «من طرابلس إلى فزان» ـ مذكرات 1818 ـ تعريب مصطفى جودة ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا، تونس.

56 ـ ماتي بول: كنته الشرقيون «من عرب مالي والنيجر» ـ ترجمة محمد محمود ولد ودادي ـ مطبعة زيد بن ثابت ـ دمشق.

57 ـ مارتي بول: «البرابيش» (بنو حسان) ـ ترجمة محمد محمود ولد ودادي ـ مطبعة زيد بن ثابت ـ دمشق.

58 ـ مفتاح صالح مصطفى: «ليبيا منذ الفتح العربي» ـ الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان 1978.

59 ـ ماتسان هانريش فون: «ثلاث سنوات في شمال غرب أفريقيا» ـ ترجمة أبو العيد دودو ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980.

60 ـ معمر علي يحيى: «الإباضية في موكب التاريخ» ـ مكتبة وهبة.

61 ـ مقلد محمد يوسف «شعراء موريتانيا» ـ مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء.

62 ـ مقلد محمد يوسف «موريتانيا الحديثة» ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت.

63 ـ منصور عبد الوهاب «قبائل المغرب» ـ المطبعة الملكية ـ الرباط ـ 1968.

64 ـ ناجي محمود: «تاريخ طرابلس الغرب» ـ ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى ـ منشورات الجامعة الليبية ـ كلية الآداب.

65 ـ هورغان فيدريك: «رحلتان عبر ليبيا» ـ دار الفرجاني ـ ليبيا.

66 ـ هورغان فيدريك: «الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان» ـ تعريف مصطفى محمد جودة ـ مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا ـ 1968.

67 ـ ولد أباه محمد المختار: «دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا» ـ الجامعة التونسية 1981.

68 ـ وجدي محمد فريد: «دائرة معارف القرن العشرين» ـ دار الفكر 1979.

69 ـ ويللارد جيمس: «الصحراء الكبرى» ـ مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا.

70 ـ الوزان الحسن بن محمد (ليون الأفريقي): «وصف أفريقيا» ـ ترجمه عن الفرنسية محمد صبحي ومحمد الأخضر ـ دار الغرب الإسلامي. ص 2 ـ 5787 ـ 113 ـ بيروت.

71 ـ يوشع بشير قاسم: «غدامس ملامح وصور» ـ دار لبنان للنشر والتوزيع ـ 1973.

3 ـ المراجع الأجنبية وترجمتها

1 ـ الجغرافيا العامة/ الجزء الحادي عشر/ أفريقيا الشمالية والغربية، القسم الثاني/ الصحراء وأفريقيا الغربية. مكتبة أرمان كولان (1939).

1- Geographie Universelle Tome XI -Afrique Septentrionale ed Occidentale. -Deuxième Partie.
Sahara - Afrique Occidental Librairie Armand Colin (1939).

2 ـ بحوث صحراوية/ المركز الوطني للبحث العلمي، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي/ 1979 باريس/ فرنسا.

2- Recherches Sahariennes Centre National de la Recherche Scientifique -Editions du Centre National de la Recherche Scientifique Paris (1979) France.

3 ـ أساطير تارقية/ تأليف السيدة جان روني بونتيبي، المطبعة اللاتينية الحديثة (1946).

3- Legendes Touareg, *Jeane Rene Pottier*, (1949). Nouvelles Edition - Latines.

4 ـ من طرابلس إلى تينبكتو/ الرحلة الأخيرة د. لانج 1825 ـ 1826. تأليف تيودور مونو. الجمعية الفرنسية لتاريخ ما وراء البحار/ باريس (1977).

4- De Tripoli a Toumbouctou le Dernier Voyage de *Laing*, 1825-1826. Par Theodore Monod. Societe Française d'Histoire d'Outre/Imer/ Paris (1977).

5 ـ تقاليد توارق النيجر/ تأليف محمد أغالي زكارة وجانين دورين، مطبعة هامتان (1979).

5- Traditions Touaregues Nigiriennes par: *Mohamed Aghali Zakara et Jeanine Drouin.* -Edition l'Harmatan (1979).

6 ـ أجمل صحراء العالم/ تأليف فيليب ديول، مطبعة ألبان ميشال (1955).

6- Le Plus Beau Desert du Monde par: *Philippe Diole.* Editions Albin Michel (1955).

7 ـ ملحمة التينيري/ تأليف هنري لوت. مطبعة جاليمار (1961) باريس.

7- L'epopee du Teneré, par: *Henri Lhote.* Librairie Gallimard (1961) Paris.

8 ـ الرؤوس الملتهبة (الطريق الطويلة) قصة. مطبعة ألبان ميشال (1959) باريس.

8- Les Tetes Brulées, (La Longue Piste) Roman par: *Jesn-Louis Cotte.* -Editions Albin Michel (1959) Paris.

9 ـ على مشارف الخوف/ تأليف جوفري مورهاوس. ترجمه عن الإنجليزية روني بينزا. مطبعة أرتاود (1975) باريس.

9- Jusqu'au Bout de la Peur, Par: *Geoffrey Moorhouse.* Traduit de l'Anglais. Par: *Rene Benezra.* -Editions Arthaud (1975) Paris.

10 ـ رجال جبال الهوجار/ تأليف أوديت برنيزات. مطبعة جلينا (1985).

10- Hommes des Montagnes du Hoggar, Par: *Odette Bernezet Glenat* (1985).

11 ـ التوارق ـ دعاة ومحاربي الرمال. تأليف: إدموند برنوس. مطبعة: برجر ـ لوفرو ـ باريس/ فرنسا (1984).

11- Les Touaregs, Pasteurs et Guerriers des Sables, Par: *Edmond Bernus*. -Imp: Berger- Le Vrault, Paris, France (1984).

12 ـ التوارق/ بدو الصحراء. تأليف فريدريكا سيسكو. منشورات موندو/ لوزان، سويسرا (1971).

12- Touareg, Nomades du Sahara, Par: *Frederica Cesco*. -Editions Mondo: Lausane/Suisse (1971).

13 ـ صحراء ـ تأليف فرانسوا فرنيو. بوان كاردينو/ روبر لافون/ باريس (1977).

13- Sahara, Par: *François Vergniaud*, -Ed. *Points Cardinaux / Robert, Lafont/* Paris (1977).

14 ـ خمسون سنة من الصحراء. تأليف فريسون روش ـ وبيار تايراز. مطبعة أرتاود/ باريس ـ فرنسا (1976).

14- So Ans de Sahara. Par: *Frison-Roche et Pierre Tarraz*. -Editions: Arthaud- Paris (1976).

15 ـ إمبراطورية قاو ـ تاريخ ـ عادات ـ وسحر الصنقاي. تأليف الدكتور جان بولنوا وبوبوهما. مكتبة أمريكا والشرق، أدريان ـ ميزان نوف ـ باريس/ فرنسا (1957).

15- Empire de Gao. Histoire -Cotumes et Magie de Sonrai. Par: *Dr. Jean Boulnoid* et *Bobo Ham*. -Librairie d'Amerique et d'Orient. -Adrian -Mainsonneuve, Paris (1957).

الفهرس

الإهداء 5
مقدمة الطبعة الرابعة 7
مدخل 9
الباب الأول 17
موطنهم . . نسبهم . . لغتهم . . كتابتهم 17
موطنهم 19
نسبهم 23
تسميتهم بالتوارق 32
لغتهم 36
كتابتهم «التيفناغ» 40
الباب الثاني 45
النظام السياسي عند التوارق 47
نظام الحكم في السلطنات 57
المجلس العام 63
احتفالات التنصيب 64
العلاقات السياسية بين السلطنات التارقية 66

الباب الثالث 71
الحياة الاجتماعية في المجتمع التارقي 73
الطبقات الاجتماعية عند التوارق 75
الباب الرابع 85
الحياة الاقتصادية عند التوارق وسيطرتهم على طرق القوافل .. 87
مساكن التوارق وطعامهم 95
أثاث التوارق 100
الباب الخامس 103
عادات التوارق وتقاليدهم 105
تربية الأولاد عند التوارق 117
الطلاق عند التوارق 122
عادات التوارق تجاه الموتى والقبور 123
الاحتفالات عند التوارق 124
احتفالات الخريف 126
الباب السادس 129
أ ـ الطب الشعبي عند التوارق 131
علم البيطرة 136
ب ـ الفأل والتطير عند التوارق 139
ما يمنع نزول المطر عند التوارق 144
الطبيعة ومعتقدات التوارق 145
التوارق والجن 147

الباب السابع 149
أ ـ الأدب والرقص والموسيقى عند التوارق 151
الغناء والموسيقى عند التوارق 176
الرقص 180
ب ـ ألعابهم الشعبية 184
الباب الثامن 193
دور التوارق في التاريخ الإسلامي 195
دولة المرابطين «الملثمون» 200
دور الملثمين في حماية الإسلام وانتشاره 212
نظام الحكم عند الملثمين 215
الباب التاسع 221
التوارق ودورهم في صد الاستعمار الحديث 223
التوارق والاستعمار الفرنسي 229
انتفاضات التوارق ضد الفرنسيين 237
ثورة فهرون بن الأنصار 1916 239
الليبيون وإعلان الجهاد المقدس 242
حصار أقدز 13 ديسمبر 1916 ـ 3 مارس 1917 252
الباب العاشر 267
مشاهير التوارق في التاريخ 269
أمراء دولة الملثمين 271
أشهر القادة العسكريين في دولة المرابطين 282
أمراء دولة بني غانية الفرع الثاني لدولة المرابطين 291

دولة بني غانية 293
سلاطينهم ومشائخهم المشهورون في العصر الحديث . . . 298
الباب الحادي عشر 313
الثورات والاستقلالات الحديثة 315
الحرب الجزائرية ـ المغربية وأثرها على ثورة كيدال 327
عرض صور عن التوارق وعاداتهم 335
خاتمة 359
المصادر والمراجع 365

